الموجز
في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات
وتعريفات العلوم

إعداد

د / زينب محمد بدوى

مدرس التفسير وعلوم القرآن

الفرقة الرابعة

العام الجامعي

٢٠٢٣/ ٢٠٢٤م

جامعة جنوب الوادى

كلية الآداب

قسم الدراسات الإسلامية

اسم المقرر: الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم

الفرقة :الرابعة دراسات إسلامية

الفصل الدراسى الأول

د / زينب محمد بدوى

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين. اللهم وصلى وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته أجمعين، ومن دعا بدعوته، واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا دليل موجز، إلى أبرز مراجع تراجم العلماء، والأدباء، والمصنفين في كل فن فنون التراث العربي، على اختلاف مناهج هذه المراجع، مع ذكر شيء من كتب الضبط والتقييد، وكتب البلدان (الجغرافيا) ، ومراجع الكتب والمصنفات (المراجع الببليوجرافية) التي تعين على رصد حركة التأليف العربي، ومعرفة مساره عبر القرون والأزمان، وكتب تعريفات العلوم ومصطلحاتها.

وقد وضعت هذا الدليل الموجز لطلبة الدراسات العليا (١) ، الذين يؤودهم جمع مادتهم التاريخية، والتهدى إلى توثق الكتب والمصنفات، من مصادرها ومظانها.

ولقد كنت أسأل بين الحين والحين عن شيء من ذلك، فأجيب بما يفتح الله به علي، ومع كثرة السؤال كنت أجد أسى، وأحس ألماً لما تردى فيه طلبة العلم، من جهل بتاريخ أمتهم، وعلومها وآدابها ومعارفها، وتبوءُ بإثمه مناهج الدراسة في جامعاتنا العربية، التي لا تكاد تعنى بإبراز هذا الجانب وتجليته، إلى أسباب أخرى

من القهر والمسخ والتشويه، وتفريغ العقول التي يتعرض لها أبناؤنا فيما يقرأون وفيما يسمعون.

نعم، لقد تعرض أبناء هذا الجيل لسيل طاغ وموجات متلاحقة، من التشكيك في ثراتهم وأيامهم: فالشعر الجاهلي غموض وانتحال، وتفسير القرآن مشحون بالإسرائيليات، والحديث ملئ بالوضع والضعف، والنحو تعقيد وتأويلات، والصرف فروض ومتاهات، والبلاغة تكلف وأصباغ، والعروض قيود ودوائر تدير الرأس، والتاريخ صنع للحكام والملوك، ولم يرصد نبض الشعوب وأشواقها.

ومن وراء ذلك كله، فاللغة العربية عاجزة عن مسايرة ركب الحضارة؛ لقصورها عن التعبير عن العلوم التطبيقية والكونية؛ لأنها لغة شعر وبيان.

يسمع أبناؤنا هذا كله عالياً مدويا، وتتجاوب أصداؤه المترنحة من أحلاس المقاهى، إلى قاعات الدرس الجامعي، ولا يستطيع الشباب لذلك دفعاً ولا رداً؛ لغرارتهم وجهلهم وقلة حيلتهم؛ ولأن كل هذه السموم إنما تساق في ثياب مزركشة، من المنهجية والموضوعية، والتفكير العلمي، وحركة التاريخ، والموقف الحضاري، والشمولية. ولا يعرف أثر هذه الألفاظ الغامضة المبهمة إلا من ابتلى بشرها، وصلى جمرتها،

وبمثل هذه الألفاظ الخادعة البراقة يستميلون الشباب، ويوقعونهم في قرار مظلم من الافتتان الكاذب، والشك الموبق.

ووجد مسها، وكل ذلك عرفت، إذا كنت في طراءة الصبا وأوائل الشباب، تستهويني هذا الأضاليل، وتتلعب كتلعب الأفعال بالأسماء، على ما قال أبو تمام، وأحسب أن كثيراً من أبناء جيلي قد وقعوا في هذا المهوى السحيق.

وكان أكثر هذه الأصوات دويا، وأشدها فتكا، تلك التي انبعثت من داخل درس الأدب في جامعاتنا العربية. فمن خلال الثرثرة حول نظريات غربية في الأدب، وتطويع الأدب العربي، وإخضاعه لها، وتطاير شرر كثيرة، حاول أن يأتي على تراث عربي عريق للكلمة العربية؛ شعراً منظوماً حمل أنغاماً جليلة، وكلاماً منثوراً أبان عن أدق أسرار النفس وخلجات الروح.

ثم كان أن غرق طلبة العلم في قضايا فارغة، بدءاً من الوحدة الموضوعية والمعاناة، والتجربة الشعرية، وتراسلا الحواس، والمونولوج الداخلي، والدفقة الشعورية، والتعبير بالصورة، والألفاظ الموحية، والشعر المهموس (١) ، وأدب الفرض والعبث، وانتهاءً بالحداثة والمعاصرة، التي تشغل بالهم هذه الأيام.

وكانت المحنة فيما أثير حول "الرمز" في الأدب، الذي ألقى سدولاً كثيفة كئيبة على البين الذي هو أشرف ما وهبه الله للإنسان، وخضع النص الأدبي تحليلاً ودرساً لتلك الرموز" اليونانية المتمرغة في أوحال الأساطير، وهي رموز وثنية المنابت والأصول تجعل الحياة البشرية

جحيماً مستعراً من الخطايا والذنوب والآثام، وتحليل الهم الشريف ظلمة مطبقة على القلب والنفس، والقلق السامي تدميراً لبنيان الله الذي أعطى كل شيء خلقه

ثم هدى، سبحانه وتعالى" على ما قال شيخنا محمود محمد شاكر (١) . والرمز عنده ضرب من الجبن اللغوي. يقول حفظه الله:

"فاللغة إذا اتسمت بسمة الجبن كثر فيها "الزمر" وقل فيها الإقدام على التعبير الصحيح الواضح المفصح. ولا تقل إن "الكناية" شبيهة بالرمز، فهذا باطل من قبل الدراسة الصحيحة لطبيعة "الزمر" وطبيعة "الكناية". و "المجاز". وأنا أستنكف من "الرمز" في العربية؛ لأن للعربية شجاعة صادقة في تعبيرها، وفي اشتقاقها، وفي تكوين أحرفها، ليست للغة أخرى. وإذا كانت اللغة هي خزانة الفكر الإنساني، فإن خزائن العربية قد ادخرت من نفيس البيان الصحيح عن الفكر الإنساني، وعن النفوس الإنسانية، ما يعجز سائر اللغات، لأنها صفيت منذ الجاهلية الأولى المعرفة في القدم، من نفوس مختارة بريئة من الخسائس المزرية، ومن العلل الغالبة، حتى إذا جاء إسماعيل نبي الله، ابن إبراهيم خليل الرحمن، أخذها وزادها نصاعة وبراعة وكرما، وأسلمها إلى أبنائه من العرب، وهم على الحنيفية السمحة دين أبيهم إبراهيم، فضلت تتحدر على ألسنتهم مختارة مصفاة مبرأة، حتى أظل زمان نبي لا ينطق عن الهوى، صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله بها كتابه بلسان عربي مبين، بلا رمز مبنى على الخرافات والأوهام، ولا ادّعاء لما لم يكن، ولا نسبة كذب إلى الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. فمن أجل ذلك كرهت الرموز، ورأيتها قدحاً في العربية، وتشويهاً يلحقها" (١) .

ثم كانت محنة ثانية في ذلك "الرمز" الذي استحدثته قضايا الشعر الحر، وما أثاره هذا الكلام المخمور المتهالك من إسقاطات وإحباطات وهذر، حول هموم العصر وعذابات الإنسان، كما يقولون.

ولقد كان يكون الخطب هينا لو أن هذا الهراء ظل في مجثمه في مجالس أحلاس المقاهي ممن ينتسبون إلى الأدب، ولكنه انتقل إلى الدرس الجامعي - كما ذكرت - افتتن به بعض معلمي الأدب افتنانا عجيباً، وصبوه صباً في أدمغة هؤلاء الشباب الأغرار، ممن ابتلوا بالجلوس إليهم، والأخذ عنهم، ولا سبيل أمام الطالب الذي يريد أن يحصل على شهادته الجامعية إلا التلقي والإذعان.

والآن، وبعد انقضاء نحو عشرين عاماً على تخرجي في كلية دار العلوم، أبحث في حنايا نفسي وعقلي، عن أثاره من هذه اللغو الذي أخذ علينا، في مطالع أيامنا، الطرق والمنافذ، فلا أجد شيئاً ألبته، وقد يكون هذا لأني عرفت سبيلي - بفضل من الله وعون - إلى أدب أهلي وعشريتي، ولكني التمست ذلك أيضاً عند نفر من رفقاء دربي في تلك الأيام، فلم أجد عندهم شيئا، وقد جمعني مع أحد منهم لقاء، وكان قد وقع في أسر الفئة الباغية، الذين خدعوه عن تراثه، وأفسدوا ذوقه، فسألته عن " إليوت والأرض الخراب، والرجال الجوف" وكان شديد اللهج به وبهما، فقال: لم يعد معي من ذلك شيء، ثم أن أنة حسرى، وقال ولم يملك سوابق عبرة: "حسبنا الله ونعم الوكيل". والحديث عن "إليوت" وشغف القوم به، يفضى إلى الحديث عن كائنه أخرى، وهي إفراط معلمي الأدب في دراسة الأجناس الأدبية

الغربية، ودراسة الشعراء والأدباء الذين كتبوا بغير اللسان العربي، وهو جهد ضائع مهدر، استفرغ فيه أدباؤنا وسعهم وطاقتهم فيما لا يجدي نفعاً، لا في أدبنا، ولا في أدب الغرب، ولا يذهبن بك الوهم فتظن أن إنجليزيا يلتمس تعريفاً بشكسبير أو تحليلاً لأدبه عن كاتب عربي استهلك وقته وعمره في دراسته. يقول شيخنا محمود شاكر: "رأيت قط رجلاً واحد من غير الإنجليز أو الألمان مثلاً، مهما بلغ من العلم والمعرفة كان مسموع الكلمة في آداب اللغة الإنجليزية وخصائص لغتها، وفي تاريخ الأمة الإنجليزية، وفي حياة المجتمع الإنجليزي، يدين له علماء الإنجليزي بالطاعة والتسليم؟ (١) .

نعم، شغلنا بأدب الغرب وفكر الغرب شغلاً تاماً، حجزنا عن النظر في موروثنا الضخم الذي أبدعته وحملته أجيال وفية، وعلى امتداد أربعة عشر قرناً من الزمان، فكان حالنا في ذلك كالذي قاله إبراهيم بن هرمة:

كتاركة بيضها بالعراء ... وملبسة بيض أخرى جناحا

وكالذي قاله ابن جذل الطعان:

كمرضعة أولاد أخرى وضيعت ... بنيها فلم ترقع بذلك مرقعا

ومثله قول العديل بن الفرخ العجلي:

كمرضعة أولاد أخرى وضيعت ... بني بطنها هذا الضلال عن القصد

والقصد: هو الطريق المستقيم. ولم يكن ضلالنا عن القصد في درس الأدب وحده، بل شمل ذلك سائر العلوم الأخرى. يقول عالم الفضاء المصري الدكتور فاروق سيد (١) الباز: "إن العلوم التي نتعلمها وندرسها في جامعاتنا العربية، هي علوم قائمة أصلاً على تفكير غربي، قامت لخدمة المجتمعات الغربية، ولأضرب لك مثلاً واقعاً من خبرتي ومن واقع تخصصي، لقد تعلمت الجيولوجيا في مصر، فكانت كلها تدور حول ما يتعلق بجبال الألب في أوربا، وجبال لابلاش في شرق أمريكا، وروكي في غربها، أما وادي النيل، وصحراء مصر التي تشكل ٩٦% من مساحة الأراضي المصرية كلها، فلم أتعلم منها ولا كلمة" (٢) .

ومعلوم أن علماء الغرب ومفكريه لم يلتفتوا إلى تراثنا إلاّ في تلك الأيام الخوالى التي كانوا يقيمون فيها حضارتهم، فاتكئوا اتكائا ظاهراً على حضارتنا أيام ازدهارها وبسط سلطانها على الدنيا كلها، وقد عرفوا ذلك من خلال قنوات معروفة كالجوار والحروب والسفارات. أما في أيامنا هذه التي اغتالونا فيها اغتيالا، فهم في شغل عن فكرنا وأدبنا، ولا يخدعنك ما تقرأه عن ترجمة أعمال بعض أدبائنا إلى الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، فهذا من باب إحكام القبضة وشد الوثاق للوقوع في التبعية الثقافية، وإن شئت فقل إنه من باب (الضحك على الذقون) - كما نقول في العامية المصرية - وإلهاء الطفل بدمية أو قطعة حلوى لاستدراجه إلى أن يسمع لك ويدور في فلكك، وحتى يعطي المقادة من نفسه معصوب العينين، مشلول الخطى كالذي وقع في أخذة الساحر.

وآية ذلك أنهم على كثة ما ترجوا لأدبائنا لم يعترفوا لواحد منهم بريادة أو نباهة ترشحه للحصول على جائزة من جوائزهم، كجائزة نوبل مثلاً.

ثم كانت البلية التي دونها كل بلية في خضوعنا للفكر الغربي في درس علوم اللسان العربي؛ نحواً وصرفاً ولغة. وما كان ينبغي لهذه العلوم أن تخضع لتلك التأثيرات الغربية (١) ؛ لأن درسها قائم على نصوصنا من القرآن الكريم وكلام العرب الفحصاء، والشعر العربي في عصور الاحتجاج به. والمصنفون في علوم اللسان العربي قد أوفوا على الغاية من وضع الأصول والمطولات والمختصرات والمتون. حتى أصول هذا العلم الذي نقله اللغويون المحدثون عن الغرب، وأكثروا الضجيج حوله، وهو (علم الأصوات) ، وأقاموا له المعامل والتسجيلات، وقد وضعت أصوله عربية خالصة، منذ الخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، ثم نما على يد أبي علي الفارسي، وتلميذه أبي الفتح بن جنى، ومن جاء بعدهما، وهو من قبل ذلك ومن بعده يعرفه اصغر شيخ في كتاب من كتاتيب القرى المصرين، ويلقنه للصغار، ويعالج أصوله معهم بالتلقى والمحاكاة، واجلس إلى واحد من هؤلاء الأشياخ، وانظر إلى حركة فكيه وشفتيه وجريان لسانه، في إعطاء كل حرف حقه ومستحقه، من الهمس والجهر، والإظهار والإخفاء، والفك والإدغام، والترقيق والتفخيم، وكيف يخرج من أحدهما إلى الآخر، في مثل قوله تعالى: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} صورة الأنبياء ٢٨ - وأنظر كيف يفخم الراء ثم يخرج إلى ترقيق التاء، ثم يعود إلى تفخيم الضاد، ويمضى في ذلك كله في سهولة ويسر، دون استكراه أو إعنات. وكان شيخنا

الجليل الشيخ عامر السيد عثمان - أحسن الله إليه - يأخذنا إلى تفرقة دقيقة لطيفة، في الوقف على الراء من قوله تعالى {فكيف كان عذابي ونذر} وقوله تعالى: {كذبت ثمود بالنذر} - سورة ١٦ -

٢٣ - فالراء الأولى يوقف عليها بترقيق لطيف يشعر بالياء المحذوفة؛ لأن أصلها {ونذرى} (١) . أما الراء الثانية فيوقف عليها بالتفخيم الخاص؛ لأنها جمع نذير.

فهل وجدت شيئاً من هذا في معامل الأصوات؟

أما (النبر) الذي شغبوا به ونازعوا حوله، وأن اللغويين الأوائل لم يعرفوه، فقد عرفه قراء القرآن الكريم، بالتلقي أيضاً، ويسميه بعض القراء: (التخليص) أي تخليص مقطع من مقطع، أو قراءة الكلمة على مقطع واحد، وتلقيت عن شيخي الشيخ عامر السيد عثمان، من ذلك الكثير، منه قوله تعالى: {فسقى لهما ثم تولى إلى الظل} - سورة القصص ٢٤ - وقوله: {فقست قلوبهم} - سورة الحديد ١٦ - وقوله: {وساء لهم يوم القيامة حملا} سورة طه ١٠١.

فإذا عرف طالب العلم بالتلقي صحة النطق في قوله {فسقى} حتى يكون من السقى لا من الفقس، وفي قوله {وساء لهم} حتى يكون من السوء لا من المساءلة، إذا عرف الطالب المبتدئ ذلك لم يحتج في فهم النبر إلى هذا المثال الذي وضعوه، وهو (ذاكر الدرس) لأمر المخاطب المفرد، (ذاكرى الدرس) لأمر المخاطبة المفردة، فمثل هذا المثال ينبغي أن يظل في دائرة التوضيح والتقريب. أما القاعدة فواجب أن تستند إلى النص العالي الموثق الذي لا يرد ولا يدفع.

على أن هذا (النبر) إنما تحتاج إليه بعض اللغات الأجنبية، لأنه عندهم ذو خطر، وتختلف به المعاني اختلافاً ظاهراً - وليس هذا المكان موضع تفصيله - أما في لساننا العربي، فالأداء الصحيح قد انتقل إلينا بالتلقي المضبوط المتواتر، الذي لا يضل ولا يزيغ (١) ، وقد حمله قراء القرآن الكريم بأمانة والتزام، فمن أراده فليلتمسه عندهم لا عند غيرهم.

ثم ترتفع الشكوى في هذه الأيام عن محنة اللغة العربية، وغربتها، وتدني مستواها، على ألسنة الخطباء، وكتابات الكتاب، وأخذ الباكون في النحيب والعويل على أيامنا التي سلفت، وذهب الشاكون في تعليل ذلك كل مذهب وردوا الأمر رداً غير صحيح.

وأصل الداء عند سبب واحد: ماذا يتلقى طالب العربية الآن في كليات اللغة العربية وأقسامها بالجامعات؟ أمشاج من قواعد النحو

والصرف، مطروحة في مذكرات يمليها الأساتذة إملاء، أو يطبعونها طبعات مبتسرة، تنقص عاماً وتزيد عاماً، واختفى الكتاب القديم لتحل محله هذه المذكرات (١) ، ودفع الطلاب دفعاً إلى الملل من قراءة الكتب - والملل من كواذب الأخلاق، كما قال عمرو بن العاص، رضي الله عنه - ولا بد لصلاح الحال من أن تكوى هذه القروح الممدة (٢) ، وأن يستأصل هذا الداء الخبيث من قاعات الدرس الجامعي.

عودوا أيها السادة إلى المتون، عودوا إلى الآجرومية، وترقوا منها إلى ابن عقيل، وهو كتاب سهل رهو، علم أجيالاً، وأقام ألسنة، ولا تحتجوا علينا بالتيسير على الطلاب، ففي تراثنا النحوي كتب ذوات عدد، وضعت للناشئة والمبتدئين.

نعم، عودوا إلى الكتب الأولى، وضعوا الأستاذ الجامعي في حق وظيفته: وهي أن يخوض بالطلاب الجج هذه الكتب، وأن يسلك معهم دروبها، وأنقذوا الطلاب من ذلك البلاء المصبوب، والسم المدوف؛ إن بعض أساتذة النحو يكتبون في فلسفة النحو كلاماً غريباً لا تعرف له أعلى من أسفل (٣) ، كلاماً هو أشبه بتخاريف الشعر الحر، وكلام نقاده، كالذي وصفه أبو العلاء:

وما لأقوالهم إذا كشفت ... حقائق بل جميعها شبه

وكلام هؤلاء الذين يكتبون في فلسفة النحو - على ضعفه وتهافته وثقله - يحمل في أثنائه شكوكا كثيرة، وسخرية باردة بأعلام النحو. وكل هذا من البلاء الذي يفرض على أبنائنا، ويطالبون باستظهاره واستحضاره. وإلى الله المشتكى!

فماذا تطلب من ناشئ غض، تمرغ في هذه الأوحال، وسقى ماء حميما، ثم تكون عقله ووجدانه على هذه الموائد التي ملئت بصحاف مسمومة؟ .

جاءني ذات يوم طالب يعد رسالة "دكتوراه" وسألني متعجباً: كيف لا يذكر ابن منظور في "لسان العرب" شيئاً عن معنى كلمة (التراث) ؟ فقلت له: وكيف كان ذلك؟ قال: هو على ما وصفت لك، لقد بحثت عن مادة (ترث) في فصل التاء من كتاب الثاء، فلم أجد لها ذكرا. فقلت له: ابحث في مادة (ورث) ، وستجد بغيتك؛ لأن هذه التاء التي تراها، مبدلة من الواو، مثل (تجاه) من (وجه) ، و (تقاة) من (وقى) . ففغر فاه دهشاً وتحيراً.

ولو ذهبت أذكر أمثلة من ذلك لأتيت بكل عجيبة.

وإن تراثنا بفنونه المختلفة قد غيب عن أبناءنا بظلمات بعضها فوق بعض من تراث الأعاجم. وحين بلغ الضعف منهم مبلغه أنحينا عليهم باللائمة، ووسمناهم بالقصور. وحق لهم أن يقولوا قولة عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

فلو أن قومي انطقتني رماحهم ... نطقت ولكن الرماح أجرت (١) .

وعوداً على بدء؛ فقد رغب إلى كثير من الطلبة، وكثير أيضاً من كرام أساتذة العلم أن أكتب شيئاً عن مراجع تراجم الرجال والبلدان، وكتب الضبط، ومراجع الكتب والمصنفات، وتعريفات العلوم ومصطلحاتها، وأن أضع ذلك بين أيديهم، تذكرة مختصرة، ودليلاً مسعفاً. فأجبتهم إلى ذلك؛ طالباً للثواب، راغبا إلى الله عز وجل أن ينفع به، مع ما أعرفه في نفسي من ضعف المنة (١) ، وقلة الزاد، فنحن نلقى الناس بعلم " مسترضع بثدي من العجز وثدي من التقصير" كما يقول شيخنا محمود محمد شاكر (٢) . وصدق من قال (٣) ::

خلت الديار فسدت غير مسود ... ومن البلاء تفردى بالسؤدد

وإني لأقول هذا من باب الحقيقة الصادقة، لا من باب التواضع الكاذب، فليس كالزهو والكبر حجازاً بين المرء وبين أن يستفيد علما. وإن من آفات المنتسبين إلى العلم في هذا الزمان: التطاول والتعالي، وترى أحدهم يمشى بين الناس، شامخاً بأنفه، زاماً شفتيه، منتفخاً قد شرقت عروقه ولحمه بدم كذب، هو دم الكبر والعجب، حتى كاد يتفقا. فإذا جاءت الحقائق لم تجد شيئاً؛ إلا شيئاً لا يعبأ به.

فضعف العلم بضعف أهله. " فإن فساد كل صناعة من كثرة

الأدعيا، وقلة الصرحاء" كما قال أبو سليمان الخطابي (١) . وروى، رحمه الله، عن إسماعيل بن محمد الصفار، سمعت العباس بن محمد الدوري، يقول: "أردت الخروج إلى البصرة، فصرت إلى أحمد بن حنبل، وسألته الكتاب إلى مشايخها، فكلما فرغ من كتاب قرأته، فإذا فيه: "وهذا فتى ممن يطلب الحديث"، ولم يكتب: "من أصحاب الحديث".

وهذا الدوري الذي استكثر عليه الإمام أحمد، رضي الله عنه، أن يكون من أصحاب الحديث، يصفه الحافظ الذهبي بأنه "الإمام الحافظ الثقة الناقد (٢) "، ويحكى عن الأصم، قوله فيه: "لم أر في مشايخى أحسن حديثنا منه". ثم روى هذا الخبر، برواية أخرى، عن إسماعيل الصفار أيضاً، عن الدوري، قال: "كتب لي يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، إلى أبي داود الطيالسي، كتاباً، فقالا فيه: "إن هذا فتى يطلب الحديث"، وما قالا: "من أهل الحديث".

ثم عقب الذهبي، فقال: "قلت: كان مبتدئا، له سبع عشرة سنة، ثم إنه صار صاحب حديث، ثم صار من حفاظ وقته ".

ومهما يكن من أمر تفسير الذهبي، فإنه تبقى للقصة دلالتها على ما ينبغي أن يكون عليه أهل العلم، من تطامن وانكسار، وهضم للنفس. وآية ذلك تعقيب الدوري نفسه، وسياقه الخبر عند الخطابي.

وكنت أود أن أقف وقفة طويلة مع هذه المراجع؛ أكشف عن مناهجها، وأدل على طرائقها، لكني تركت ذلك - مع قدرتي عليه، امتلاكي لأسبابه، بفضل الله وعونه وتوفيقه- لأني أردت لهذا الدليل أن يكون خفيف المحمل، قريب المورد، سهل الاستيعاب؛ ولأن كثيراً من طلبة العلم لم تعد لديهم القدرة على قراءة المطولات، والصبر عليها؛ للذي عرفته من كثرة الصوارف والحواجز، في هذه الأيام. وهذا بلاء قد عم وساد، وكاد يستوى فيه العالم والمتعلم على السواء. وقد قالوا وأحسنوا: مالا يدرك لا يترك كله.

على أن طالب العلم مدعو لأن يقرأ مقدمات الكتب وخواتيمها؛ ليقف بنفسه على منهج الكتاب، وموضعه من كتب الفن الذي يعالجه، وأسلوب التعامل معه، والرجوع إليه.

وطالب العلم مدعوا أيضاً إلى أن يدرك العلائق بين الكتب: تأثرا وتأثيراً، ونقداً واختصاراً وتذييلا.

وليعم أبناؤنا الطلبة أن كثيراً من أبواب العلم إنما يحصل بالجهد الشخصي الدءوب، وأن وظيفة المعلم إنما تقف عند حدود تعبيد الطرق، ووضع العلامات والصوى (١) .

ونعم، كان واجباً على المعلم أن يأخذ بيد الطلاب، إلى هذه الكتب، ويضيء لهم سبلها، ويكشف لهم عن أغوارها، وهكذا كان في أيامنا التي سلفت - ولكن مناهج الدرس في جامعاتنا العربية، لا تسمح بذلك، ولا تعين عليه، كما سبق.

وثالثة: واجب على طالب العلم أن يعرف فرق ما بين الطبعات (١) ، فإن كثيراً من كتب التراث قد طبع مرتين أو أكثر، وتتفاوت هذه الطبعات فيما بينها؛ كمالاً ونقصاً، وصحة وسقما، ولا بد أن يكون رجوع الطالب إلى الطبعة المستوفية لشرائط الصحة والقبول، وهذه الشرائط ظاهرة لائحة لمن يتأملها، وتتمثل في التقديم للكتاب، وبيان وزنه العلمي، وفهرسته فهرسة فنية، تكشف عن كنوزه وخباياه، والعناية بضبطه الضبط الصحيح، والتعليق عليه بما يضيئه، ويربطه بما قبله وبما بعده، في غير سرف ولا شطط، ثم في الإخراج الطباعي، المتمثل في وجود الورق، ونصاعة الحرف الطباعي.

وقد حظى تراثنا - ولله الحمد والمنة - منذ ظهور المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي، إلى يوم الناس هذا، بعلماء كبار، في الشرق والغرب، توفروا على إخراجه الإخراج العلمي الصحيح، وطابعين مهرة، أظهروه في حلل زاهية، لكنه ظهر إلى جانب هؤلاء، ناشرون متساهلون، وطابعون متعجلون، أرادوا ثراء المال من أيسر سبيل. فأعرف أيها الطالب وأنكر، وأقبل وأعرض، على ما وصفت لك، تستقم دراستك، وتمض إلى ما تريد لها من كمال وإتقان.

* * *

وأحب أن يكون واضحاً، أنني اكتفيت بذكر أهم وأبرز كتب التراجم، وأضربت عما هو دونها في الشهرة، مدركاً لقيمة هذا الذي تركت وجدواه، فعلت ذلك تخفيفاً وتيسيراً على الناشئة والشداة من طلبة

العلم. وعلى سبيل المثال، فقد اكتفيت في تراجم اللغويين والنحاة بثلاثة مراجع، وسكت عن أخبار النحويين البصريين، للسرافى، وطبقات النحويين واللغويين، لأبي بكر الزبيدي، ومراتب النحويين، لأبي الطيب اللغوي. وفي طبقات الصحابة والتابعين، تركت تهذيب الأسماء واللغات للنووي. وفي طبقات الفقهاء، تركت تاج التراجم، في طبقات الحنفية، لابن قطلوبغا، وفي طبقات الشافعية، تركت طبقات أبي عاصم العبادي، طبقات الفقهاء (١) ، لأبي إسحاق الشيرازي، وطبقات المصنف، المعروفة بطبقات أبي هداية الله، وتبيين كذب المفترى، للحافظ ابن عساكر. وفي طبقات الحنابلة، لم أثبت المنهج الأحمد، للعليمي، لأنه لم يطبع منه سوى جزءين. وفي كتب تراجم الأندلسيين والمغاربة، تركت العدد الوفير - وكان حبيباً إلى أن أذكره - لندرته في أسواق المشرق العربي (٢) . وفي مراجع التراجم العامة، سكت أيضاً عن كتب ذوات عدد، للتخفيف والاختصار؛ ولأن فيما ذكرت مقنعاً وبلاغاً، إن شاء الله.

* * *

وأحب أيضاً قبل أن أدع مقامي هذا أن أنبه إلى حقيقتين جديرتين بالاهتمام:

الحقيقة الأولى: "أنه لا يغني كتاب عن كتاب". فقد شاع في كتابات بعض الدارسين المحدثين، أن كتب التراث ذات الموضوع الواحد، تتشابه فيما بينها، وأن غاية اللاحق أن يدخل على ما تركه السابق، يدور حوله، ويردد مباحثه وقضاياه. ثم أفضى ذلك الزعم إلى دعوة صاخبة، تنادى بغربلة التراث وتصفيته؛ بالإبقاء على النافع المفيد، وترك ما عداه مستقرا في المتاحف كموميا الفراعنة، يذكر بتطور الخطوط، وقواعد الرسم، وتاريخ صناعة الورق.

فإذا قلت لهذا الزاعم: ماذا نأخذ وماذا ندع؟ حار وأبلس (١) ، واعتصم بسراديب التفكير الموضوعي، ومناهج البحث العلمي، وأشباه ذلك من تلك التهاويل الفارغة من الحقيقة. فإذا اضطررته أضيق الطرق، وأخذته إلى فن واحد من فنون التراث، ونثرت أمامه مصنفات ذلك الفن، ثم طلبت إليه أن يختار ما يستحق أن يبقى عليه، وما هو جدير بأ، ينحى، شغب ونازع؛ لأنه لا يملك أدوات الحكم على هذا الموروث؛ لبعده عنده، وخفائه عليه، ولم يجد بدا من العودة كرة أخرى إلى التكفير الموضوعي، والبحث العلمي، يسلبهما منك، ملقياً بك في ردغة (٢) الحبال، وظلمات الجهل، وبيداء التخلف.

وقد يسايرك بعضهم، آخذاً بالنصفة والبراءة، قائلاً: نقف عند القرون الخمسة الأولى؛ لأنها قرون الإبداع والخلق (١) . فقال له: إن الخالفين من القرون اللاحقة قد أضافوا إلى ميراث تلك القرون السابقة إضافات صالحة، كشفت عن خبيئة، بل إنهم قد استخرجوا من علم الأوائل علماً آخر، مصبوغاً بصبغتهم، موسوماً

بسمتهم، ملبياً حاجات عصرهم، مفجرا طاقات عظيمة من هذا العقل العربي، الذي ما فتىء يغلي ويموج، كالبحر الهادر (٢) .

وعلى سبيل المثال، فإن القرن الثامن - وهو في تقديرك ورأيك مما ينبغي أن ينبذ ويطرح - قد شهد أعلاماً شوامخ، مثل شيخ الإسلام ابن تيمية، ومؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي، ومجتهد عصره تقي الدين السبكي، وولده المؤرخ تاج الدين، والحافظ أبي الحجاج المزى، وختنه (١) الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين بن كثير، والحافظ الكبير علم الدين البرزالي، والأديب المؤرخ صلاح الدين الصفدي، واللغوي الجامع ابن منظور، وإمامى النحو: أبي حيان وأبي هشام.

وإن القرن لتاسع قد شهد أمير المؤمنين في الحديث، الحافظ ابن حجر العسقلاني، وشيخ الإقراء في زمانه شمس الدين بن الجزرى، وعالم الاجتماع الكبير ابن خلدون، والمؤرخ الجغرافي تقي الدين المقريزي.

وإن القرن العاشر قد شهد الحافظ المؤرخ الحجة شمس الدين السخاوى، والحافظ المفسر النحوي، الجامع للفنون والمعارف جلال الدين السيوطي، ولا تقل: إنه جماع، فقد حفظ لنا في تصانيفه التي بلغت نحو ستمائة مصنف (٦٠٠) كثيراً مما عدت عليه عوادى الناس والأيام (٢) ، من علوم الأوائل وفنونها، واستخرج من كل ذلك علماً عرف به ونسب إليه.

فإذا جئنا إلى القرن الحادي عشر - وهو عندما مما لا يلتفت إليه، ولا يعاج به؛ لأن هذا العصر في رأيك عصر انحطاط وانحدر (١) ، من حيث كانت الغلبة فيه للأتراك

العثمانيين. وهم من كرام هذه الأمة الإسلامية، شئت أم أبيت (٢) : رأينا علماء كبارا، منهم شهاب الدين الخفاجي، صاحب المصنفات الكبيرة: ريحانة الألبا؛ تراجم أدباء عصره، وشفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، وشرح درة الغواص، للحريري، وطراز المجلس، ونسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض. ومن أعظم تصانيفه وأبقاها: حاشية على تفسير البيضاوي، المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي. في ثماني مجلدات كبار.

والعلامة عبد القادر البغدادي، صاحب "الخزانة" وهي من مفاخر التأليف العربي.

وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر، نلتقي بعلمين كبيرين: المرتضى الزبيدي، صاحب "تاج العروس"، و "إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين". والشوكاني، صاحب "فتح القدير"،و " ونيل الأوطار " إلى علماء الهند، الذين توفروا على السنة المطهرة، شرحاً ونشراً.

وكل هؤلاء؛ من ذكرت ولم أذكر، قد فسروا، وأضافوا، واستخرجوا.

فهل نلقى بهم جميعاً في غيابات الجبّ، ومتاحف الآثار؟ .

وهل من المقبول في موازين العقل والعدل، أن تطالب إنساناً خلف له أهله ثروة طائلة، ثم أقبل عليها، يثمرها ونميها بجهده وعرقه، حتى أضاف إليها أضعافها. هل من المقبول أن تطالبه بأن يتخلى عن هذا الذي أضافه، ويقنع بما تركه له أهله؟ .

وقد يبدو هذا التشبيه لك ساذجاً، ولكن الضرورة ألجأتنا إيه ولضرورة أحكامها.

ثم أعود مرة أخرى إلى قضية " أن كتب التراث يغني بعضها عن بعض" وقد شغلتني هذه القضية، وعشت مخدوعاً بها زماناً، حتى ظهر لي زيفها وبطلانها، بشواهد ومثل كثيرة، وبخاصة في كتب التراجم، ومصنفات اللغة. واكتفى بعرض مثال واحد من كتب اللغة:

من المعروف أن أكمل المعاجم اللغوية وأوسعها، كتابان، هما: لسان العرب، لجمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور، المتوفى بمصر سنة ٧١١هـ، وتاج العروس في شرح القاموس، لأبي الفيض محمد بن محمد بن محمد. المرتضى الزبيدي المتوفى بمصر أيضاً سنة ١٢٠٥هـ.

فقد جمع ابن مظور في كتابه أصول المعاجم: الصحاح للجوهري، وحواشيه لابن برى، والتهذيب للأزهري، والمحكم لابن سيده، والنهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير. وعول المرتضى الزبيدي على اللسان، مع ما أضافه من كتب الصاغاني: التكملة، والعباب. وكتب شيخه محمد بن الطيب محمد الفاسي المالكي، المتوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠هـ. إلى كتب أخرى صغار وكبار.

فكان النظر في هذين المعجمين الكبيرين مغنياً عن النظر فيما سواهما، للذي قيل: "كل الصيد في جوف الفرا (١) ". لكني وقعت على ما يقتضي التوقف في هذا الحكم:

وذلك ما أثاره ابن الأثير، في النهاية، حين عرض لشرح حديث: "أتاكم أهل اليمن، هم أرق قلوباً وأبخع طاعة".

قال: "أي أبلغ، وأنصح في الطاعة من غيرهم، كأنهم بالغوا في بخع أنفسهم، أي قهرها وإذلالها بالطاعة".

ثم قال: "قال الزمخشري: هو من بخع الذبيحة: إذا بالغ في ذبحها، وهو أن يقطع عظم رقبتها، ويبلغ بالذبح البخاع - بالباء - وهو العرق الذي في الصلب، والنخع، بالنون: دون ذلك، وهو أن يبلغبالذبح النخاع، وهو الخيط الأبيض، الذي يجرى في الرقبة. هذا اصله، ثم كثر حتى أستعمل في كل مبالغة. وهكذا ذكره في كتاب الفائق في غريب الحديث وكتاب الكشاف في تفسير القرآن، ولم أجده لغيره، وطالما بحثت عنه في كتب اللغة والطب، والتشريح، فلم أجد البخاع - بالباء - مذكوراً في شيء منها" (١) .

هذا كلام ابن الأثير، والأمر على ما قال، في كتابى الزمخشري: الفائق، والكشاف، وأيضاً جاء بعضه في أساس البلاغة (٢) .

قلت: هذا الذي تعقب به ابن الأثير، الزمخشري، وقد شاع في معاجم المتأخرين: ابن منظور، والفيروزابادي، والمرتضى الزبيدي. ويدل سياق هؤلاء جميعاً في كتبهم، على أن الزمشخري منفرد - دون اللغويين - بذكر "البخاع" بالباء الموحدة، حتى ليقول الزبيدي، بعد حكاية كلام ابن الأثير، والفيروزابادي: "قال شيخنا: وقد تعقب ابن الأثير قوم، بأن الزمخشري ثقة ثابت، واسع الاطلاع، فهو مقدم" (٣) .

فهذا كلام دال بوضوح، على أن الزمخشري منفرد بذكر هذا القول، وأن انفراده به لا يطعن فيه؛ لأنه ثقة مأمون.

وقد وقعت على نص عالٍ موثق، يدل على أن هذه التفرقة بين "البخاع" بالباء الموحدة، و "النخاع" بالنون، تفرقة قديمة، سابقة على الزمخشري المتوفى سنة (٥٣٨) . وذلك ما ذكره ابن فارس، المتوفى

سنة (٣٩٥) ، في كتابه معجم مقاييس اللغة:

قال رحمه الله: "قال أبو علي الأصفهاني، فيما حدثنا به أبو الفضل محمد بن العميد، عن أبي بكر الخياط، عنه، قال: قال الضبي: بخعت الذبيحة: إذا قطعت عظم رقبتها، فهي مبخوعة، ونخعتها: دون ذلك؛ لأن النخاع: الخيط الأبيض الذي يجرى في الرقبة وفقار الظهر. والبخاع، بالباء: العرق الذي في الصلب" (١) .

فأنت ترى أن الزمخشري مسبوق فيما ذهب إليه، بهذا الذي حكاه ابن فارس، بإسناده إلى الضبى. وقد خفى هذا على ابن الأثير، ومن جاء بعده: ابن منظور، والفيروزابادي، والمرتضى الزبيدي، وشيخه محمد بن الطيب الفاسى، وإن كان هذا قد أحال على الثقة بالزمخشري وسعة اطلاعه.

وواضح أن هناك فرقاً بين أن تفزع إلى المعاجم؛ لتصيب معنى لغوياً لما يعرض لك من ألفاظ، وبين أن تكون بإزاء قضية لغوية، تريد أن تنتهي فيها إلى رأي حاسم قاطع. هنا لا يغنيك النظر في هذين الكتابين - اللسان والتاج، مع سعتهما وإحاطتهما

- عن الرجوع إلى غيرهما، من صغر الكتب وأوسطها، وهنا أيضاً لا يفيدك قول أبي الطيب: ومن ورد البحر استقل السواقيا.

أن علماءنا الأوائل، رحمهم الله ورضي عنهم، لم يكونوا يعبثون حين يتوفرون على الفن الواحد، من فنون التراث، فيكثرون فيه التأليف والتصنيف، ويدخل الخالف منهم على السالف.

ونعم، قد تجمع بعضهم جامعة المنزع والمنهج العام، ولكن يبقى لكل منهم مذاقه ومشربه، كالذي تراه من اجتماع أبي جعفر الطبري، وعماد الدين بن كثير، على تفسير القرآن الكريم بالمأثور، وافتراقهما في أسلوب التناول ومنهج العرض.

ولم يكن النحاة يعانون من الفراغ، أو قلة الزاد، حين عكفوا على كتاب مثل "الجمل" لأبي القاسم الزجاجي، فوضعوا له مائة وعشرين شرحاً (١) .

ومن الغريب حقاًَ إننا لا نجد باساً أن يكثر الدارسون المحدثون من التأليف في الفن الواحد، كتباً ذاهبة في الكثرة والسعة، كالذي تراه من التأليف في فنون الشعر والقصة والمسرح، ثم نحجر على أسلافنا، ونعيب عليهم من ذلك، ثم ننعتهم بالثرثرة والدوران حول أنفسهم! ولكنها آفة الذين يلتمسون المعابة لأسلافهم بالظن الخادع، والوهم الكذوب.

وإنه الحق أن بعض ما تركه الأوائل، منتزع من جهود سابقة، وتعد إضافته إلى الفن إضافة محدودة، ولكن مثل ذلك معروف مسطور، ومدلول عليه أيضاً بكلام الأوائل أنفسهم، وأكثر ما ترى ذلك في

مقدمات الكتب، كهذا الذي صنعه ابن الأثير، في مقدمة "النهاية" حين قضى على تأليف ابن الجوزي، في غريب الحديث، بأنه مسلوخ من كتاب أبي عبيد الهروي. قال رحمه الله:

" ولقد تتبعت كتابه، فرأيته مختصراًً من كتاب الهروى، منتزعاً من أبوابه، شيئاً فشيئاً، ووضعاً فوضعاً، ولم يزد عليه إلا الكلمة الشاذة واللفظة الفاذة. ولقد قايست ما زاد في كتابه على ما أخذه من كتاب الهروى، فلم يكن إلا جزءاً يسيراً من أجزاء كثيرة" (١) .

وأحب أن أشير إلى أن هذه المختصرات التي تشغل حيزاً كبيراًً من التأليف العربي، قد تجدُ فيها ما لست تجده في الأصول. ومن ذلك - وهو كثير - كتاب " مختار الأغاني في الأخبار والتهاني" لابن منظور صاحب " اللسان "، الذي اختصر به كتاب " الأغاني" لأبي الفرج الأصبهاني وقد طبع هذا المختصر في ثمانية أجزاء، وفي الجزء الثالث منه ترجمة موسعة (٢) ، لأبي نواس، تضمنت أخباراً وأشعاراً لأبي نواس، لا تجدهما في الأصل المختصر، وذلك أن لابن منظور كتاباً مفرداً لأخبار أبي نواس، وهو مطبوع.

وكذلك صنع ابن منظور، في ترجمة جميل بن معمر، حيث أورد له بعض أشعار وأخبار لم ترد في الأغاني (٣) .

والظن باب منظور أن يكون قد فعل مثل ذلك، فيما اختصره من كتب التراث الأخرى، فقد كان مغرى باختصار كتب الأدب المطولة، كما يقول ابن حجر (١) ،

وقال صلاح الدين الصفدي: "ما أعرف في كتب الأدب شيئاً إلا وقد اختصره" (٢) .

ومن مختصراته: مختصر مفردات ابن البيطار، في الأدوية، ولطائف الذخيرة - مختصر الذخيرة لابن بسام. ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر. ومختصر تاريخ بغداد للسمعاني. ومختصر الحيوان للجاحظ. ومختصر أخبار المذاكرة ونشوار المحاضرة للتنوخي.

ومن حديث المختصرات ما لاحظته، أنا وأخي الدكتور عبد الفتاح الحلو، في أثناء عملنا في تحقيق طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين ابن السبكى: أن الطبقات للمؤلف قد اشتملت على فوئد لم ترد في الطبقات الكبرى، بل إن فيها من التراجم ما لم يذكر أصلاً في الطبقات الكبرى (٣) .

وكتاب تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، فيه من التقييد والضبط، ما لست تجده في أصله: تهذيب التهذيب، للمؤلف نفسه، وقد احسن ناشرو تهذيب التهذيب، في دائرة المعارف العثمانية، بالهند، حين أنزلوا هذا الضبط والتقييد في حواشي الكتاب.

ومثل ذلك يقال في مصنفات شمس الدين الذهبي التاريخية: تاريخ الإسلام، وسير أعلام النبلاء، والعبر في خبر من عبر، وتاريخ دول الإسلام.

إن تراثنا لم يأخذ مكانه بين تراث الإنسانية إلا بما صنفه الأوائل، مضافاً إليه تلك الشروح والمختصرات والذيول، والصلات (١) ، والحواشى والتقريرات.

نقول هذا لأبنائنا طلبة العلم، ونذكر به أيضاً العقلاء من إخواننا أساتذة الجامعات العربية. أما الذين يلتمسون تراجم الرجال من "دوائر المعارف"، و "الموسوعة العربية الميسرة"، ويطلبون الشروح اللغوية من "المنجد" و "أقرب الموارد"، ويجمعون تراجم الشعراء، من "شعراء النصرانية"، فقد سقطت كلفة الحديث معهم.

الحقيقة الثانية (٢) التي أنبه عليها: "أن مجاز كتب التراث مجاز الكتاب الواحد" بمعنى أن هذه الكتب متشابكة الأطراف، متداخلة الأسباب.

فمع الإقرار بنظرية التخصص، وانفراد كل فن من فنون التراث بطائفة من الكتب والمصنفات، إلا أنك قل أن تجد كتاباً من هذه الكتب مقتصراً على الفن الذي يعالجه، دون الولوج إلى بعض الفنون الأخرى، بدواعي الاستطراد والمناسبة، وهذا يؤدي لا محالة، إلى أن تجد الشيء في غير مظانه. وقد ضربت لذلك مثلا - في بعض ماكتبت (١) - بعلم النحو، فليست مسائل هذا العلم في كتب النحو فقط؛ ففي كتب التفسير والقراءات نحو كثير، وفي كتب الفقه وأصوله نحو كثير، وفي معاجم اللغة، وكتب البلاغة، وشروح الشعر (٢) ، نحو كثير. بل إنك واجد في بعض كتب السير، والتاريخ، والتراجم، والأدب، والمعارف العامة، والطرائف والمحاضرات، من مسائل النحو وقضاياه، مالا تكاد تجد بعضه في كتب النحو المتداولة (٣) .

واقرأ إن شئت: الإمتناع والمؤانسة، ومثالب الوزيرين، كلاهما لأبي حيان التوحيدي، ورسالة الملائكة، ورسالة الغفران، الاثنان لأبي العلاء المعرى، والروض الأنف

للسهيلي، وبدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية، والغيث المسجم في شرح لامية العجم، لصالح الدين الصدفي. ثم أنظر كم من مسائل النحو أفدت.

ومما يستطرف ذكره هنا أن الشاهد النحوي المعروف "أكلوني البراغيث" لم أجده منسوباً لقائل، في كتاب من كتب النحو التي أعرفها، على حين وجدته منسوباً لقائل، في كتاب من كتب النحو التي أعرفها، على حين وجدته في كتاب أبي عبيدة " مجاز القرآن" منسوباً لأبي عمرو الهذلي (١) .

وخذ كتاباً لغوياً مثل "المخصص" لابن سيده - وهو معاجم المعاني كما عرفت - تجد فيه نحواً كثيراً، وصرفاً كثيراً، بل إن هذا الكتاب اللغوي يعد توثيقاً كبيراً لآراء أبي على الفارسي، في النحو والصرف، حيث تراه قد أكثر من النقل عنه كثرة ظاهرة (٢) .

وإنك لتقضى العجب حين ترى كثيراً من الدراسات النحوية المعاصرة - والتي هوجم النحو العربي فيها هجوماً كاسحاً أكولا - قد اتكأت على كتب النحو المتأخرة، ابتداءً بابن هشام، وانتهاء بالصبان، تاركة وراءها كتب النحو الأولى، وكتب الفنون التراثية الأخرى، التي تمت إلى النحو بأسباب وعلائق كثيرة. ومع التسليم بجدوى مصنفات ابن هشام ومن جاء بعده، فإن ذل لا يغني عن الجهود السابقة، ولا يقوم مقامها.

* * *

وما قيل عن النحو وأنسياحه في الفنون الأخرى، يقال في سائر العلوم؛ وقد حدثنى شيخي الجليل محمود محمد شاكر، حفظه الله، أنه استخرج علوية أبي الطيب

المتنبي من خبر صغير، في ثنايا خزانة الأدب، للبغدادي، وقد خفى هذا الخبر على كل الذين كتبوا عن المتنبى، من عرب وعجم، مع أن هذا الكتاب قد طبع في مطبعة بولاق بمصر، سنة ١٢٩٩هـ، ولكنه في نظر الناس كتاب شواهد ونحو، ليس غير، للذي علموه من أنه شرح شواهد الرضى على الكافية، وترجمة المتنبي عند هؤلاء تلتمس من كتب التراجم والأدب.

وحدثني أيضاً، حفظه الله، أن المفكر الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد، رحمه الله، سألت ذات يوم، عن خبر أو كلام لعمرو بن العاص، رضي الله عنه كان قد قرأه الأستاذ العقاد، ونسى موضعه، وأنه قد وجد هذا الخبر في كتاب الكشكول، أو المخلاة، لبهاء الدين العاملي، المتوفى سنة ١٠٣١هـ ويابعد ما بين العالمي ومظان ترجمة عمرو بن العاص! والكشكول، والمخالة عند بعض المحدثين - إن علموا بأمرهما - من سواقط الكتب وكواذب الأحاديث.

إن في الكتب الموسوعية، مثل شرح نهج البلاغة، لابن أبي

الحديد، المتوفى سنة ٦٥٦هـ ونهاية الأرب (١) ، للنويري، المتوفى سنة ٧٣٣هـ، وصبح الأعشى، للقلقشندي، المتوفى سنة ٨٢١هـ، من غرائب العلوم والفنون، مالا يأتي عليه حصر.

* * *

وبعد:

فإن من الظاهر الجدير بالتأمل، في هذه الأيام، تلك العناية البالغة بالتراث: نشراً لما لم ينشر، وتصويراً لما نشر، ويقبل القراء على شراء كتب التراث إقبالاً زائداً، ولم يستطع الكتاب الحديث - برغم ما أحيط به من مظاهر الإعلان والإعلام - أن يزاحم الكتاب التراثي، بالرغم أيضاً مما يتعرض له من تجريح وتوهين.

ولكن هذه العناية بنشر التراث، والإقبال على شرائه، لم يواكبها قراءة له، وانتفاع به، فكثرت الكتب وقلت القراءة.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الظاهرة دالة بوضوح، على أن للتراث بريقاً أخاذا. ولم يبق إلا أن نعمق في أبنائنا الإحساس النبيل به وأن نأخذ بأيديهم إلى آفاقه الرحبة، وآماده المتطاولة.

ثم إنه واجب أيضاً على أنبائنا أن يقبلوا على قراءة هذا الموروث العظيم، وأن يصبروا على معاناة الكتب، والنفاذ إلى أسرارها، وسوف يجدون متعة لا تشبهها متعة، حتى يقولوا في ثقة واطمئنان:

أفبعد كندة تمدحن قبيلا

والله الحمد في الأولى والآخرة

وكتب أبو أروى محمود محمد الطناحي

مكة المكرمة في: ربيع الأول ١٤٠٥هـ

الفصل الأول

السيرة النبوية والمغازي

في النصف الثاني من القرن الأول الهجري بدأ بعض التابعين في تدوين أخبار السيرة النبوية، ومغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويجمع مؤرخو السير على أن أول من كتب في ذلك، هو أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي، المتوفى سنة ٩٣هـ وقد عاصره وتلاه نفر من التابعين، الذين عرفوا بالعناية بالسيرة، وجمع أخبارها، منهم أبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥هـ، ووهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠هـ، وعاصم بن عمر بن قتادة المتوفى سنة ١٢٠هـ، ومحمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ، وعبد الله بن أبي بكر ابن محمد بن حزم المتوفى سنة ١٣٥هـ.

ولم يبق من كتابات هؤلاء الرواد الأوائل إلا ما تناثر من روايات في تصانيف ابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، والطبري. ويقال: إنه توجد قطعة من كتاب وهب بن منبه، في مدينة هيدلبرج بألمانيا، في مجموعة سكوت رينهارت. وهي قطعة صغيرة كتبت على ورق البردي، وفيها ذكر بيعة العقبة.

ثم جاءت بعد ذلك طبقة من كتاب السير، منهم موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١هـ، ومحمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥١هـ، ومعمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٤هـ، وأبو معشر نجيح بن عبد الرحمن المدني المتوفى سنة ١٧٠هـ. وهؤلاء جميعاً من تلامذة ابن شهاب الزهري. أما موسى بن عقبة، فقد ألف في المغازي تأليفاً أثنى

عليه الأئمة عن يحيى بن معين، قال: "كتاب موسى بن عقبة، عن الزهري، من أصح هذه الكتب" (١) . وقال الإمام أحمد بن حنبل: "عليكم بمغازي موسى بن عقبة فإنه ثقة" (٢) . وروى ابن أبي حاتم الرازي، بسنده عن معنى بن عيسى، قال: "كان مالك بن أنس إذا قيل له: مغازي من نكتب؟ قال: عليكم بمغازي موسى بن عقبة فإنه ثقة" (٣) . وفي رواية أخرى عنه: "فإنه رجل ثقة، طلبها على كبر السن ولم يكثر كما أكثر غيره" (٤) .

ولا تعرف نسخة من كتاب موسى بن عقبة هذا، مع أنه سلم إلى القرن العاشر الهجري، حيث نقل عنه الديار بكري - حسين بن محمد - المتوفى نحو سنة ٩٦٦هـ، في كتابه تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس (٥) . وقد نشر المستشرق الألماني سخاو (١٨٤٥ - ١٩٣٠م) قطعة من كتاب موسى بن عقبة، في سنة ١٩٠٤م (٦) .

وأما ما كتبه معمر بن راشد، وأبو معشر المدني، فلم يبق منه شيء، إلا ما تناقله المؤرخون من بعدهما. وسأتيك حديث ابن إسحاق.

ومعلوم أن المقصود بمصطلح "السيرة النبوية" هو ما يتصل بسيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، من حيث الحديث عن نسبه الشرف، ومولده ونشأته، وبعثته، وصفاته، وتصرف أحواله إلى أن لقى ربه راضياً مرضياً بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وترك أمته على مثل المحجة البيضاء. فهذا هو الأصل في مصطلح "السيرة النبوية" لكنه قد استعمل أيضاً مضافاً إليه حديث المغازي والحروب التي خاضها

الرسول صلى الله عليه وسلم، لإعلاء كلمة الله في الأرض، فصار هذان المصطلحان يتعاقبان على موضوع واحد.

فكتاب ابن إسحاق يقال له: السيرة، ويقال له: المغازي، وقد جمع بعض المؤلفين المصطلحين في العنوان الذي اختاره لكتابه، كما ترى في كتب ابن عبد البر، وابن الجوزي، وابن سيد الناس.

على أن هناك بعض الكتب التي تنصرف خالصة إلى السيرة النبوية بمعناها الأصلي الذي ذكرته، وذلك ما عرف بكتب دلائل النبوة، والشمائل، والخصائص.

وينبغي أن يكون واضحاً أن الحديث عن السيرة النبوية والمغازي قد جاء بإفاضة أيضاً في بعض كتب الطبقات، وكتب التاريخ المرتبة على السنين، كالذي تراه في تاريخ خليفة بن خياط، والطبقات الكبير، لابن سعد كاتب الواقدي، وتاريخ ابن جرير الطبري، المعروف بتاريخ الرسل والملوك، وتاريخ عز الدين بن الأثير، المسمى: الكامل، وتاريخ الحافظ عماد الدين بن كثير، الموسوم بالبداية والنهاية.

وهذا بيان أشهر كتب السيرة النبوية والمغازي، واكتفيت فيه بالقدر الذي يطيقه الطالب المبتدئ، ويجد فيه من سار في العلم خطوات تذكرة وبلاغاً إن شاء الله:

١- سيرة ابن هشام. وهو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المصري (٢١٨هـ) .

وأصل هذه السيرة هو ما وضعه أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يسار المدني القرشي (١٥٢هـ) . وقد رواها ابن هشام عن أبي محمد زياد ابن عبد الله البكائي العامري الكوفي (١٨٣هـ) ، عن ابن إسحاق (١) .

وقد تناول ابن هشام هذه الرواية التي وقعت له من سيرة ابن إسحاق، بكثير من التحرير والاختصار والإضافة، والنقد أحياناً، والمعارضة بروايات أخر لغيره من العلماء (٢) .

ثم لهج الناس قديماً وحديثاً بسيرة ابن هشام، حتى كادوا ينسون واضعها الأول. يقول ابن خلكان: "وهذا ابن هشام هو الذي جمع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من المغازي والسير لابن إسحاق، وهذبها ولخصها.. وهي الموجودة بأيدي الناس، المعروفة بسيرة ابن هشام".

٢- شرح سيرة ابن هشام، المسمى: الروض الأنف والمشروع الروى في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة واحتوى. لأبي القاسم وأبي زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلى الأندلسي (٥٨١هـ) .

وهو كتاب تاريخ وعربية. قال فيه الصلاح الصفدي: "وهو كتاب جليل، جود في ما شاء"، وقال الوزير القفطي: "وتصنيفه في شرح سيرة ابن هشام يدل على فضله ونبله وعظمته وسعة علمه ".

وإني لأنصح كل طالب علم باقتناء هذا الكتاب ومدارسته، وإدامة النظر فيه؛ لما حواه من فوائد في مختل علوم العربية، وبخاصة علم النحو، فإن السهيلي رحمه الله، قد مد فيه يداً .

٣- مغازي الواقدي - وهو أبو عبد الله محمد بن عمر (٢٠٧هـ) .

٤- الدرر في اختصار المغازي والسير. لابن عبد البر. أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري (٤٦٣هـ) .

٥- جوامع السيرة. لابن حزم. أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (٤٥٦هـ) .

٦- تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التواريخ والسير. لابن الجوزي. أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (٥٩٧هـ) .

٧- الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء. للكلاعي. أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الأندلسي (٦٣٤هـ) .

٨- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير. لابن سيد الناس. أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد (٧٣٤هـ) .

٩- المغازي. (١)

للذهبي. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ) .

١٠- السيرة النبوية (٢) . لابن كثير - إسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ) .

١١- حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار (١) .

١٢- سبل الهدى والرشاد في سرة خير العباد. ويعرف بالسيرة الشامية. لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن علي الصالحي الشامي (٩٤٢هـ) .

وهذا الكتاب الكتاب من أجمع كتب السيرة وأوعبها. وقد باشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة طعة عام ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، فأصدر منه ثلاثة أجزاء، ثم توقف، نسأل الله تيسير أسباب نشره كاملا.

١٣- إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون. ويعرف بالسيرة الحلبية. لنور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي (١٠٤٤هـ) .

نماذج من غزوات النبى صلى الله عليه وسلم

حديث القرآن الكريم والسنة النبوية عن "غزوة أحد"

حدثت هذه الغزوة يوم السبت لخمس عشرة خلت من شوال في العام الثالث للهجرة،و"سببها"أن قريشا أرادت أن تثأر ليوم بدر،فما زالت تستعد حتى تجهزت لغزو الرسول-صلى الله عليه وسلم-في المدينة، فخرجت في ثلاثة آلاف مقاتل، ما عدا الأحابيش فيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس، ومعهم سبع عشرة امرأة، فيهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان،وقد قتل أبوها يوم بدر، ثم ساروا حتى وصلوا بطن الوادي من قبل أحد (وهو جبل مرتفع يقع شمال المدينة على بعد ميلين منها) مقابل المدينة، وكان من رأي الرسول وعدد من الصحابة ألا يخرج المسلمون إليهم، بل يظلون في المدينة، فإن هاجمهم المشركون صدوهم عنها، ولكن بعض شباب المسلمين وبعض المهاجرين والأنصار، وخاصة من لم يحضر منهم معركة بدر ولم

يحصل له شرف القتال فيها، تحمسوا للخروج إليهم ومنازلتهم في أماكنهم، فنزل الرسول صلى الله عليه وسلم عند رأيهم،ودخل بيته ولبس لأمته (درعه)، وألقى الترس في ظهره، وأخذ قناته بيده،ثم خرج إلى المسلمين، وهو متقلد سيفه، فندم الذين أشاروا عليه بالخروج إذ كانوا سببا في حمله على خلاف رأيه، وقالوا للرسول: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت أو اقعد إن شئت، فأجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «ما كان ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»، ثم خرج والمسلمون معه في نحو ألف بينهم مائة دارع وفرسان ولما تجمع المسلمون للخروج، رأى الرسول جماعة من اليهود يريدون أن يخرجوا مع عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين للخروج مع المسلمين، فقال الرسول: «أو قد أسلموا؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: مروهم فليرجعوا؛ فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين»، وفي منتصف الطريق انخذل عن المسلمين عبد الله بن أبي بن سلول ومعه ثلاثمائة من المنافقين، فبقي عدد المسلمين سبعمائة رجل فحسب، ثم مضى الرسول حتى وصل إلى ساحة أحد، فجعل ظهره للجبل ووجهه للمشركين، وصف الجيش، وجعل على كل فرقة منه قائدا، واختار خمسين من الرماة، على رأسهم عبد الله بن جبير الأنصاري ليحموا ظهر المسلمين من التفاف المشركين وراءهم، وقال لهم: «احموا ظهورنا، لا يأتونا من خلفنا، وارشقوهم بالنبل؛ فإن الخيل لا تقوم على النبل، إنا لا نزال غالبين ماثبتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم» وقال لهم في رواية أخرى: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا

حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم أو ظاهرناهم وهم قتلى، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم»، ثم ابتدأ القتال، ونصر الله المؤمنين على أعدائهم، فقتلوا منهم عددا، ثم ولوا الأدبار، فانغمس المسلمون في أخذ الغنائم التي وجدوها في معسكر المشركين، ورأى ذلك من وراءهم من الرماة فقالوا: ماذا نفعل وقد نصر الله رسوله؟ ثم فكروا في ترك أمكنتهم لينالهم نصيب من الغنائم، فذكرهم رئيسهم عبد الله بن جبير بوصية الرسول، فأجابوا بأن الحرب قد انتهت، ولا حاجة للبقاء حيث هم، فأبى عبد الله ومعه عشرة آخرون أن يغادروا أمكنتهم، ورأى خالد بن الوليد وكان قائد ميمنة المشركين خلو ظهر المسلمين من الرماة، فكرَّ عليهم من خلفهم، فما شعر المسلمون إلا والسيوف تناوشهم من هنا وهناك، فاضطرب حبلهم، وأشيع أن الرسول قد قتل، ففر بعضهم عائدا إلى المدينة، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الرسول، فأصابته حجارتهم حتى وقع وأغمي عليه، فشج وجهه، وخدشت ركبتاه، وجرحت شفته السفلى، وكسرت الخوذة على رأسه، ودخلت حلقتان من حلقات المِغفر في وجنته، وتكاثر المشركون على الرسول يريدون قتله، فثبت صلى الله عليه وسلم وثبت معه نفر من المؤمنين، منهم: أبو دجانة، تترس على الرسول ليحميه من نبال المشركين، فكان النبل يقع على ظهره، ومنهم سعد بن أبي وقاص رمى يومئذ نحو ألف سهم، ومنهم: نسيبة أم عمارة الأنصارية، تركت سقاء الجرحى، وأخذت تقاتل بالسيف، وترمي بالنبل، دفاعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصابها في عنقها، فجرحت جرحا عميقا، وكان معها

زوجها وابناها، فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: «بارك الله عليكم أهل بيت» فقالت له نسيبة: ادع الله أن نرافقك في الجنة، فقال: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة» فقالت رضي الله عنها بعد ذلك: «ما أبالي ما أصابني من أمر الدنيا» وقد قال صلى الله عليه وسلم في حقها: «ما التفت يمينا وشمالا يوم أحد، إلا ورأيتها تقاتل دوني» وقد جرحت يومئذ اثني عشر جرحا، ما بين طعنة برمح وضربة بسيف، وقد حاول في ساعة الشدة أن يصل أبي بن خلف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليقتله، وأقسم ألا يرجع عن ذلك، فأخذ عليه السلام حربة ممن كانوا معه، فسددها في نحره، فكانت سبب هلاكه، وهو الوحيد الذي قتله صلى الله عليه وسلم في جميع معاركه الحربية،ثم استطاع صلى الله عليه وسلم الوقوف والنهوض على أكتاف طلحة بن عبيد الله،فنظر إلى المشركين، فرأى جماعة منهم على ظهر الجبل، فأرسل من ينزلهم قائلا: «لا ينبغي لهم أن يعلونا، اللهم لا قوة لنا إلا بك» وانتهت المعركة، وقال أبو سفيان مظهرا تشفيه والمشركين من هزيمتهم يوم بدر: يوم بيوم بدر،وممن قتل في هذه المعركة حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم، ومثلت به هند زوج أبي سفيان، واحتزت قلبه ومضغته، فرأت له مرارة ثم لفظته، وقد حزن الرسول صلى الله عليه وسلم لمشهده حزنا عظيما فقال: «لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم، ولكن الله نهى عن المُثلة بعد ذلك»،وقد بلغ عدد قتلى المسلمين في هذه المعركة نحوا من السبعين، وقتلى المشركين ثلاثة وعشرين،وقد أنزل الله-جل وعلا- في هذه المعركة عدة آيات قرآنية

وأحاديث نبوية بَيَّنت وما تم من الطرفين فى إطار تاريخى ليكون درساً للمسلمين في كل زمان ومكان ،وقد جاء الحديث عن أحد فى سورة آل عمران :

قال تعالى{ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(١٣٣)الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ

رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ

وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ

(١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤) أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَ حْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ

الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)}

أولاً :سبب نزول الآيات

هذه الآيات نزلت في وقعة "أُحد" وقصتها مشهورة في السير والتواريخ، ولعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع، وأدخل في أثنائها وقعة "بدر" لما أن الله تعالى قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم، ورد كيد الأعداء عنهم وحاصل قضية "أحد" وإجمالها أن المشركين لما رجع فلهم من "بدر" إلى مكة، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة، استعدوا بكل ما يقدرون عليه من العدد بالأموال والرجال والعدد، حتى اجتمع عندهم من ذلك ما جزموا بحصول غرضهم وشفاء غيظهم، ثم وجهوا من مكة للمدينة في ثلاثة آلاف مقاتل، حتى نزلوا قرب المدينة، فخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- إليهم هو وأصحابه بعد المراجعة والمشاورة حتى استقر رأيهم على

الخروج، وخرج في ألف، فلما ساروا قليلا رجع عبد الله بن أبي المنافق بثلث الجيش ممن هو على مثل طريقته، وهمت طائفتان من المؤمنين أن يرجعوا وهم بنو سلمة وبنو حارثة فثبتهم الله، فلما وصلوا إلى أحد رتبهم النبي صلى الله عليه وسلم في مواضعهم وأسندوا ظهورهم إلى أحد، ورتب النبي صلى الله عليه وسلم خمسين رجلا من أصحابه في خلة في جبل "أحد" وأمرهم أن يلزموا مكانهم ولا يبرحوا منه ليأمنوا أن يأتيهم أحد من ظهورهم، فلما التقى المسلمون والمشركون انهزم المشركون هزيمة قبيحة وخلفوا معسكرهم خلف ظهورهم، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فلما رآهم الرماة الذين جعلهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجبل، قال بعضهم لبعض: الغنيمة، ما يقعدنا هاهنا والمشركون قد انهزموا، ووعظهم أميرهم عبد الله بن جبير عن المعصية فلم يلتفتوا إليه، فلما أخلوا موضعهم فلم يبق فيه إلا نفر يسير، منهم أميرهم عبد الله بن جبير، جاءت خيل المشركين من ذلك الموضع واستدبرت المسلمين وقاتلت ساقتهم، فجال المسلمون جولة ابتلاهم الله بها وكفر بها عنهم، وأذاقهم فيها عقوبة المخالفة، فحصل ما حصل من قتل من قتل منهم، ثم إنهم انحازوا إلى رأس جبل "أحد" وكف الله عنهم أيدي المشركين وانكفأوا إلى بلادهم، ودخل رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وأصحابه المدينة.

ثانياً: التفسير :

قوله{وَإِذْ غَدَوْتَ}:أي: واذكر إذ غدوت،والغدو:الذهاب أول النهار {مِنْ أَهْلِكَ} : أهل الرجل زوجه وأولاده. ومن لابتداء الغاية إذ خرج صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صباح السبت من بيته إلى أحد حيث نزل المشركون به يوم الأربعاء{تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ} : تنزل المجاهدين الأماكن التي رأيتها صالحة للنزول فيها من ساحة المعركة{هَمَّتْ}:حدثت نفسها بالرجوع إلى المدينة وتوجهت إرادتها إلى ذلك{طَائِفَتَانِ}:هما بنو سلمة، وبنو حارثة من الأنصار {تَفْشَلا} : تضعفا وتعودا إلى ديارهما تاركين الرسول ومن معه يخوضون المعركة وحدهم،{وَاللهُ وَلِيُّهُمَ} :متولي أمرهما وناصرهما ولذا عصمهما من ترك السير إلى المعركة،{بِبَدْرٍ} : بدر اسم رجل وسمي المكان به؛ لأنه كان له فيه ماء وهو الآن قرية تبعد عن المدينة النبوية بنحو من مائة وخمسين ميلاً "كيلو متر"،{وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ} : لقلة عددكم وعُددِكُم وتفوق العدو عليكم.

قوله تعالى{إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةُ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ١٢٧}

التفسير

{إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ}يوم بدر{أَلَن يَكْفِيَكُمْ}الكفاية: قدر سد الخَلَّة، والاكتفاء: الاقتصار عليه. {يُمِدَّكُمْ} الإمداد: إعطاء الشيء حالاً بعد حال، من الإمداد: وهو

الزيادة، ومنه مد الماء، {فَوْرِهِمْ} وجههم، أو غضبهم من فور القِدْر وهو غليانها، ومنه فور الغضب، {مُسَوِّمِينَ} بالفتح أرسلوا خيلهم في المرعى، وبالكسر سوموها بغلام في نواصيها وأذنابها، أو نزلوا على خير بلق وعليهم عمائم صفر. وكانوا خمسة آلاف عند الحسن، وعند غيره ثمانية آلاف قال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر،{وَمَا جعله الله إِلَّا بشرى لكم} أَي: بِشَارَة لكم {ولتطمئن قُلُوبكُمْ بِهِ " أَي: بوعده النُّصْرَة {وَمَا النَّصْر إِلَّا من عِنْد الله الْعَزِيز الْحَكِيم} يَعْنِي: (لَا) تختلوا بالنصرة عَن الْمَلَائِكَة والجند، واعرفوا [أَن] النَّصْر من عِنْد الله.{لِيَقْطَعَ} يوم بدر {طَرَفاً} منهم بقتل صناديدهم وقادتهم إلى الكفر، أو يوم أُحد قُتل منهم ثمانية عشر رجلاً، وقال: {طَرَفاً} ، لأنهم كانوا أقرب إلى المؤمنين من الوسط،{يَكْبِتَهُمْ} يخزيهم،أو الكبت: الصرع على الوجه قاله الخليل {خَآئِبِينَ} الخيبة لا تكون إلا بعد أمل، واليأس قد يكون قبل الأمل

قوله تعالى {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٢٩)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٣٠)وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) }

سبب النزول:

أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ إبراهيم الفارسي قال: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى بن عمرويه قال: أَخْبَرَنَا إِبْرَاهِيمُ بن محمد قال: أَخْبَرَنَا مُسْلِمُ بن الحجاج قال: حدثنا القعنبي قال: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ وَجَعَلَ يَسِيلُ الدَّمُ عَنْهُ وَيَقُولُ: "كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَّتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}.

التفسير :

قوله{الأَمْرِ} : الشأن والمراد هنا توبة الله على الكافرين أو تعذيبهم. رشَيْءٌ} : شيء نكرة متوغلة في الإبهام. وأصل الشيء: ما يعلم ويخبر به. {أَوْ} : هنا بمعنى حتى، أي: فاصبر حتى يتوب عليهم أو يعذبهم،{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ} : أي: مالكاً وخلقاً وعبيداً يتصرف كيف يشاء ويحكم كما يريد. {لا تَأْكُلُوا الرِّبا} : لا مفهوم للأكل بل كل تصرف بالربا حرام سواء كان أكلاً أو شرباً أو لباساً. {الرِّبا} : لغة: الزيادة، وفي الشرع نوعان: ربا فضل وربا نسيئة، ربا الفضل: يكون في الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح فإذا بيع الجنس بمثله يحرم الفضل أي الزيادة ويحرم التأخير، وربا النسيئة: هو أن يكون على المرء دين إلى أجل فيحل الأجل ولم يجد سداداً لدينه فيقول له أخرني وزد في الدين،{أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً} : لا مفهوم لهذا؛ لأنه خرج مخرج الغالب، إذ الدرهم الواحد حرام كالألف، وإنما كانوا في الجاهلية يؤخرون الدين ويزيدون مقابل التأخير حتى يتضاعف الدين فيصبح أضعافاً كثيرة.

{تُفْلِحُونَ} : تنجون من العذاب وتظفرون بالنعيم المقيم في الجنة،{أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} : هيئت وأحضرت للمكذبين لله ورسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} : لترحموا فلا تُعذبوا بما صدر منكم من ذنب المعصية .

قوله تعالى{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}

سبب النزول :

قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً} الْآيَةَ {١٣٥} .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ الْكَلْبِيِّ: إِنَّ رَجُلَيْنِ أَنْصَارِيًّا وَثَقَفِيًّا آخَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَيْنَهُمَا، فَكَانَا لَا يَفْتَرِقَانِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ، وَخَرَجَ مَعَهُ الثَّقَفِيُّ وَخَلَّفَ الْأَنْصَارِيَّ فِي أَهْلِهِ وَحَاجَتِهِ، وَكَانَ يَتَعَاهَدُ أَهْلَ الثَّقَفِيِّ، فَأَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَبْصَرَ امْرَأَةَ صَاحِبِهِ قَدِ اغْتَسَلَتْ وَهِيَ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا، فَوَقَعَتْ فِي نَفْسِهِ، فَدَخَلَ وَلَمْ يَسْتَأْذِنْ حَتَّى انْتَهَى إليها، فذهب ليقبلها فَوَضَعَتْ كَفَّهَا عَلَى وَجْهِهَا، فَقَبَّلَ ظَاهِرَ كَفِّهَا ثُمَّ نَدِمَ وَاسْتَحْيَا، فَأَدْبَرَ رَاجِعًا فَقَالَتْ: سُبْحَانَ

اللَّهِ! خُنْتَ أَمَانَتَكَ، وَعَصَيْتَ رَبَّكَ، وَلَمْ تُصِبْ حَاجَتَكَ، قَالَ: فَنَدِمَ عَلَى صَنِيعِهِ، فَخَرَجَ يَسِيحُ فِي الْجِبَالِ وَيَتُوبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذَنْبِهِ حَتَّى وَافَى الثَّقَفِيَّ، فَأَخْبَرَتْهُ أَهْلُهُ بِفِعْلِهِ، فَخَرَجَ يَطْلُبُهُ حَتَّى دُلَّ عَلَيْهِ، فَوَافَقَهُ سَاجِدًا وَهُوَ يَقُولُ: رَبِّ ذَنْبِي ذَنْبِي! قَدْ خُنْتُ أَخِي، فَقَالَ لَهُ: يا فلان ثم فَانْطَلِقْ إِلَى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فسله عَنْ ذَنْبِكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لك فرجًا وتوبًا، فَأَقْبَلَ مَعَهُ حَتَّى رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَ ذَاتَ يَوْمٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَوْبَتِهِ، فَتَلَا عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً} إِلَى قَوْلِهِ: {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخَاصٌّ هَذَا لِهَذَا الرَّجُلِ أَمْ لِلنَّاسِ عَامَّةً؟ قَالَ: "بَلْ لِلنَّاسِ عَامَّةً".

التفسير :

{وَسَارِعُوا}: المسارعة إلى الشيء المبادرة إليه بدون توانٍ ولا تراخ. {إِلَى مَغْفِرَةٍ} :المغفرة: ستر الذنوب وعدم المؤاخذة بها. والمراد هنا: المسارعة إلى التوبة بترك الذنوب، وكثرة الاستغفار وفي الحديث: "ما من رجل يذنب ذنباً ثم يتوضأ ثم يصلي ويستغفر الله إلا غفر له" {وَجَنَّةٍ} : الجنة دار النعيم فوق السموات، والمسارعة إليها تكون بالإكثار من الصالحات،{أُعِدَّتْ}: هيئت وأحضرت فهي موجودة الآن مهيأة. {لِلْمُتَّقِينَ} : المتقون هم الذين اتقوا الله تعالى فلم يعصوه بترك واجب ولا فعل محرم، وإن حدث منهم ذنب تابوا منه فوراً، {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ} فِي طَاعَة اللَّه {فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء} الْيُسْر وَالْعُسْر {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظ} الْكَافِينَ عَنْ إِمْضَائِهِ مَعَ الْقُدْرَة

{وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاس} مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ أَيْ التَّارِكِينَ عُقُوبَتهمْ {وَاَللَّه يُحِبّ الْمُحْسِنِينَ} بِهَذِهِ الْأَفْعَال أَيْ يُثِيبهُمْ، {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَة} ذَنْبًا قَبِيحًا كَالزِّنَا {أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسهمْ} بِمَا دُونه كَالْقُبْلَةِ {ذَكَرُوا اللَّه} أَيْ وَعِيده {فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ} أَيْ لَا {يَغْفِر الذُّنُوب إِلَّا اللَّه وَلَمْ يُصِرُّوا} يُدَاوِمُوا {عَلَى مَا فَعَلُوا} بَلْ أَقْلَعُوا عَنْهُ {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أَنَّ الَّذِي أَتَوْهُ مَعْصِيَة{أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَة مِنْ رَبّهمْ وَجَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا} حَال مُقَدَّرَة أَيْ مُقَدَّرِينَ الْخُلُود فِيهَا إِذَا

دَخَلُوهَا{وَنِعْمَ أَجْر الْعَامِلِينَ} بِالطَّاعَةِ هَذَا الْأَجْر .

قوله تعالى{ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(١٣٧)هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ}

سبب النزول:

- قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا} الآيَةَ {١٣٩}.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:انْهَزَمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يوم أُحُد، فبينما هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِخَيْلِ الْمُشْرِكِينَ يُرِيدُ أَنْ يَعْلُوَ عَلَيْهِمُ الْجَبَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "اللَّهُمَّ لَا يَعْلُونَ عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ لَا قُوَّةَ لَنَا إِلَّا بِكَ،

اللَّهُمَّ لَيْسَ يَعْبُدُكَ بِهَذِهِ الْبَلْدَةِ غَيْرُ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَاتِ، وَثَابَ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رُمَاةٌ، فَصَعِدُوا الْجَبَلَ وَرَمَوْا خَيْلَ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى هَزَمُوهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ}.

- قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ} الْآيَةَ {١٤٠}.

قَالَ رَاشِدُ بْنُ سَعْدٍ: لَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ كَئِيبًا حَزِينًا يَوْمَ أُحُدٍ، جَعَلَتِ الْمَرْأَةُ تَجِيءُ بِزَوْجِهَا وَابْنِهَا مَقْتُولَيْنِ وَهِيَ تَلْتَدِمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "أَهَكَذَا يُفْعَلُ بِرَسُولِكَ؟ " فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ} الْآيَةَ.

التفسير :

{قَدْ خَلَتْ} مَضَتْ {مِنْ قَبْلكُمْ سُنَن} طَرَائِق فِي الْكُفَّار بِإِمْهَالِهِمْ ثُمَّ أَخَذَهُمْ {فَسِيرُوا} أَيّهَا الْمُؤْمِنُونَ {فِي الْأَرْض فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة الْمُكَذِّبِينَ} الرُّسُل أَيْ آخِر أَمْرهمْ مِنْ الْهَلَاك فَلَا تَحْزَنُوا لِغَلَبَتِهِمْ فَأَنَا أُمْهِلهُمْ لِوَقْتِهِمْ،{هَذَا} الْقُرْآن {بَيَان لِلنَّاسِ} كُلّهمْ {وَهُدًى} مِنْ الضَّلَالَة {وَمَوْعِظَة لِلْمُتَّقِينَ} مِنْهُمْ{وَلَا تَهِنُوا} تَضْعُفُوا عَنْ قِتَال الْكُفَّار{وَلَا تَحْزَنُوا}عَلَى مَا أَصَابَكُمْ بِأُحُدٍ {وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ} بِالْغَلَبَةِ عَلَيْهِمْ {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} حَقًّا وَجَوَابه دَلَّ عَلَيْهِ مَجْمُوع مَا قَبْله، {إِنْ يَمْسَسْكُمْ} يُصِبْكُمْ بِأُحُدٍ {قَرْح} بِفَتْحِ الْقَاف وَضَمّهَا جَهْد مِنْ جُرْح وَنَحْوه {فَقَدْ مَسَّ الْقَوْم}الْكُفَّار{قَرْح مِثْله} بِبَدْرٍ {وَتِلْكَ الْأَيَّام نُدَاوِلهَا} نُصَرِّفهَا {بَيْن النَّاس}يَوْمًا لِفِرْقَةٍ وَيَوْمًا لِأُخْرَى لِيَتَّعِظُوا {وَلِيَعْلَم اللَّه}عِلْم ظُهُور {الَّذِينَ آمَنُوا} أَخْلَصُوا فِي إِيمَانهمْ مِنْ غَيْرهمْ{وَيَتَّخِذ مِنْكُمْ شُهَدَاء}

يُكْرِمهُمْ بِالشَّهَادَةِ {وَاَللَّه لَا يُحِبّ الظَّالِمِينَ}الْكَافِرِينَ،أَيْ:يُعَاقِبُهُمْ وَمَا يُنْعِم بِهِ عليهم استدراج،{وَلِيُمَحِّص اللَّه الَّذِينَ آمَنُوا}يُطَهِّرهُمْ مِنْ الذُّنُوب بما يصيبهم {ويمحق} يهلك {الكافرين}.

قوله تعالى{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤)وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ(١٤٤)وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ(١٤٥)}

سبب النزول:

قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ} الآيات {١٤٤}.

قَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْهَزَمَ النَّاسُ، فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: قَدْ أُصِيبَ مُحَمَّدٌ فَأَعْطُوهُمْ بِأَيْدِيكُمْ، فَإِنَّمَا هم إخوانكم، وقاد بَعْضُهُمْ: إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ أُصِيبَ ألا ما تَمْضُونَ عَلَى مَا مَضَى عَلَيْهِ نَبِيُّكُمْ حَتَّى تَلْحَقُوا بِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} إِلَى {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا} لِقَتْلِ نَبِيِّهِمْ إِلَى قَوْلِهِ: {فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا}.

التفسير :

قوله :{أَمْ} بَلْ {حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّة ولما} لم {يَعْلَم اللَّه الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ} عِلْم ظُهُور {وَيَعْلَم الصَّابِرِينَ} فِي الشَّدَائِد، {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ} فِيهِ حَذْف إِحْدَى التَّاءَيْنِ فِي الْأَصْل {الْمَوْت مِنْ قَبْل أَنْ تَلْقَوْهُ حَيْثُ قُلْتُمْ لَيْتَ لَنَا يَوْمًا كَيَوْمِ بَدْر لِنَنَالَ مَا نَالَ شُهَدَاؤُهُ {فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ} أَيْ سَبَبه الْحَرْب {وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} أَيْ بُصَرَاء تَتَأَمَّلُونَ الْحَال كَيْفَ هِيَ فَلِمَ انْهَزَمْتُمْ وَنَزَلَ فِي هَزِيمَتهمْ لَمَّا أُشِيعَ أَنَّ النَّبِيّ قُتِلَ وَقَالَ لَهُمْ الْمُنَافِقُونَ إِنْ كَانَ قُتِلَ فَارْجِعُوا إِلَى دينكم ، {وَمَا مُحَمَّد إِلَّا رَسُول قَدْ خَلَتْ مِنْ قبله الرسل أفإين مَاتَ أَوْ قُتِلَ}كَغَيْرِهِ {انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابكُمْ}رَجَعْتُمْ إِلَى الْكُفْر وَالْجُمْلَة الْأَخِيرَة مَحَلّ الِاسْتِفْهَام الْإِنْكَارِيّ أَيْ مَا كَانَ مَعْبُودًا فَتَرْجِعُوا {وَمَنْ يَنْقَلِب عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرّ اللَّه شَيْئًا} وَإِنَّمَا يَضُرّ نَفْسه {وَسَيَجْزِي اللَّه الشَّاكِرِينَ} نِعَمه بالثبات،{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوت إِلَّا بِإِذْنِ اللَّه}بِقَضَائِهِ{كِتَابًا}مَصْدَر أَيْ كَتَبَ اللَّه ذَلِكَ {مُؤَجَّلًا} مُؤَقَّتًا لَا يَتَقَدَّم وَلَا يَتَأَخَّر فَلِمَ انْهَزَمْتُمْ وَالْهَزِيمَة لَا تَدْفَع الْمَوْت وَالثَّبَات لَا يَقْطَع الْحَيَاة {وَمَنْ يُرِدْ} بِعَمَلِهِ {ثَوَاب الدُّنْيَا} أَيْ جَزَاءَهُ مِنْهَا {نُؤْتِهِ مِنْهَا} مَا قُسِمَ لَهُ وَلَا حَظّ لَهُ فِي الْآخِرَة {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَاب الْآخِرَة نُؤْتِهِ مِنْهَا} أَيْ من ثوابها {وسنجزي الشاكرين}.

قوله تعالى{وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ(١٤٦)وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(١٤٧)فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ(١٤٨)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ(١٤٩)بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ(١٥٠)سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ}

سبب النزول:

قَوْلُهُ تَعَالَى: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ} الْآيَةَ {١٥١}.

قَالَ السُّدِّيُّ: لَمَّا ارْتَحَلَ أبو سفيان والمشركين يَوْمَ أُحُدٍ مُتَوَجِّهِينَ إِلَى مَكَّةَ، انْطَلَقُوا حَتَّى بَلَغُوا بَعْضَ الطَّرِيقِ ثُمَّ إِنَّهُمْ نَدِمُوا وَقَالُوا: بِئْسَ مَا صَنَعْنَا قَتَلْنَاهُمْ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا الشَّرِيدُ تَرَكْنَاهُمْ، ارْجِعُوا فَاسْتَأْصِلُوهُمْ، فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ أَلْقَى اللَّهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ حَتَّى رَجَعُوا عَمَّا عَزَمُوا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ.

التفسير:

هذا تسلية للمؤمنين، وحث على الاقتداء بهم، والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدما، لم تزل سنة الله جارية بذلك، فقال: {وكأين من نبي} أي: وكم من نبي {قاتل معه ربيون كثير}أي: جماعات كثيرون من أتباعهم، الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك{فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا} أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا،أي: ذلوا لعدوهم،بل صبروا وثبتوا، وشجعوا أنفسهم، ولهذا قال:

{والله يحب الصابرين}، فقال: {وما كان قولهم} أي: في تلك المواطن الصعبة{إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا} والإسراف: هو مجاوزة الحد إلى ما حرم،علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر،فسألوا ربهم مغفرتها. ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاة الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستنصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: {فآتاهم الله ثواب الدنيا} من النصر والظفر والغنيمة، {وحُسن ثواب الآخرة} وهو الفوز برضا ربهم، والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المنكدات، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال، فجازاهم بأحسن الجزاء، فلهذا قال:{والله يحب المحسنين}في عبادة الخالق ومعاملة الخلق، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء،{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا} فِيمَا يأمرونكم به {يردكم}إلى الكفر {على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين}{بَلْ اللَّه مَوْلَاكُمْ} نَاصِركُمْ {وَهُوَ خَيْر النَّاصِرِينَ} فأطيعوه دونهم،{سَنُلْقِي فِي قُلُوب الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْب}بِسُكُونِ الْعِين وَضَمّهَا الْخَوْف وَقَدْ عَزَمُوا بَعْد ارْتِحَالهمْ مِنْ أُحُد عَلَى الْعَوْد وَاسْتِئْصَال الْمُسْلِمِينَ فَرَعَبُوا وَلَمْ يَرْجِعُوا {بِمَا أَشْرَكُوا} بِسَبَبِ إِشْرَاكهمْ {بِاَللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّل بِهِ سُلْطَانًا} حُجَّة عَلَى عِبَادَته وَهُوَ الْأَصْنَام {وَمَأْوَاهُمْ النَّار وَبِئْسَ مَثْوَى} مَأْوَى {الظَّالِمِينَ} الكافرين .

قوله تعالى{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) }

سبب النزول:

قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ} الْآيَةَ {١٥٢}.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ: لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَدْ أُصِيبُوا بِمَا أُصِيبُوا يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: مِنْ أَيْنَ أَصَابَنَا هَذَا وَقَدْ وَعَدَنَا اللَّهُ النَّصْرَ؟فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ} الْآيَةَ إِلَى قَوْلِهِ:{مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا} يَعْنِي الرُّمَاةَ الَّذِينَ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا يَوْمَ أُحُدٍ.

التفسير:

قوله:{وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللَّه وَعْده}إيَّاكُمْ بِالنَّصْرِ{إذْ تَحُسُّونَهُمْ}تَقْتُلُونَهُمْ {بِإِذْنِهِ} بِإِرَادَتِهِ {حَتَّى إذَا فَشِلْتُمْ} جبنتم عن القتال {وَتَنَازَعْتُمْ} اخْتَلَفْتُمْ {فِي الْأَمْر} أَيْ أَمْر النَّبِيّ - صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -بِالْمُقَامِ فِي سَفْح الْجَبَل لِلرَّمْيِ فَقَالَ بَعْضكُمْ نَذْهَب فَقَدْ نُصِرَ أَصْحَابنَا وَبَعْضكُمْ لَا نُخَالِف أَمْر النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {وَعَصَيْتُمْ} أَمْره فَتَرَكْتُمْ الْمَرْكَز لِطَلَبِ الْغَنِيمَة {مِنْ بَعْد مَا أَرَاكُمْ} اللَّه {ما تحبون} من النصر وَجَوَاب إذَا دَلَّ

عَلَيْهِ مَا قَبْله أَيْ منعكم نصره {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيد الدُّنْيَا} فَتَرَكَ الْمَرْكَز لِلْغَنِيمَةِ {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيد الْآخِرَة} فَثَبَتَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ كَعَبْدِ اللَّه بْن جُبَيْر وَأَصْحَابه {ثُمَّ صَرَفَكُمْ} عَطْف عَلَى جَوَاب إِذَا الْمُقَدَّر رَدَّكُمْ لِلْهَزِيمَةِ {عَنْهُمْ}أَيْ الْكُفَّار{لِيَبْتَلِيَكُمْ}لِيَمْتَحِنكُمْ فَيَظْهَر الْمُخْلِص مِنْ غَيْره {وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ}مَا ارْتَكَبْتُمُوهُ {وَاَللَّه ذُو فَضْل عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} بِالْعَفْوِ، اذكروا {إذ تصعدون} تَبْعُدُونَ فِي الْأَرْض هَارِبِينَ {وَلَا تَلْوُونَ} تَعْرُجُونَ {عَلَى أَحَد وَالرَّسُول يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ} أَيْ مِنْ وَرَائِكُمْ يَقُول إِلَيَّ عِبَاد اللَّه {فَأَثَابَكُمْ} فَجَازَاكُمْ {غَمًّا} بِالْهَزِيمَةِ {بِغَمٍّ} بِسَبَبِ غَمّكُمْ لِلرَّسُولِ بِالْمُخَالَفَةِ وَقِيلَ الْبَاء بِمَعْنَى عَلَى أَيْ مُضَاعَفًا على غم فوت الغنيمة {لكيلا} متعلق بعفا أَوْ بأَثَابَكُمْ فَلَا زَائِدَة {تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ} مِنْ الْغَنِيمَة {وَلَا مَا أَصَابَكُمْ} مِنْ القتل والهزيمة {والله خبير بما تعملون}.

قوله تعالى{ ثمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا

عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}

التفسير :

قوله{ثم أنزل عليكم مِنْ بَعْد الْغَمّ أَمَنَة} أَمْنًا {نُعَاسًا} بَدَل {يَغْشَى} بِالْيَاءِ وَالتَّاء {طَائِفَة مِنْكُمْ} وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ فَكَانُوا يَمِيدُونَ تَحْت الحجف وَتَسْقُط السُّيُوف مِنْهُمْ {وَطَائِفَة قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسهمْ} أَيْ حَمَلَتْهُمْ عَلَى الْهَمّ فَلَا رَغْبَة لَهُمْ إِلَّا نَجَاتهَا دُون النَّبِيّ وَأَصْحَابه فَلَمْ يَنَامُوا وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ {يَظُنُّونَ بِاَللَّهِ} ظَنًّا {غَيْر} الظَّنّ {الْحَقّ ظَنَّ} أَيْ كَظَنِّ{الْجَاهِلِيَّة} حَيْثُ اعْتَقَدُوا أَنَّ النَّبِيّ قُتِلَ أَوْ لَا يُنْصَر {يَقُولُونَ هَلْ} مَا {لَنَا مِنْ الْأَمْر} أَيْ النَّصْر الَّذِي وُعِدْنَاهُ {مِنْ شَيْء قُلْ} لَهُمْ {إِنَّ الْأَمْر كُلّه} بِالنَّصْبِ تَوْكِيدًا وَالرَّفْع مُبْتَدَأ وَخَبَره {لِلَّهِ} أَيْ الْقَضَاء لَهُ يَفْعَل مَا يَشَاء {يُخْفُونَ فِي أَنْفُسهمْ مَا لَا يُبْدُونَ} يُظْهِرُونَ {لَك يَقُولُونَ} بَيَان لِمَا قَبْله {لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الْأَمْر شيء ما قتلنا ها هنا} أَيْ لَوْ كَانَ الِاخْتِيَار إِلَيْنَا لَمْ نَخْرُج فَلَمْ نُقْتَل لَكِنْ أُخْرِجنَا كَرْهًا {قُلْ} لَهُمْ {لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتكُمْ} وَفِيكُمْ مَنْ كَتَبَ اللَّه عَلَيْهِ الْقَتْل{لَبَرَزَ} خَرَجَ {الَّذِينَ كُتِبَ} قُضِيَ {عَلَيْهِمْ الْقَتْل} مِنْكُمْ {إِلَى مَضَاجِعهمْ} مَصَارِعهمْ فَيُقْتَلُوا وَلَمْ يُنْجِهِمْ قُعُودهمْ لِأَنَّ قَضَاءَهُ تَعَالَى كَائِن لَا مَحَالَة {و} فَعَلَ مَا فَعَلَ بِأُحُدٍ {لِيَبْتَلِيَ} يَخْتَبِر {اللَّه مَا فِي صُدُوركُمْ} قُلُوبكُمْ مِنْ الْإِخْلَاص وَالنِّفَاق {وَلِيُمَحِّص} يُمَيِّز {مَا فِي قُلُوبكُمْ وَاَللَّه عَلِيم بِذَاتِ الصُّدُور} بِمَا فِي الْقُلُوب لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْء وَإِنَّمَا يَبْتَلِي لِيُظْهِر لِلنَّاسِ {إِنَّ

الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ} عَنْ الْقِتَال {يَوْم الْتَقَى الْجَمْعَانِ} جَمْع الْمُسْلِمِينَ وَجَمْع الْكُفَّار بِأُحُدٍ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ إلَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا {إنَّمَا اسْتَزَلَّهُمْ}أَزَلّهمْ {الشَّيْطَان} بِوَسْوَسَتِهِ {بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا} مِنْ الذُّنُوب وَهُوَ مُخَالَفَة أَمْر النَّبِيّ {وَلَقَدْ عَفَا اللَّه عَنْهُمْ إنَّ اللَّه غَفُور} لِلْمُؤْمِنِينَ {حليم} لا يعجل على العصاة {يأيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا} أَيْ الْمُنَافِقِينَ {وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ} أَيْ فِي شَأْنهمْ {إذَا ضَرَبُوا} سَافَرُوا {فِي الْأَرْض} فَمَاتُوا {أَوْ كَانُوا غُزًّى} جَمْع غَازٍ فَقُتِلُوا {لَوْ كَانُوا عِنْدنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا} أَيْ لَا تَقُولُوا كَقَوْلِهِمْ {لِيَجْعَل اللَّه ذَلِكَ} الْقَوْل فِي عَاقِبَة أَمْرهمْ {حَسْرَة فِي قُلُوبهمْ وَاَللَّه يُحْيِي وَيُمِيت} فَلَا يَمْنَع عَنْ الْمَوْت قُعُود {وَاَللَّه بِمَا تَعْمَلُونَ} بِالتَّاءِ وَالْيَاء {بَصِير} فَيُجَازِيكُمْ بِهِ {وَلَئِنْ} لَام قَسَم {قُتِلْتُمْ فِي سَبِيل اللَّه} أَيْ الْجِهَاد {أَوْ مُتُّمْ} بِضَمِّ الْمِيم وَكَسْرهَا مِنْ مَاتَ يَمُوت أَيْ أَتَاكُمْ الْمَوْت فِيهِ {لَمَغْفِرَة} كَائِنَة {مِنْ اللَّه} لِذُنُوبِكُمْ {وَرَحْمَة} مِنْهُ لَكُمْ عَلَى ذَلِكَ وَاللَّام وَمَدْخُولهَا جَوَاب الْقَسَم وَهُوَ فِي مَوْضِع الْفِعْل مُبْتَدَأ خَبَره {خَيْر مما تجمعون} مِنْ الدُّنْيَا .

قوله تعالى{وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ

كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}

سبب النزول:

قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ} الْآيَةَ {١٦١}.

قَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ: نزلت حين ترك الرُّمَاةُ الْمَرْكَزَ يَوْمَ أُحُدٍ طَلَبًا لِلْغَنِيمَةِ، وَقَالُوا: نَخْشَى أَنْ يَقُولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ أَخَذَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ"، وَأَنْ لَا يُقَسِّمَ الْغَنَائِمَ كَمَا لَمْ يُقَسِّمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "ظَنَنْتُمْ أَنَّا نَغُلُّ وَلَا نُقَسِّمُ لَكُمْ"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَة.

التفسير :

قوله:{وَلَئِنْ} لَام قَسَم {مُتُّمْ} بِالْوَجْهَيْنِ {أَوْ قُتِلْتُمْ} فِي الْجِهَاد وَغَيْره {لَا إِلَى اللَّه} لَا إِلَى غَيْره {تُحْشَرُونَ} فِي الْآخِرَة فَيُجَازِيكُمْ {فَبِمَا رَحْمَة مِنْ اللَّه لِنْت} يَا مُحَمَّد {لَهُمْ} أَيْ سَهَّلْت أَخْلَاقك إذْ خَالَفُوك {وَلَوْ كنت فظا} سيء الْخُلُق{غَلِيظ الْقَلْب}جَافِيًا فَأَغْلَظْت لَهُمْ {لَانْفَضُّوا} تَفَرَّقُوا {مِنْ حَوْلك فَاعْفُ} تَجَاوَزْ {عَنْهُمْ} مَا أَتَوْهُ {وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ} ذُنُوبهمْ حَتَّى أَغْفِر لَهُمْ {وَشَاوِرْهُمْ} اسْتَخْرِجْ آرَاءَهُمْ {فِي الْأَمْر}أَيْ:شَأْنك مِنْ الْحَرْب وَغَيْره تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ وَلِيُسْتَنّ بِك وَكَانَ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَثِير الْمُشَاوَرَة لَهُمْ فَإِذَا عَزَمْت عَلَى إمْضَاء مَا تُرِيد بَعْد الْمُشَاوَرَة {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه} ثِقْ بِهِ لَا بِالْمُشَاوَرَةِ {إنَّ اللَّه يُحِبّ الْمُتَوَكِّلِينَ} عَلَيْهِ إنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّه} يُعِنْكُمْ عَلَى عَدُوّكُمْ كَيَوْمِ

بَدْر {فَلَا غَالِب لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلكُمْ} يَتْرُك نَصْركُمْ كَيَوْمِ أُحُد {فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُركُمْ مِنْ بَعْده} أَيْ بَعْد خِذْلَانه أَيْ لَا نَاصِر لَكُمْ {وَعَلَى اللَّه لَا غَيْره {فَلْيَتَوَكَّلْ} ليثق {المؤمنون} وَنَزَلَتْ لَمَّا فُقِدَتْ قَطِيفَة حَمْرَاء يَوْم أُحُد فَقَالَ بَعْض النَّاس لَعَلَّ النَّبِيّ أَخَذَهَا {وَمَا كان} ما يَنْبَغِي {لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلّ} يَخُون فِي الْغَنِيمَة فَلَا تَظُنُّوا بِهِ ذَلِكَ وَفِي قِرَاءَة بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ أَنْ يُنْسَب إِلَى الْغُلُول {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْم الْقِيَامَة} حَامِلًا لَهُ عَلَى عُنُقه {ثُمَّ تُوَفَّى كُلّ نَفْس} الْغَالّ وَغَيْره جَزَاء {مَا كَسَبَتْ} عَمِلَتْ {وَهُمْ لَا يظلمون} شيئا {أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَان اللَّه} فَأَطَاعَ وَلَمْ يَغُلّ {كَمَنْ بَاءَ} رَجَعَ {بِسَخَطٍ مِنْ اللَّه} لِمَعْصِيَتِهِ وَغُلُوله {وَمَأْوَاهُ جَهَنَّم وَبِئْسَ الْمَصِير} الْمَرْجِع هِيَ {هُمْ دَرَجَات} أَيْ أَصْحَاب دَرَجَات {عِنْد اللَّه} أي مختلفوا الْمَنَازِل فَلِمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانه الثَّوَاب وَلِمَنْ بَاءَ بِسَخَطِهِ الْعِقَاب {وَاَللَّه بَصِير بِمَا يَعْمَلُونَ}فَيُجَازِيهِمْ به".

قوله تعالى{ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤) أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }

سبب النزول:

قَوْلُهُ تَعَالَى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ} الْآيَةَ {١٦٥}.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ عُوقِبُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ،فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ وَفَرَّ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، وَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ} إِلَى قَوْلِهِ: {قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} قال: يأخذكم الْفِدَاءَ.

التفسير :

قوله{لَقَدْ مَنَّ اللَّه عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسهمْ} أَيْ عَرَبِيًّا مِثْلهمْ لِيَفْهَمُوا عَنْهُ وَيَشْرُفُوا بِهِ لَا مَلَكًا وَلَا عجميا {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاته} الْقُرْآن {وَيُزَكِّيهِمْ} يُطَهِّرهُمْ مِنْ الذُّنُوب {وَيُعَلِّمهُمْ الْكِتَاب} الْقُرْآن {وَالْحِكْمَة} السُّنَّة {وَإِنْ} مُخَفَّفَة أَيْ إِنَّهُمْ {كَانُوا مِنْ قَبْل} أَيْ قَبْل بَعْثه {لَفِي ضَلَال مُبِين} بَيِّن {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَة} بِأُحُدٍ بِقَتْلِ سَبْعِينَ مِنْكُمْ {قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا} بِبَدْرٍ بِقَتْلِ سَبْعِينَ وَأَسْر سَبْعِينَ مِنْهُمْ {قُلْتُمْ} مُتَعَجِّبِينَ {أَنَّى} مِنْ أَيْنَ لَنَا {هَذَا} الْخِذْلَان وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ وَرَسُول اللَّه فِينَا وَالْجُمْلَة الْأَخِيرَة مَحَلّ الِاسْتِفْهَام الْإِنْكَارِيّ {قُلْ} لَهُمْ {هُوَ مِنْ عِنْد أَنْفُسكُمْ} لِأَنَّكُمْ تَرَكْتُمْ الْمَرْكَز فَخُذِلْتُمْ {إِنَّ اللَّه عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير} وَمِنْهُ النَّصْر وَمَنْعه وَقَدْ جَازَاكُمْ بِخِلَافِكُمْ {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْم الْتَقَى الْجَمْعَانِ} بِأُحُدٍ {فَبِإِذْنِ اللَّه} بِإِرَادَتِهِ {وَلِيَعْلَم} عِلْم

ظُهُور {الْمُؤْمِنِينَ} حَقًّا {وليعلم الذين نافقوا و} الذين {قِيلَ لَهُمْ} لَمَّا انْصَرَفُوا عَنْ الْقِتَال وَهُمْ عَبْد اللَّه بْن أُبَيٍّ وَأَصْحَابه {تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيل اللَّه} أَعْدَاءَهُ {أَوْ ادْفَعُوا} عَنَّا الْقَوْم بِتَكْثِيرِ سَوَادكُمْ إنْ لَمْ تُقَاتِلُوا {قَالُوا لَوْ نَعْلَم} نُحْسِن {قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ} قَالَ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَب مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ} بِمَا أَظْهَرُوا مِنْ خِذْلَانهمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَكَانُوا قَبْل أَقْرَب إلَى الْإِيمَان مِنْ حَيْثُ الظَّاهِر {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبهمْ} وَلَوْ عَلِمُوا قِتَالًا لَمْ يَتَّبِعُوكُمْ {وَاَللَّه أَعْلَم بِمَا يَكْتُمُونَ} مِنْ النِّفَاق {الَّذِينَ} بَدَل مِنْ الَّذِينَ قَبْله أَوْ نَعْت {قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ} فِي الدِّين {و} قَدْ {قَعَدُوا} عَنْ الْجِهَاد {لَوْ أَطَاعُونَا} أَيْ شُهَدَاء أُحُد أو إخواننا في القعود {ما قتلوا قُلْ} لَهُمْ {فَادْرَءُوا} ادْفَعُوا {عَنْ أَنْفُسكُمْ الْمَوْت إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فِي أَنَّ الْقُعُود يُنْجِي مِنْهُ وَنَزَلَ فِي الشُّهَدَاء ".

قوله تعالى{ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَ حْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ

ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}

سبب النزول:

- قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا} {١٦٩}.

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بن يحيى قال: أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيدٍ إِسْمَاعِيلُ بْنُ أحمد الخلالي قال: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدَانَ بْنِ يزيد البجلي قال: حَدَّثَنَا أبو كريب قال: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسَ،عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ،عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ قَالُوا:مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّا فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ،لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَلَا يَنْكُلُوا فِي الْحَرْبِ"، فَقَالَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: "أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}.

- قَوْلُهُ تَعَالَى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ} الْآيَةَ {١٧٢}.

أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بن إبراهيم المقري قال: أَخْبَرَنَا شُعَيْبُ بن محمد قال: أَخْبَرَنَا مَكِّيُّ بن عبدان قال: حَدَّثَنَا أبو الأزهر قال: حدثنا روح قال: حَدَّثَنَا أَبُو يُونُسَ الْقُشَيْرِيُّ، عَنْ

عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اسْتَنْفَرَ النَّاسَ بَعْدَ أُحُدٍ حِينَ انْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ سَبْعُونَ رَجُلًا، فَطَلَبَهُمْ فَلَقِيَ أَبُو سُفْيَانَ عِيرًا مِنْ خُزَاعَةَ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنْ لَقِيتُمْ مُحَمَّدًا يَطْلُبُنِي فَأَخْبِرُوهُ أَنِّي فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ، فَلَقِيَهُمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَسَأَلَهُمْ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ فَقَالُوا: لَقِينَاهُ فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ وَنَرَاكَ فِي قِلَّةٍ وَلَا نَأْمَنُهُ عَلَيْكَ، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَّا أَنْ يَطْلُبَهُ، فَسَبَقَهُ أَبُو سُفْيَانَ، فَدَخَلَ مَكَّةَ،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ} حَتَّى بَلَغَ {فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}".

- قَوْلُهُ تَعَالَى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ} الْآيَةَ {١٧٣}.

- أَخْبَرَنَا أَبُو إسحاق الثعالبي قال: أَخْبَرَنَا أَبُو صَالِحٍ شُعَيْبُ بن محمد قال: أَخْبَرَنَا أَبُو حَاتِمٍ التميمي قال:أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ الأزهر قال: حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ عبادة قال: حَدَّثَنَا سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: ذَاكَ يَوْمُ أُحُدٍ بَعْدَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحَةِ وَبَعْدَمَا انْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَصْحَابِهِ: "أَلَا عِصَابَةٌ تُشَدِّدُ لِأَمْرِ اللَّهِ فَتَطْلُبُ عَدُوَّهَا فَإِنَّهُ أَنَكَى لِلْعَدُوِّ وَأَبْعَدُ لِلسَّمْعِ"، فَانْطَلَقَ عِصَابَةٌ عَلَى مَا يَعْلَمِ اللَّهُ مِنَ الْجَهْدِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِذِي الْحُلَيْفَةِ جَعَلَ الْأَعْرَابُ وَالنَّاسُ يأتون عليهم، يقولون هَذَا أَبُو سُفْيَانَ مَائِلٌ بِالنَّاسِ، فَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ} إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}.

التفسير : قوله{وَلَا تَحْسَبَن الَّذِينَ قُتِلُوا} ماتوا{ فِي سَبِيل اللَّه} أَيْ لِأَجْلِ دِينه {أَمْوَاتًا بَلْ} هُمْ {أَحْيَاء عِنْد رَبّهمْ} أَرْوَاحهمْ فِي حَوَاصِل طُيُور خُضْر تَسْرَح فِي الْجَنَّة حَيْثُ شَاءَتْ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيث {يُرْزَقُونَ} يَأْكُلُونَ مِنْ ثمار الجنة {فَرِحِينَ}حَال مِنْ ضَمِير يُرْزَقُونَ{بِمَا آتَاهُمْ اللَّه مِنْ فَضْله وَ} هُمْ {يَسْتَبْشِرُونَ}يَفْرَحُونَ{بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفهمْ}مِنْ إخوانهم المؤمنين ويبدل من الذين أي بأن {لا خوف عليهم} أي الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}فِي الْآخِرَة الْمَعْنَى يَفْرَحُونَ بِأَمْنِهِمْ وَفَرَحهمْ {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ} ثَوَاب{مِنْ اللَّه وَفَضْل}زِيَادَة عَلَيْهِ {وَأَنَّ} بِالْفَتْحِ عَطْفًا عَلَى نِعْمَة وَبِالْكَسْرِ اسْتِئْنَافًا {اللَّه لَا يُضِيع أَجْر الْمُؤْمِنِينَ} بَلْ يأجرهم {الَّذِينَ} مُبْتَدَأ {اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُول}دُعَاءَهُ بِالْخُرُوجِ للقتال لما أراد أبو سفيان وأصحابه العودة تَوَاعَدُوا مَعَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُوق بَدْر الْعَام الْمُقْبِل مِنْ يَوْم أُحُد {مِنْ بَعْد مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْح} بِأُحُدٍ وَخَبَر الْمُبْتَدَأ {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ} بِطَاعَتِهِ {وَاتَّقَوْا} مُخَالَفته {أَجْر عَظِيم} هُوَ الْجَنَّة {الَّذِينَ} بَدَل مِنْ الَّذِينَ قَبْله أَوْ نَعْت {قَالَ لَهُمْ النَّاس} أَيْ نَعِيم بْن مَسْعُود الْأَشْجَعِيّ {إنَّ النَّاس}أَبَا سُفْيَان وَأَصْحَابه{قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ} الْجُمُوع ليستأصلوكم {فَاخْشَوْهُمْ} وَلَا تَأْتُوهُمْ {فَزَادَهُمْ} ذَلِكَ الْقَوْل {إيمَانًا} تَصْدِيقًا بِاَللَّهِ وَيَقِينًا {وَقَالُوا حَسْبنَا اللَّه} كَافِينَا أَمْرهمْ {وَنِعْمَ الْوَكِيل} الْمُفَوَّض إلَيْهِ الْأَمْر هُوَ وَخَرَجُوا مَعَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَافَوْا سُوق بَدْر وَأَلْقَى اللَّه الرُّعْب فِي قَلْب أَبِي سُفْيَان وَأَصْحَابه فَلَمْ يَأْتُوا وَكَانَ مَعَهُمْ تِجَارَات فَبَاعُوا وربحوا قال الله تعالى {فَانْقَلَبُوا} رَجَعُوا مِنْ بَدْر {بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّه وَفَضْل} بِسَلَامَةٍ وَرِبْح {لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوء}

مِنْ قَتْل أَوْ جُرْح {وَاتَّبَعُوا رِضْوَان اللَّه} بِطَاعَتِهِ وَطَاعَة رَسُوله فِي الْخُرُوج {وَاَللَّه ذُو فَضْل عَظِيم} عَلَى أَهْل طَاعَته {إِنَّمَا ذَلِكُمْ} أَيْ الْقَائِل لَكُمْ إِنَّ النَّاس إلخ {الشيطان يخوف} كم {أولياءه} الكفار {فلا تخافوهم وخافون} فِي تَرْك أَمْرِي {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} حَقًّا .

قوله تعالى{ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ }

التفسير

قوله{وَلَا يَحْزُنك} بِضَمِّ الْيَاء وَكَسْر الزَّاي وَبِفَتْحِهَا وضم الزاي من أحزانه {الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْر}يَقَعُونَ فِيهِ سَرِيعًا بِنُصْرَتِهِ وَهُمْ أَهْل مَكَّة أَوْ الْمُنَافِقُونَ أَيْ لَا تَهْتَمّ لِكُفْرِهِمْ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّه شَيْئًا} بِفِعْلِهِمْ وَإِنَّمَا يَضُرُّونَ أَنْفُسهمْ {يُرِيد اللَّه أَلَّا يَجْعَل لَهُمْ حَظًّا} نَصِيبًا {فِي الْآخِرَة} أَيْ الْجَنَّة فَلِذَلِكَ خَذَلَهُمْ اللَّه {وَلَهُمْ عَذَاب عَظِيم} فِي النَّار{إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْر بِالْإِيمَانِ} أَيْ أَخَذُوهُ بَدَله {لَنْ يَضُرُّوا اللَّه} بِكُفْرِهِمْ {شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَاب أَلِيم} مُؤْلِم {وَلَا يَحْسَبَن} بِالْيَاءِ وَالتَّاء{الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا

نُمْلِي}أَيْ إمْلَاءَنَا{لَهُمْ} بِتَطْوِيلِ الْأَعْمَار وَتَأْخِيرهمْ {خَيْر لِأَنْفُسِهِمْ}وَأَنَّ وَمَعْمُولَاهَا سَدَّتْ مَسَدّ الْمَفْعُولَيْنِ فِي قِرَاءَة التَّحْتَانِيَّة وَمَسَدّ الثَّانِي فِي الْأُخْرَى{إِنَّمَا نُمْلِي}نُمْهِل لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إثْمًا} بِكَثْرَةِ الْمَعَاصِي {وَلَهُمْ عَذَاب مُهِين} ذُو إهَانَة فِي الآخرة {مَا كَانَ اللَّه لِيَذَر} لِيَتْرُك {الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ}أَيّهَا النَّاس{عَلَيْهِ}مِنْ اخْتِلَاط الْمُخْلِص بِغَيْرِهِ {حَتَّى يَمِيز} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد يَفْصِل {الْخَبِيث} الْمُنَافِق {مِنْ الطَّيِّب} الْمُؤْمِن بِالتَّكَالِيفِ الشَّاقَّة الْمُبَيِّنَة لِذَلِكَ فَفَعَلَ ذَلِكَ يَوْم أُحُد {وَمَا كَانَ اللَّه لِيُطْلِعكُمْ عَلَى الْغَيْب} فَتَعْرِفُوا الْمُنَافِق مِنْ غَيْره قَبْل التَّمْيِيز {وَلَكِنَّ اللَّه يَجْتَبِي} يَخْتَار {مِنْ رُسُله مَنْ يَشَاء} فَيُطْلِعهُ عَلَى غَيْبه كَمَا أَطْلَعَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَال الْمُنَافِقِينَ {فَآمِنُوا بِاَللَّهِ وَرُسُله وإن تؤمنوا وتتقوا} النفاق {فلكم أجر عظيم}جزاء لكم .

استشهاد حمزة بن عبد المطلب فى غزوة أحد :

قوله تعالى{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ(١٢٦)وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ(١٢٧)إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ(١٢٨)}

سبب النزول:

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا رَأَوْا مَا فَعَلَ الْمُشْرِكُونَ بِقَتْلَاهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنْ تَبْقِيرِ الْبُطُونِ وَقَطْعِ الْمَذَاكِيرِ وَالْمُثْلَةِ السَّيِّئَةِ،قَالُوا حِينَ رَأَوْا ذَلِكَ: لَئِنْ أَظْفَرَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ لَنَزِيدَنَّ عَلَى صَنِيعِهِمْ وَلَنُمَثِّلَنَّ بِهِمْ مُثْلَةً لَمْ يُمَثِّلْهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ بِأَحَدٍ

قَطُّ وَلَنَفْعَلَنَّ وَلَنَفْعَلَنَّ، وَوَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى عَمِّهِ حَمْزَةَ وَقَدْ جَدَعُوا أَنْفَهُ وَأُذُنَهُ وَقَطَعُوا مَذَاكِيرَهُ وَبَقَرُوا بَطْنَهُ، وَأَخَذَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ قِطْعَةً مِنْ كَبِدِهِ فَمَضَغَتْهَا ثُمَّ اسْتَرَطَتْهَا لِتَأْكُلَهَا،فَلَمْ تَلْبَثْ فِي بَطْنِهَا حَتَّى رَمَتْ بِهَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ نَبِيَّ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: "أَمَا إِنَّهَا لَوْ أَكَلَتْهَا لَمْ تَدْخُلِ النَّارَ أَبَدًا، حَمْزَةُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ جَسَدِهِ النَّارَ"، فَلَمَّا نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى حَمْزَةَ نَظَرَ إِلَى شَيْءٍ لَمْ يَنْظُرْ قَطُّ إِلَى شَيْءٍ كَانَ أَوْجَعَ لِقَلْبِهِ مِنْهُ، فَقَالَ: "رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، إِنَّكَ مَا عَلِمْتُ كُنْتَ وَصُولًا لِلرَّحِمِ، فَعَّالًا لِلْخَيْرَاتِ، وَلَوْلَا حُزْنُ مَنْ بَعْدَكَ عَلَيْكَ لَأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ مَكَانَكَ"،فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} الْآيَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "بَلْ نَصْبِرُ"، وَأَمْسَكَ عَمَّا أَرَادَ، وَكَفَّرَ عَنْ يَمِينِهِ.

التفسير :

قوله{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ} من أساء إليكم بالقول والفعل {فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم {وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ} عن المعاقبة وعفوتم عن جرمهم{لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} من الاستيفاء وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة كما قال تعالى: {فمن عفا وأصلح فأجره على الله}

ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النفس فقال:{وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ} هو الذي يعينك عليه ويثبتك{وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ}إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولا لدعوتك، فإن الحزن لا

يجدي عليك شيئا{وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ} أي: شدة وحرج {مِمَّا يَمْكُرُونَ} فإن مكرهم عائد إليهم وأنت من المتقين المحسنين والله مع المتقين المحسنين،بعونه وتوفيقه وتسديده،وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله،بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه، فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه.

- مخالفة الرماة لأمر رسول الله –صلى الله عليه وسلم - :

قوله تعالى{ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨)مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ }

سبب النزول :

قوله تعالى{ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}

أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال لما أبطأ على النساء الخبر خرجن ليستخبرن بين فإذا رجلان مقبلان على بعير فقالت امرأة ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قالا حي قالت فلا أبالي يتخذ الله من عباده الشهداء ونزل القرآن على ما قالت ويتخذ منكم شهداء.

قوله تعالى{ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ }

أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس أن رجالا من الصحابة كانوا يقولون ليتنا نقتل كما قتل اصحاب بدر أو ليت لنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبلى فيه خيرا أو نلتمس الشهادة والجنة أو الحياة والرزق فأشهدهم الله أحدا فلم يلبثوا إلا من شاء الله منهم فأنزل الله ولقد كنتم تمنون الموت الآية"

قوله تعالى{ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

أخرج ابن أبي حاتم عن عمر ابن الخطاب قال عوقبوا يوم أحد بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه فأنزل الله أو لما أصابتكم مصيبة الآية.

قوله تعالى{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}

روى أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصيب أخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتاكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله أنا ابلغهم عنكم فأنزل الله هذه الآية ولا تحسبن الذين قتلوا الآية وما بعده .

قوله تعالى{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ}

حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمير بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن قالوا لما أصيبت قريش يوم بدر ورجعوا إلى مكة مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أبي أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم فكلموا أبا سفيان ومن كان له في ذلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش ان محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ان ندرك منه ثأرا ففعلوا ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله إن الذين كفروا ينفقون أموالهم إلى قوله يحشرون.

قوله تعالى{ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا}

عن أنس بن مالك - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن أنس بن النضر تغيب عن قتال بدر، فقال: تغيبتُ عن أول مشهد شهده النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لئن رأيت قتالاً ليرينَ اللَّه ما أصنع. فلما كان يوم أحد انهزم أصحاب النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أقبل أنس، فرأى سعد بن معاذ منهزمًا، فقال: يا أبا عمرو، أين؟ أين؟ قم، فوالذي نفسي بيده، إني لأجد ريح الجنة دون أُحد فحمل حتى قتل، فقال سعد بن معاذ: فوالذي نفسي بيده ما استطعت ما استطاع. فقالت أُخته: فما عرفتُ أخي إلا ببنانه ولقد كانت فيه بضع وثمانون ضربة، من بين ضربة بسيف، ورمية بسهم، وطعنةٍ برمح، فأنزل اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - فيه: (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) إلى قوله: (وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا).

التفسير:

قوله{وَلَا يَحْزُنك} بِضَمِّ الْيَاء وَكَسْر الزَّاي وَبِفَتْحِهَا وضم الزاي من أحزانه {الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْر} يَقَعُونَ فِيهِ سَرِيعًا بِنُصْرَتِهِ وَهُمْ أَهْل مَكَّة أَوْ الْمُنَافِقُونَ أَيْ لَا تَهْتَمّ لِكُفْرِهِمْ {إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّه شَيْئًا} بِفِعْلِهِمْ وَإِنَّمَا يَضُرُّونَ أَنْفُسهمْ {يُرِيد اللَّه أَلَّا يَجْعَل لَهُمْ حَظًّا} نَصِيبًا {فِي الْآخِرَة} أَيْ الْجَنَّة فَلِذَلِكَ خَذَلَهُمْ اللَّه {وَلَهُمْ عَذَاب عَظِيم} فِي النَّار {إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْر بِالْإِيمَانِ} أَيْ أَخَذُوهُ بَدَله {لَنْ يَضُرُّوا اللَّه} بِكُفْرِهِمْ {شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَاب أَلِيم} مُؤْلِم {وَلَا يَحْسَبَن} بِالْيَاءِ وَالتَّاء{الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي} أَيْ إمْلَاءَنَا {لَهُمْ} بِتَطْوِيلِ الْأَعْمَار وَتَأْخِيرهمْ{خَيْر لِأَنْفُسِهِمْ}وَأَنَّ وَمَعْمُولَاهَا سَدَّتْ مَسَدّ الْمَفْعُولَيْنِ فِي قِرَاءَة التَّحْتَانِيَّة وَمَسَدّ الثَّانِي فِي الْأُخْرَى {إِنَّمَا نُمْلِي} نُمْهِل {لَهُمْ

لِيَزْدَادُوا إِثْمًا} بِكَثْرَةِ الْمَعَاصِي{وَلَهُمْ عَذَاب مُهِين}ذُو إِهَانَة فِي الآخرة {مَا كَانَ اللَّه لِيَذَر} لِيَتْرُك {الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ} أَيّهَا النَّاس{عَلَيْهِ} مِنْ اخْتِلَاط الْمُخْلِص بِغَيْرِهِ {حَتَّى يَمِيز} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد يَفْصِل {الْخَبِيث} الْمُنَافِق {مِنْ الطَّيِّب} الْمُؤْمِن بِالتَّكَالِيفِ الشَّاقَّة الْمُبَيِّنَة لِذَلِكَ فَفَعَلَ ذَلِكَ يَوْم أُحُد {وَمَا كَانَ اللَّه لِيُطْلِعكُمْ عَلَى الْغَيْب} فَتَعْرِفُوا الْمُنَافِق مِنْ غَيْره قَبْل التَّمْيِيز {وَلَكِنَّ اللَّه يَجْتَبِي} يَخْتَار {مِنْ رُسُله مَنْ يَشَاء} فَيُطْلِعهُ عَلَى غَيْبه كَمَا أَطْلَعَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَال الْمُنَافِقِينَ {فَآمِنُوا بِاَللَّهِ وَرُسُله وإن تؤمنوا وتتقوا} النفاق {فلكم أجر عظيم}".

قوله تعالى{ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

روى أحمد ومسلم عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج في وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم فأنزل الله ليس لك من الأمر شئ الآية.

الأحاديث الواردة في الغزوة :

ورد في السنة النبوية العطرة عدة أحاديث تكلمت عن أحداث الغزوة ومنها ما يلى:

١- روى البخارى في صحيحه:عَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَقِينَا المُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاةِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ، وَقَالَ: «لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ

تُعِينُونَا» فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الجَبَلِ، رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ، قَدْ بَدَتْ خَلاَخِلُهُنَّ، فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الغَنِيمَةَ الغَنِيمَةَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لاَ تَبْرَحُوا، فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا صُرِفَ وُجُوهُهُمْ، فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا، وَأَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ: «لاَ تُجِيبُوهُ» فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ قَالَ: «لاَ تُجِيبُوهُ» فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟ فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلاَءِ قُتِلُوا، فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً لَأَجَابُوا، فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ مَا يُخْزِيكَ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: اعْلُ هُبَلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجِيبُوهُ» قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: " قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ " قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا العُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجِيبُوهُ» قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا اللَّهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ» قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالحَرْبُ سِجَالٌ، وَتَجِدُونَ مُثْلَةً، "لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي.

٢- حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى التَّمِيمِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ، يَسْأَلُ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ: «جُرِحَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَغْسِلُ الدَّمَ، وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَسْكُبُ عَلَيْهَا بِالْمِجَنِّ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً، أَخَذَتْ قِطْعَةَ حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهُ حَتَّى صَارَ رَمَادًا، ثُمَّ أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ».

٢- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟»، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ" .

الدروس المستفادة من الغزوة:

وصف القرآن الكريم غزوة أحد وصفًا دقيقًا، وكان التصوير القرآني للغزوة أقوى حيوية ووضوحًا ،كما أن أسلوب الآيات المطمئنة المبشرة كان رائعًا وقويًا، فبين القرآن الكريم نفوس جيش النبي صلى الله عليه وسلم، فسلط الأضواء على خفايا القلوب،التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم، والناظر عموما في منهج القرآن في التعقيب على غزوة أحد، يجد الدقة والعمق والشمول، تسليط الأضواء على بعض النقاط المهمة من الدروس المستفادة من الغزوة وهى ما يلى :

أولا: تذكير المؤمنين بالسنن ودعوتهم للعلو الإيماني:

قال تعالى: (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ - هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ - وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ) ،إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة يجد أن الله سبحانه وتعالى لم يترك المسلمين لوساوس الشيطان في محنة غزوة بدر، بل خاطبهم بهذه الآيات

التي بعث بها الأمل في قلوبهم، وأرشدهم إلى ما يقويهم ويثبتهم، ويمسح بتوجيهاته دموعهم ويخفف عنهم آلامهم،وفي قوله تعالى:(وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ) دعاهم إلى ترك الضعف، ومحاربة الجبن، والتخلص من الوهن، وعدم الحزن؛ لأنهم هم الأعلون بسبب إيمانهم.

ثانيًا: تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أحد:

قال تعالى: (إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ - وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ - أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ - وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) بيَّن الله -سبحانه- لهم أن الجروح والقتلى يجب ألا تؤثر في جسدهم واجتهادهم في جهاد العدو؛ وذلك لأنه كما أصابهم ذلك فقد أصاب عدوهم مثله من قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب، فبأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك بالحق أولى.

ثالثًا: كيفية معالجة الأخطاء:

ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في أحد على عكس ما نزل في بدر من آيات، فكان أسلوب القرآن الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه أشد

من حساب المنكسر، فقال في غزوة بدر: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ - لَوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) ،وقال في أحد: (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إذا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) ،وفي هذا حكمة عملية وتربية قرآنية يحسن أن يلتزمها أهل التربية والقائمون على التوجيه.

رابعًا: ضرب المثل بالمجاهدين السابقين:

قال تعالى: (وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ - فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) ،قال ابن كثير: عاتب الله بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمدًا قد قتل، فعذَلهم الله على فرارهم وتركهم القتال.

وضرب الله لهم مثلا بإخوانهم المجاهدين السابقين، وهم جماعة كثيرة، ساروا وراء أنبيائهم في درب الجهاد في سبيل الله، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا عن الجهاد بعد الذي أصابهم منه، وما استكانوا للعدو، بل ظلوا صابرين ثابتين في جهادهم.

خامسًا: مخالفة ولي الأمر تسبب الفشل لجنوده:

مخالفة الرماة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم ووقوعهم في الخطأ الفظيع الذي قلب الموازين، وأدى إلى الخسائر الفادحة التي لحقت بالمسلمين،حيث أن المسلمين انتصروا في أول الأمر حينما امتثلوا لأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم، وانقادوا لتعليمات قائدهم وأميرهم عبد الله بن جبير - رضي الله عنه - ، بينما انهزموا حينما خالفوا أمره صلى الله عليه وسلم ونزل الرماة من الجبل لجمع الغنائم مع بقية الصحابة -رضي الله عنهم-، قال تعالى: (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إذا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ*إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

ثامنًا: معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للرماة الذين أخطأوا والمنافقين الذين انخذلوا:

أ- الرماة: الذين أخطأوا في غزوة أحد لم يخرجهم الرسول صلى الله عليه وسلم خارج الصف، بل قبل ضعفهم هذا في رحمة وعفو وفي سماحة،رغم ما وقع من بعضهم من أخطاء جسيمة وما ترتب عليه من خسائر فادحة، فعفا سبحانه وتعالى عفوًا غسل به خطاياهم ومحا به آثار تلك الخطايا قال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ

لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) ،انخذال ابن سلول المنافق: كان هدفه بانسحابه بثلاثمائة من المنافقين،حدوث بلبلة واضطرابًا في الجيش الإسلامي،لتنهار معنوياته ويتشجع العدو، وتعلو همته. وعمله هذا ينطوي على استهانة بمستقبل الإسلام، وغدر به في أحلك الظروف وفيه نزل قول الله تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ - وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ) ،فالبرغم من

خطورة الموقف وحاجة المسلمين لهذا العدد، لقلة جيش المسلمين وكثرة جيش قريش إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ترك هؤلاء المنافقين وشأنهم، ولم يعرهم أي اهتمام، واكتفى بفضح أمرهم أمام الناس، وكان لهذا الأسلوب أثره في توبيخ وإهانة ابن سلول.

تاسعاً: نزول الملائكة في أحد:

كان على يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وشماله رجلين عليهما ثياب يقاتلان عنه كأشد القتال،هماجبريل وميكائيل، عليهما السلام وهذا خاص بالدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله تكفل بعصمته من الناس قال تعالى: (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنزَلِينَ - بَلَى إِن

تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ) .

عاشراً: فضل الشهداء وما أعده الله لهم من نعيم مقيم:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال عز وجل: أنا أبلغهم عنكم» فأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات،قال تعالى: (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ - فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ - يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ) .

حديث القرآن الكريم والسنة النبوية عن"غزوة بنى النضير "

وقعت هذه الغزوة شهر ربيع الأول فى السنة الرابعة من الهجرة فى بنى النضير :وهم قوم من اليهود يجاورون المدينة،وكانوا حلفاء للخزرج وبينهم وبين المسلمين عهد سلم وتعاون كما قدمنا،سببها:ولكن طبيعة الشر والغدر المتأصلة في اليهود أبت إلا أن تحملهم على نقض عهدهم، فبينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه في بني النضير وقد استند إلى جدار من بيوتهم، إذ تآمروا على قتله بإلقاء صخرة من ظهر البيت، فعلم صلى الله عليه وسلم بذلك فنهض سريعا كأنه يهم بحاجة، فتوجه إلى المدينة،ولحقه أصحابه ثم أرسل إليهم محمد ابن مسلمة أن اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر،ثم أمهلهم صلى الله عليه وسلم عشرة أيام للخروج، وتجهز بنو النضير للخروج في هذا الإنذار،ولكن عبد الله بن أبيِّ رأس المنافقين أرسل إليهم ينهاهم عن الخروج،ويعدهم بإرسال ألفين من جماعته يدافعون عنهم، فعدلوا عن النزوح، وتحصنوا في حصونهم،وأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فخرج إليهم صلى الله عليه وسلم في أصحابه يحمل لواءه علي بن أبي طالب، فلما رآهم اليهود أخذوا يرمونهم بالنبل والحجارة،ولم يصل إليهم المدد الذي وعدهم به رأس المنافقين،فحاصرهم عليه الصلاة والسلام،فصبروا فاضطر إلى قطع نخيلهم، فقالوا عندئذ: نخرج من بلادك،واشترط عليهم صلى الله عليه وسلم ألا يخرجوا معهم السلاح،ولهم أن يخرجوا معهم من أموالهم ما حملته

الإبل، ودماؤهم مصونة لا يسفك منها قطرة، فلما أرادوا الخروج أخذوا كل شيء يستطيعونه، وهدموا بيوتهم كيلا يستفيد منها المسلمون، وساروا، فمنهم من نزل خيبر على بعد مائة ميل من المدينة، ومنهم من نزل في ناحية «جرش» بجنوب الشام، ولم يسلم منهم إلا اثنان ،وقد نزلت في هذه الغزوة آيات قرآنية وأحاديث نبوية ،منها فى سورة الحشر :

قال تعالى{هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)}

أولاً : سبب النزول :

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} الآية {٢}.

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي بَنِي النَّضِيرِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ صَالَحَهُ بَنُو النَّضِيرِ عَلَى أَنْ لَا يُقَاتِلُوهُ وَلَا يُقَاتِلُوا مَعَهُ، وَقَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وذلك مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَدْرًا وَظَهَرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَتْ بَنُو النَّضِيرِ: وَاللَّهِ إِنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي وَجَدْنَا نعته في التوارة لَا تُرَدُّ لَهُ رَايَةٌ، فَلَمَّا غَزَا أُحُدًا وَهُزِمَ الْمُسْلِمُونَ نَقَضُوا الْعَهْدَ وَأَظْهَرُوا الْعَدَاوَةَ لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والمؤمنين، فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثم صالحهم عن الْجَلَاءِ مِنَ الْمَدِينَةِ .

(١) - أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْفَارِسِيُّ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْفَضْلِ التَّاجِرُ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ الحافظ، أخبرنا مُحَمَّدُ بْنُ يحيى، أخبرنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ ابْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ كَتَبُوا بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ إِلَى الْيَهُودِ: إِنَّكُمْ أَهْلُ الْحَلْقَةِ وَالْحُصُونِ، وَإِنَّكُمْ لَتُقَاتِلُنَّ صَاحِبَنَا أَوْ لَنَفْعَلَنَّ كَذَا، وَلَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَدَمِ نِسَائِكُمْ - وَهِيَ الْخَلَاخِلُ - شَيْءٌ، فَلَمَّا بَلَغَ كِتَابُهُمُ الْيَهُودَ أَجْمَعَتْ بَنُو النَّضِيرِ على الغدر، وأرسلوا إلى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن اخرج إلينا في ثلاثين رجلا من أصحابك وَلْيَخْرُجْ مِنَّا ثَلَاثُونَ حَبْرًا حَتَّى نَلْتَقِيَ بِمَكَانٍ نَصَفٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ لِيَسْمَعُوا مِنْكَ، فَإِنْ صَدَّقُوكَ وَآمَنُوا بِكَ آمَنَّا بِكَ كُلُّنَا، فَخَرَجَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ ثَلَاثُونَ حَبْرًا مِنَ الْيَهُودِ، حَتَّى إِذَا بَرَزُوا فِي بِرَازٍ مِنَ الْأَرْضِ قَالَ بَعْضُ الْيَهُودِ لِبَعْضٍ: كَيْفَ تَخْلُصُونَ إِلَيْهِ وَمَعَهُ ثَلَاثُونَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ كُلُّهُمْ يُحِبُّ أَنْ يَمُوتَ قَبْلَهُ؟ فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ كَيْفَ نَفْهَمُ وَنَحْنُ سِتُّونَ رَجُلًا؟ اخْرُجْ فِي ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِكَ وَنُخْرِجُ إِلَيْكَ ثَلَاثَةً مِنْ عُلَمَائِنَا إِنْ آمَنُوا بِكَ آمَنَّا بِكَ كلنا وصدقناك. فخرج النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي ثَلَاثَةٍ

مِنْ أَصْحَابِهِ وَخَرَجَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْيَهُودِ وَاشْتَمَلُوا عَلَى الْخَنَاجِرِ وَأَرَادُوا الْفَتْكَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَرْسَلَتِ امْرَأَةٌ نَاصِحَةٌ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى أَخِيهَا وَهُوَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَخْبَرَتْهُ خَبَرَ مَا أَرَادَ بَنُو النضير من الْغَدْرَ برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فأقبل أخوها سريعًا حتى أدرك النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فساره بخبرهم،فرجع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَلَمَّا كَانَ من الغد عدا عَلَيْهِمْ بالكتائب فحاصرهم فقاتلهم حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الْجَلَاءِ عَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا أَقَلَّتِ الْإِبِلُ إِلَّا الْحَلْقَةَ وَهِيَ السِّلَاحُ، وَكَانُوا يُخَرِّبُونَ بُيُوتَهُمْ فَيَأْخُذُونَ مَا وَافَقَهُمْ مِنْ خَشَبِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} حَتَّى بَلَغَ {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

٢- قَوْلُهُ تَعَالَى: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ} الْآيَةَ {٥}.

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا نَزَلَ بِبَنِي النَّضِيرِ وَتَحَصَّنُوا فِي حُصُونِهِمْ أَمَرَ بِقَطْعِ نَخِيلِهِمْ وَإِحْرَاقِهَا، فَجَزِعَ أَعْدَاءُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ وَقَالُوا: زَعَمْتَ يَا مُحَمَّدُ أَنَّكَ تُرِيدُ الصَّلَاحَ، أَفَمِنَ الصَّلَاحِ عَقْرُ الشَّجَرِ الْمُثْمِرِ وَقَطْعُ النَّخِيلِ؟ وَهَلْ وَجَدْتَ فِيمَا زَعَمْتَ أَنَّهُ أُنْزِلَ عَلَيْكَ الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ؟ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَوَجَدَ الْمُسْلِمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ وَخَشُوا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فَسَادًا، وَاخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَقْطَعُوا فَإِنَّهُ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلِ اقْطَعُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ} الْآيَةَ. تَصْدِيقًا لِمَنْ نَهَى عَنْ قَطْعِهِ وَتَحْلِيلًا لِمَنْ قَطَعَهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّ قَطْعَهُ وَتَرْكَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى.

أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ، أَخْبَرَنَا عبد الله، أخبرنا سَلْمُ بن عصام أخبرنا رستة، أخبرنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن مهدي، أخبرنا مُحَمَّدُ بْنُ ميمون التمار، أخبرنا جُرْمُوزٌ عَنْ حَاتِمٍ النَّجَّارِ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ يَهُودِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: أَنَا أَقُومُ فَأُصَلِّي، قَالَ: "قَدَّرَ اللَّهُ لَكَ ذَلِكَ أَنْ تُصَلِّيَ"، قَالَ: أَنَا أَقْعُدُ،قَالَ: "قَدَّرَ اللَّهُ لَكَ أَنْ تَقْعُدَ"، قَالَ: أَنَا أَقُومُ إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ فأقطعها، قال: "قدر الله لَكَ أَنْ تَقْطَعَهَا"، قَالَ: فَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ لُقِّنْتَ حُجَّتَكَ كَمَا لُقِّنَهَا إِبْرَاهِيمُ على قومه، وأنزل اللَّهُ تَعَالَى: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} يَعْنِي الْيَهُودَ.

ثانياً: التفسير :

قوله{هُوَ الذى أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن ديارهم} بيانٌ لبعضِ آثارِ عزته تعالى وأحكامِ حكمتِه إثرَ وصفِه تعالى بالعزةِ القاهرةِ والحكمةِ الباهرةِ على الإطلاقِ والضميرُ راجعٌ إليه تعلى بذلك العنوانِ إما بناءً على كمالِ ظهورِ اتصافه تعالى بهما مع مساعدةٍ تامةٍ من المقامِ أو على جعلِه مُستعاراً لاسمِ الإشارةِ كما في قوله تعالى قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وأبصاركم وَخَتَمَ على قُلُوبِكُمْ مَّنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِهِ أي بذلك وعليهِ

وقوله تعالَى {لأَوَّلِ الحشر} أيْ في أولِ حشرِهم إلى الشام وكانوا من سبطٍ لم يصبهم جلاءٌ قط وهم أولُ من أخرجَ من جزيرةِ العربِ إلى الشامِ أو هذا أولُ حشرِهم وآخرُ حشرِهم إجلاء عمر رضي الله عنه أيَّاهم من خيبرَ إلى الشام وقيل آخر حشرهم

حشرُ يومِ القيامةِ لأنَّ المحشرَ يكونُ بالشامِ {مَا ظَنَنتُمْ} أيها المسلمون {أَن يَخْرُجُواْ} من ديارِهم بهذا الذلِّ والهوانِ لشدةِ بأسِهم وقوةِ منعتِهم {وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مّنَ الله} أيْ ظنواً أنَّ حصونهم تمنعهم أو ما نعتهم من بأس الله تعالى وتغييرُ النظم بتقديم الخبر وإسنادُ الجملةِ إلى ضميرِهم للدلالةِ على كمالِ وثوقِهم بحصانةِ حصونِهم واعتقادهم في أنفسهم أنهم في غرة ومنعةٍ لا يُبَالى معها بأحدٍ يتعرضُ لهم أو يطمعُ في مُعازّتِهم ويجوزُ أن يكون ما نعتهم خبراً لأنَّ وحصونُهم مرتفعاً على الفاعليةِ {فاتاهم الله} أي أمرُ الله تعالى وقدرُه المقدورُ لهم {مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ} ولم يخطرْ ببالِهم وهو قتلُ رئيسهم كعبِ بنِ الأشرفِ فإنه مما أضعفَ قوتَهُم وفلَّ شوكتَهم وسلب قلوبَهم الأمنَ والطمأنينة وقيل الضميرُ في أتاهُم ولم يحتسبوا للمؤمنينَ أى فأتاهم نصرُ الله وقُرِىءَ فتاهم أي فآتاهُم الله العذابَ أو النصرَ {وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرعب} أيْ أثبتَ فيها الخوفَ الذي يرعبُها أي يملؤُها {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ} ليسدُّوا بما نقضُوا منها من الخشبِ والحجارةِ أفواهَ الأزقةِ ولئلا يبقى بعد جلائهم مساكنُ للمسلمينَ ولينقلُوا معهم بعضَ آلاتِها المرغوبِ فيها مما يقبلُ النقلَ {وَأَيْدِى المؤمنين} حيثُ كانوا يخربونَها إزالةً لمتحصَّنِهم ومتمنعهم وتوسعا لمجالِ القتالِ ونكايةً لهمْ وإسناد هذا إليهم لما أنهمُ السببُ فيه فكأنَّهم كلَّفوهم إيَّاه وأمرُوهم به قيلَ الجملةُ حالٌ أو تفسيرٌ للرعبِ وقرئ يخَرِّبُونَ بالتشديدِ للتكثيرِ وقيلَ الأخراب التعطيلُ أو تركُ الشيءِ خراباً والتخريبُ النقض والهدم {فاعتبروا يا أولي الأبصار} فاتعظُوا بمَا جَرى عليهمْ من الأمورِ الهائلةِ على

وجهٍ لا يكادُ يهتدِي إليه الأفكارُ واتَّقوا مباشرةَ ما أدَّاهُم إليه منَ الكفرِ والمعاصي أو انْتَقَلُوا من حالِ الفريقينِ إلى حالِ أنفسِكم فلا تُعوّلوا على تعاضُدِ الأسبابِ بل توكَّلُوا على الله عزَّ وجلَّ وقدِ استدلَّ به على حجيةِ القياسِ كما فُصِّل في موقِعِه {وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ الله عَلَيْهِمُ الجلاء} أي الخروجَ عن أوطانِهم على ذلك الوجهِ الفظيعِ {لَعَذَّبَهُمْ فِى الدنيا} بالقتلِ والسَّبي كما فعلَ ببني قريظة {وَلَهُمْ فِى الأخرة عَذَابُ النار} استئنافٌ غيرُ متعلقٍ بجوابِ لولا جيءَ به لبيانِ أنَّهُم إنْ نجَوا من عذابِ الدُّنيا بكتابةِ الجلاءِ لأنجاه لهم منْ عذابِ الآخرةِ ذلك} أي ما حاقَ بهم وما سيحيقُ {بِأَنَّهُمْ} بسببِ أنهم {شَاقُّواْ الله وَرَسُولَهُ} وفعلُوا ما فعلُوا مما حُكي عنهُم من القبائحِ {وَمَن يُشَاقّ الله} وقرئ يشاققِ الله كما في الأنفالِ والاقتصارُ على ذكرِ مشاقَّتِهِ تعالى لتضمُّنِها لمشاقَّتِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وليوافقَ قولَه تعالى {فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب} وهو إمَّا نفسُ الجزاءِ قد حُذف منه العائدُ إلى مَنْ عندِ منْ يلتزمُهُ أي شديدُ العقابِ له أو تعليلٌ للجزاءِ المحذوفِ أي يعاقبْه الله فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب وأياما كانَ فالشرطيةُ تكملةٌ لما قبلها وتقريرٌ لمضمونِهِ وتحقيقٌ للسببيةِ بالطريقِ البرهانيِّ كأنه قيلَ ذلك الذي حاقَ بهم من العقابِ العاجلِ والآجلِ بسببِ مشاقّتِهم لله تعالى ورسولِهِ وكلُّ من يشاقَّ الله كائناً مَنْ كان فلهُ بسببِ ذلكَ عقابٌ شديدٌ فإذنْ لهم عقابٌ شديدٌ {مَا قَطَعْتُمْ مّن لّينَةٍ} أيْ أيُّ شيءٍ قطعتُمْ من نخلة وهى فعلى من اللَّوْنِ وياؤُهَا مقلوبةٌ من واوٍ لكسرةِ مَا قَبْلها كَدِيمةٍ وتجمعُ على ألوانٍ وقيلَ من اللينِ وتجمعُ على لِينٍ وهيَ النخلةُ الكريمةُ {أَوْ تَرَكْتُمُوهَا} الضميرُ لِمَا وتأنيثُهُ لتفسيرِهِ

باللينةِ كما في قولِهِ تعالى مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ يمسك لَهَا {قَائِمَةً على أُصُولِهَا} كما كانتْ منْ غيرِ أنْ تتعرضُوا لها بشيءٍ مَا وقرئ عَلى أُصُلِهَا إما على الاكتفاءِ من الواوِ بالضمِّ أو على أنَّه جمعُ كرُهُنٍ وقرئ قائماً على أصُولِهِ ذهاباً إلى لفظِ مَا {فَبِإِذْنِ الله} فذالكَ أي قطعُهَا وتركُهَا بأمرِ الله تعالى {وَلِيُخْزِيَ الفاسقين} أي وليذلَّ اليهودَ .

حكم الفيء :

ذكر حكم الفئ فى كتاب الله فى قوله تعالى{ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)}.

التفسير :

فقال: {وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ} أي: من أهل هذه القرية، وهم بنو النضير، {ف} إنكم يا معشر المسلمين {ما أَوْجَفْتُمْ} أي: ما أجلبتم وأسرعتم وحشدتم، {عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ} أي: لم تتعبوا بتحصيلها، لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل قذف الله في قلوبهم الرعب، فأتتكم صفوا عفوا، ولهذا. قال: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} من تمام قدرته أنه لا يمتنع منه ممتنع، ولا

يتعزز من دونه قوي. وتعريف الفيء في اصطلاح الفقهاء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق، من غير قتال، كهذا المال الذي فروا وتركوه خوفا من المسلمين، وسمي فيئا، لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقين له، إلى المسلمين الذين لهم الحق الأوفر فيه، وحكمه العام، كما ذكره الله في قوله {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} عموما، سواء أفاء الله في وقت رسوله أو بعده، لمن يتولى من بعده أمته ، {فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} وهذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال، في قوله: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} فهذا الفيء يقسم خمسة أقسام: خمس لله ولرسوله يصرف في مصالح المسلمين [العامة]،وخمس لذوي القربى، وهم: بنو هاشم وبنو المطلب، حيث كانوا يسوى[فيه] بين، ذكورهم وإناثهم، وإنما دخل بنو المطلب في خمس الخمس، مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعب، حين تعاقدت قريش على هجرهم وعداوتهم فنصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم، في بني عبد المطلب: "إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام" وخمس لفقراء اليتامى، وهم: من لا أب له ولم يبلغ، وخمس للمساكين، وسهم لأبناء السبيل، وهم الغرباء المنقطع بهم في غير أوطانهم وإنما قدر الله هذا التقدير، وحصر الفيء في هؤلاء المعينين لـ {كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً} أي: مداولة واختصاصا {بَيْنَ الأغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} فإنه لو لم يقدره، لتداولته الأغنياء الأقوياء، ولما

حصل لغيرهم من العاجزين منه شيء، وفي ذلك من الفساد، ما لا يعلمه إلا الله، كما أن في اتباع أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية والأصل العام، فقال: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله، ثم أمر بتقواه التي بها عمارة القلوب والأرواح [والدنيا والآخرة] ، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم، وبإضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فقال: {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} على من ترك التقوى، وآثر اتباع الهوى.

الأحاديث الواردة فى الغزوة :

١- أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمُزَكِّي، أَخْبَرَنَا وَالِدِي، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بن إسحاق الثقفي،أخبرنا قتيبة، أخبرنا اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَرَقَ نَخْلَ النَّضِيرِ وَقَطَعَ وَهِيَ الْبُوَيْرَةُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}.

٢- عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَطَعَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَحَرَقَ وَهِيَ البويرة ولها بقول حَسَّانُ: وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ وفيهَا نَزَلَتِ الْآيَةُ: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا}.

٣- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا} [الحشر: ٥]قَالَ: «اللِّينَةُ النَّخْلَةُ»، وَلِيُخْزِيَ الفَاسِقِينَ قَالَ: «اسْتَنْزَلُوهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ»، قَالَ: "أُمِرُوا بِقَطْعِ النَّخْلِ فَحَكَّ فِي صُدُورِهِمْ. فَقَالَ المُسْلِمُونَ: قَدْ قَطَعْنَا بَعْضًا وَتَرَكْنَا بَعْضًا، فَلَنَسْأَلَنَّ رَسُولَ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-هَلْ لَنَا فِيمَا قَطَعْنَا مِنْ أَجْرٍ؟ وَهَلْ عَلَيْنَا فِيمَا تَرَكْنَا مِنْ وِزْرٍ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا} [الحشر: ٥] «الآيَةَ.

ثالثاً: الدروس المستفادة من الغزوة :

تحدث القرآن الكريم عن غزوة بني النضير في سورة كاملة وهي سورة الحشر، وقد سمى حبر الأمة عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- سورة الحشر بسورة بني النضير، ففي البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الحشر، قال: سورة بني النضير.

١- الثناء على الله وتمجيده: ابتدأت السورة بالثناء على الله، وأن الكون كله بجميع ما فيه من مخلوقات من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، ينزه الله ويمجده

ويشهد بوحدانيته وقدرته وجلاله، وناطق بعظمته وسلطانه ،قال تعالى: (سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

٢- الرعب جند من جند الله: قال تعالى:(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأبْصَارِ - وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) .

إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة يتبين له أن الله هو الذي أخرج يهود بني النضير من ديارهم إلى الشام، حيث أول الحشر في حين أن كل الأسباب المادية معهم حتى اعتقدوا أنه لا أحد يستطيع أن يخرجهم من حصونهم لمتانتها وقوتها،لكن الله فاجأهم من حيث لم يحتسبوا، جاءهم من قلوبهم التي لم يتوقعوا أنهم يهزمون بها، فقذف فيها الرعب فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وهذا الأسلوب القرآني الفريد يربي الأمة بالأحداث والوقائع.

٣- تخريب ممتلكات الأعداء:لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه وحاصر بني النضير تحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه:يا محمد،قد كنت تنهى عن الفساد

وتعيبه على من صنعه،فما بال قطع النخل وتحريقها؟ ،فأنزل الله عز وجل: (مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ).

٤- تطوير السياسة المالية للدولة الإسلامية: بيَّن سبحانه وتعالى حكم الأموال التي أخذها المسلمون من بني النضيرفقال تعالى: (وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ،مبيناً أن هذه الأموال مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون ،بخيل ولا ركاب ،فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة،فكان ينفق على أهله نفقة سنة،وما بقي يجعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله.

٥- ذكر المولى عز وجل أحكام الفيء :فى مال بني النضير كان فيئاً خاصاً برسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-،وأن الفيء وهو ما حصل عليه المسلمون بدون قتال وإنما بفرار العدو وتركه أو بصلح يتم بينه وبين المسلمين هذا الفيء يقسم على ما ذكر تعالى في هذه الآية (مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) ،وأما الغنائم وهي ما أخذت عنوة بالقوة وسافر إليها المسلمون فإنها تخمس خمس لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل يوزع بينهم بالسوية،والأربعة الأخماس الباقية تقسم على المجاهدين الذين شاركوا بالمعارك وخاضوها للراجل قسم وللفارس قسمان.

٦- بيان فضل المهاجرين:بينت الآيات الكريمة في سورة الحشر فضل المهاجرين على غيرهم،فهم لهم الدرجة الأولى،فقد اشتملت الآيات على أوصافهم الجميلة،وشهد الله لهم بالصدق،قال تعالى: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ).

٧- بيان فضل الأنصار: فقد وضحت الآيات فضل الأنصار،وقد وصفهم الله بهذه الصفات، قال تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

٨- فضل التابعين لهم بإحسان: وهم المتتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة،الداعون في السر والعلانية لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان ،قال تعالى:(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) ،وهكذا تحدثت السورة الكريمة عن صور مشرقة للمهاجرين، والأنصار، والتابعين لهم بإحسان.

٩- موقف المنافقين في المدينة:بينت الآيات الكريمة حالة المنافقين، ووضحت موقفهم وتحالفهم مع إخوانهم من اليهود،وكشفت أيضا موقفهم من المسلمين،وموقف اليهود ونفسياتهم ،قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ

لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ).

١٠- تحريم الخمر: حرمت الخمر ليالي حصار بني النضير ،في ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة ،وقد خضع تحريم الخمر لسنة التدرج، وكان ذلك التحريم على مراحل معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي، حتى نزلت الآيات الحاسمة في النهي عنها من سورة المائدة، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) ،قال المؤمنون في قوة وتصميم: قد انتهينا يا رب .

١١- لا يحيق المكر السيّئ إلا بأهله: كان مكر اليهود، وتآمرهم على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والدولة الإسلامية في غاية الخسة والوضاعة،وكانوا يريدون من مكرهم وغدرهم عزة ورفعة ومجدًا، وغلبة، لكن الله سخر منهم،ونجى رسوله والمسلمين من مكرهم وأذلهم وأخزاهم،فزال مجدهم،وكسر غلبتهم،وخرب بيوتهم،ورحلهم عن ديارهم، ولم يكلف ذلك المسلمين اصطدامًا مسلحًا، ولا قتالاً ضاريًا، ولكن الله قذف في قلوبهم الرعب والفزع، فطلبوا النجاة بأرواحهم في ذلة وخزي،مخلفين وراءهم ثروة وملكًا،حازه المسلمون غنيمة باردة، وقد قال تعالى فى شأنهم:(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ

يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأبْصَارِ).

عن "غزوة الأحزاب"أو "الخندق"

تسمى أيضاً بغزوة (الخندق)،وقد ذهب جمهور أهل السير والمغازي أنها وقعت في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة،"وسببها"أنه لما تم إجلاء بني النضير،قدم عدد من حلفائهم، إلى مكة يدعون قريشا ويحرضونها على قتال الرسول،فأجابت قريش لذلك، ثم ذهب رؤساء اليهود إلى غطفان،فاستجابت لهم بنو فزارة وبنو مرة، وأشجع واتجهوا نحو المدينة، فلما سمع صلى الله عليه وسلم بخروجهم، استشار أصحابه فأشار عليه سلمان بحفر خندق حول المدينة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفره وعمل فيه بنفسه، ولما وصلت قريش ومن معها من الأحزاب راعها ما رأت من أمر الخندق، إذ لا عهد للعرب بمثله، وكانت عدتهم عشرة آلاف، وعدة المسلمين ثلاثة آلاف، وكان حُيي بن أخطب أحد اليهود الذين هيجوا قريشا والأحزاب ضد المسلمين، وقد ذهب إلى كعب بن أسد سيد بني قريظة يطلب إليه نقض عهد السلم بينه وبين المسلمين، وفكر النبي صلى الله عليه وسلم في مصالحة بني قريظة على ثلث ثمار المدينة، ولكن الأنصار رفضوا اعتزازا بدينهم من أن يعطوا الدنية لهؤلاء الخائنين للعهود والمواثيق، وبدأ القتال باقتحام بعض فرسان المشركين للخندق من إحدى نواحيه الضيقة،فناوشهم المسلمون وقاتلوهم،

ثم جاء نعيم بن مسعود ابن عامر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فأخبره أنه قد أسلم، وأن قومه لا يعلمون بإسلامه، وأنه صديق لبني قريظة يأتمنونه ويثقون به، وقال للرسول: «مرني بما شئت» فقال له الرسول: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخَذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة» فاستعمل نعيم دهاءه حتى فرق بين قريش وحلفائها، وبين بني قريظة، وأوقع في نفوس كل من الفريقين الشك في الآخر، وأرسل الله على الأحزاب ريحا شديدة في ليلة شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفئ قدورهم وتمزق خيامهم، فامتلأت نفوس الأحزاب بالرعب ورحلوا في تلك الليلة، فلما أصبح الصباح نظر المسلمون فلم يروا أحدا ، وفي هذه الغزوة أنزل الله تعالى في كتابه الكريم وسنتة المطهرة ما يلى :

قوله تعالى{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ

وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَ،أى : تَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)}

أولاً سبب النزول :

١- قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ} الْآيَةَ {٩}.

رَوَى جَعْفَرُ بْنُ بُرْقَانَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ الْأَصَمِّ: أَنَّ الْأَنْصَارَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَرْضَ نِصْفَيْنِ، قَالَ: "لَا، ولكنهم يكفونكم المؤونة وَتُقَاسِمُونَهُمُ الثَّمَرَةَ وَالْأَرْضُ أَرْضُكُمْ"، قَالُوا: رَضِينَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ}.

٢- قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} {٩}.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دَفَعَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنَ أَهْلِ الصُّفَّةِ، فَذَهَبَ بِهِ الْأَنْصَارِيُّ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: هَلْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَةِ، قَالَ: فَنَوِّمِيهِمْ فَإِذَا نَامُوا فَأْتِينِي بِهِ، فإذا وضعت فأطفئ السِّرَاجَ، قَالَ: فَفَعَلَتْ وَجَعَلَ الْأَنْصَارِيُّ يُقَدِّمُ إِلَى ضَيْفِهِ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ غَدَا بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: "لَقَدْ عَجِبَ مِنْ فِعَالِكُمَا أَهْلُ السَّمَاءِ"وَنَزَلَتْ: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

٣- ذَلِكَ يَوْمُ الْخَنْدَقِ، جَاءَتْ قُرَيْشٌ مِنْ ها هنا واليهود من ها هنا والنجدية من ها هنا. يُرِيدُ مَالِكٌ: إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ فَوْقِهِمْ بَنُو قُرَيْظَةَ، وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ. وَكَانَ سَبَبُهَا: أَنَّ نَفَرًا مِنَ الْيَهُودِ مِنْهُمْ كِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ وَسَلَّامُ بن أبي الحقيق وسلام ابن مِشْكَمٍ وَحُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ النَّضْرِيُّونَ وَهَوْذَةُ بْنُ قَيْسٍ وَأَبُو عَمَّارٍ مِنْ بَنِي وَائِلٍ، وَهُمْ كُلُّهُمْ يَهُودُ، هُمُ الَّذِينَ حَزَّبُوا الْأَحْزَابَ وَأَلَّبُوا وَجَمَعُوا، خَرَجُوا فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ وَنَفَرٍ مِنْ بَنِي وَائِلٍ فَأَتَوْا مَكَّةَ فَدَعَوْا إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَوَاعَدُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ بِعَوْنِ مَنِ انْتَدَبَ إِلَى ذَلِكَ، فَأَجَابَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ إِلَى ذَلِكَ، ثُمَّ خَرَجَ الْيَهُودُ الْمَذْكُورُونَ إِلَى غَطَفَانَ فَدَعَوْهُمْ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ فَأَجَابُوهُمْ، فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ يَقُودُهُمْ أَبُو سُفْيَانُ بْنُ حَرْبٍ، وَخَرَجَتْ غَطَفَانُ وَقَائِدُهُمْ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ الْفَزَارِيُّ عَلَى فَزَارَةَ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ الْمُرِّيُّ عَلَى بَنِي مُرَّةَ، وَمَسْعُودُ بْنُ رُخَيْلَةَ عَلَى أَشْجَعَ. فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاجْتِمَاعِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ شَاوَرَ أَصْحَابَهُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ سَلْمَانُ بِحَفْرِ

الْخَنْدَقِ فَرَضِيَ رَ،أى : هُ. وَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ يَوْمَئِذٍ: سَلْمَانُ مِنَّا. وَقَالَ الْأَنْصَارُ: سَلْمَانُ مِنَّا! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ). وَكَانَ الْخَنْدَقُ أَوَّلَ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ سَلْمَانُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ حُرٌّ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا بِفَارِسَ إِذَا حُوصِرْنَا خَنْدَقْنَا، فَعَمِلَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْخَنْدَقِ مُجْتَهِدِينَ،وَنَكَصَ الْمُنَافِقُونَ وَجَعَلُوا يَتَسَلَّلُونَ لِوَاذًا .فَنَزَلَتْ فِيهِمْ الأياتٌ.

٤- أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل من طريق كثير بن عبد الله ابن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال خط رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق عام الأحزاب فأخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم المعول فضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتي المدينة فكبر وكبر المسلمون ثم ضرب الثانية فصدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها فكبر وكبر المسلمون ثم ضربها الثالثة فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لابيتها فكبر وكبر المسلمون فسئل عن ذلك فقال ضربت الأولي فأضاءت لي قصور الحيرة ومدائن كسرى وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ثم ضربت الثانية فأضاءت لي قصور الحمر من أرض الروم وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ثم ضربت الثالثة فأضاءت لي قصور صنعاء وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فقال المنافقون ألا تعجبون يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من

الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزل القرآن وإن يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض وما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا".

٥- قوله تعالى{كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}.

أخبرنا عمرو بن علي قال حدثنا يحيى قال حدثنا ابن أبي ذئب قال حدثنا سعيد بن أبي سعيد عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه شغلنا المشركون يوم الخندق عن صلاة الظهر حتى غربت الشمس وذلك قبل أن ينزل في القتال ما نزل الله عز وجل {كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} فأمر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بلالا فأقام لصلاة الظهر فصلاها كما كان يصليها لوقتها، ثم أقام للعصر فصلاها كما كان يصليها في وقتها ثم أذن المغرب فصلاها كما كان يصليها في وقتها.

ثانياً التفسير :

قوله تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ} الأيات هذه قصة غزوة الخندق أو الأحزاب قصها تبارك وتعالى على المؤمنين في معرض التذكير بنعمه تعالى عليهم ليشكروا بالانقياد والطاعة لله ورسوله وقبول كل ما يشرع لهم لإكمالهم وإسعادهم في الحياتين فقال تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} ،أى:يا من آمنتم بالله ربا وإلهاً وبمحمد نبياً ورسولاً وبالإسلام دينياً وشرعاً {اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ} المتمثلة في دفع أكبر خطر قد حاق بكم وهو اجتماع جيوش عدة على غزوكم في عقر داركم وهم جيوش قريش وأسد وغطفان وبنو قريظة من اليهود ألبهم عليهم

وحزّب أحزابهم حيي بن أخطب النضري يريد الانتقام من الرسول والمؤمنين إذ أجلوهم عن المدينة وأخرجوهم منها فالتحقوا بيهود خيبر وتيما، ولما بلغ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبرهم أمر بحفر الخندق تحت سفح جبل سلع غربي المدينة، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه إذ كانت له خبرة حربية علمها من ديار قومه فارس.

وتم حفر الخندق في خلال شهر من الزمن وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعطي لكل عشرة أنفار أربعين ذراعاً ،أى : عشرين متراً، وما إن فرغوا من حفره حتى نزلت جيوش المشركين وكانوا قرابة اثني عشر ألفاً ولما رأوا الرسول والمسلمين وراء الخندق تحت جبل سلع قالوا هذه مكيدة لم تكن العرب تعرفها فتناوشوا بالنبال ورمى عمرو عبد ود القرشي بفرسه في الخندق فقتله علي رضي الله عنه ودام الحصار والمناوشة وكانت ال،أى : ام والليالي باردة والمجاعة ضاربة أطنابها قرابة الشهر. وتفصيل الأحداث للقصة فيما ذكره تعالى فيما يلي:

فقوله تعالى {إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ} هي جنود المشركين من قريش ومن بني أسد وغطفان {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا} لما جاءتكم جنود المشركين وحاصروكم في سفح السلع أرسلنا عليهم ريحاً وهي ريح الصبا المباركة التي قال فيها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وهي الريح الغربية. وفعلت بهم الصبا الأفاعيل حيث لم تبق لهم ناراً إلا أطفأتها ولا قدراً على الأثافي إلا أراقته، ولا خيمة ولا فسطاطاً إلا أسقطته وأزالته حتى اضطروا إلى

الرحيل وقوله {وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا} وهم الملائكة فأصابتهم بالفزع والرعب الأمر الذي أفقدهم كل رشدهم وصوابهم ورجعوا يجرون أذيال الخيبة والحمد لله وقوله تعالى {وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً} ،أى : بكل أعمالكم من حفر الخندق والمشادات والمناورات وما قاله وعمله المنافقون لم يغب عليه تعالى شيء وسيجزيكم به المحسن بالإحسان والمسيء بالإساءة،وقوله تعالى: {إِذْ جَاءُوكُمْ}،أى:المشركون {مِنْ فَوْقِكُمْ} ،أى : من الشرق وهم غطفان بقيادة عيينة بن حصن وأسد {وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} وهم قريش وكنانة ،أى:من الجنوب الغربي وهذا تحديد لساحة المعركة، وقوله {وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ} ،أى:مالت عن كل شيء فلم تبق تنظر إلا إلى القوات الغازية من شدة الخوف،{وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ}،أى:ارتفعت بارتفاع الرئتين فبلغت منتهى الحلقوم،وقوله{وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَ} المختلفة من نصر وهزيمة وسلامة وعطب، وهذا تصوير للحال أبدع تصوير وهو كما ذكر تعالى حرفيّا. وقوله تعالى {هُنَالِكَ} ،أى : في ذلك المكان والزمان الذي حدق العدو بكم {ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ} ،أى : اختبرهم ربهم ليرى الثابت على ،أى : مانه الذي لا تزعزعه الشدائد والفتن من السريع الانهزام والتحول لضعف عقيدته وقلة عزمه وصبره. وقوله تعالى {وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً} ،أى : أُزعجوا وحرّكوا حراكا شديداً لعوامل قوة العدو وكثرة جنوده،وضعف المؤمنين وقلة عددهم،وعامل المجاعة والحصار، والبرد الشديد وما أظهره المنافقون من تخاذل وما كشفت عنه الحال من نقض بني قريظة عهدهم

وانضمامهم إلى الأحزاب وقوله تعالى: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُون وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}،أى:النفاق لضعف ،أى : مانهم.

{مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ} ،أى : من النصر {إِلَّا غُرُوراً} ،أى : باطلا: وذلك أنهم لما كانوا يحفرون الخندق واستعصت عليهم صخرة فأبت أن تنكسر فدعي لها الرسول صلى لله عليه وسلم فضربها بالمعول ضربة تصدعت لها وبرق منها بريقٌ أضاء الساحة كلها فكبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكبر المسلمون، ثم ضربها ثانية فصدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتي المدينة فكبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكبير الفتح وكبر المسلمون وضرب ثالثة فكسرها وبرقت لها برقة كسابقتيها وكبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكبر المسلمون ثم أخذ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيد سلمان فرقى من الخندق فقال سلمان بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأى : ت شيئاً ما رأته قط فالتفت رسول الله إلى القوم فقال هل رأى : تم ما رأى سلمان؟ قالوا نعم يا رسول الله فأعلمهم أنه على ضوء ذلك البريق رأى قصور مدائن كسرى كأنياب الكلاب وإن جبريل أخبرني أن أمتي ظاهرة عليها كما رأيت في الضربة الثانية القصور الحمراء من أرض الروم وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ورأيت في الثالثة قصور صنعاء وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا أبشروا أبشروا فاستبشر المسلمون وقالوا الحمد لله موعود صدق. فلما طال الحصار واشتدت الأزمة واستبد الخوف بالرجال قال المنافقون وضعفاء الأيمان {مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً} إذ قال معتب بن قشير يعدنا محمد بفتح فارس

والروم وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً وخوفاً ما هذا الوعد إلا وعد غرور!! وقوله {وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ} ،أى :من المنافقين؛ وهو أُويس بن قيظي أحد رؤساء المنافقين {يَا أَهْلَ يَثْرِبَ }،أى:المدينة قبل أن يبطل الرسول هذا الاسم لها ويسميها بالمدينة {لا مُقَامَ لَكُمْ}،أى:في سفح سلع عند الخندق {فَارْجِعُوا} إلى منازلكم داخل المدينة بحجة أنه لا فائدة في البقاء هنا دون قتال، وما قال ذلك إلا فراراً من القتال وهروباً من المواجهة، وقوله تعالى {وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ}،أى:يطلبون الإذن بالعودة إلى منازلهم بالمدينة بدعوى أن بيوتهم عورة،أى:مكشوفة أمام العدو وهم لا يأمنون عليها

وأكذبهم الله تعالى في قولهم فقال {وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً} ،أى : ما يريدون بهذا الاعتذار إلا الفرار من وجه العدو، وقال تعالى فيهم ومن أصدق من الله قيلاً: {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ} المدينة {مِنْ أَقْطَارِهَا} ،أى:من جميع نواحيها من شرق وغرب وشمال وجنوب،{ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ} ،أى: طلب منهم العدو الغازي الذي حل عليهم المدينة الردة ،أى :العودة إلى الشرك {لَآتَوْهَا} أعطوها فوراً {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرا}،حتى يرتدوا عن الإسلام ويصبحوا كما كانوا مشركين والعياذ بالله من النفاق والمنافقين.

قوله تعالى{ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا

يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً (٢١)}

التفسير :

ما زال السياق الكريم في عرض أحداث غزوة الأحزاب فقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ} ،أى :لقد عاهد أولئك المنافقون الله من قبل غزوة الأحزاب وذلك يوم فروا من غزوة أحد إذ كانت قبل غزوة الأحزاب بقرابة السنتين فقالوا والله لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن ولا نوليّ الأدبار، فذكرهم الله بعهدهم الذي قطعوه على أنفسهم ثم نكثوه، {وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولاً } ،أى : يسأل عنه صاحبه ويؤاخذ به. وقوله تعالى: {قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ} ،أى:قل لهم يا رسولنا إنه لن ينفعكم الفرار ،أى : الهروب من الموت أو القتل لأن الآجال محددة ومن لم يمت بالسيف مات بغيره فلا معنى للفرار من القتال إذا وجب وقوله {وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً}،أى : وإذا فررتم من القتال فإنكم

لا تمتعون بالحياة إلا قليلا من الزمن ثم تموتون عند نهاية أعماركم وهي فترة قليلة، فالفرار لا يطيل أعماركم والقتال لا ينقصها، وقوله تعالى {قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً} ،أى:قل لهم يا رسولنا تبكيتاً لهم وتأنيباً وتعليما ،أيضا: من ذا الذي يعصمكم ،أى:يجيركم ويحفظكم من الله {إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً} ،أى:ما يسوءكم من بلاء وقتل ونحوه {أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً} ،أى : سلامة وخيراً فليس هناك من يحول دون وصول ذلك إليكم لأن الله تعالى يجير ولا يجار عليه، وقوله تعالى {وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً (١) } ،أى:ولا يجد المخالفون لأمر الله العصاة له ولرسوله من دون الله ولياً يتولاهم فيدفع عنهم ما أراد الله بهم من سوء، ولا نصيراً ينصرهم إذا أراد الله إذلالهم وخذلانهم لسوء أفعالهم، وقوله تعالى في الأية (١٨) في هذا السياق {قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ} أخبرهم تعالى بأنه قد علم المعوقين ،أى : المثبطين عن القتال والمخذلين بما يقولونه سراً في صفوف المؤمنين كالطابور الخامس في الحروب وهم أناس يذكرون في الخفاء عظمة العدو وقوته ويرهبون منه ويخذلون عن قتاله. وقوله {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} ،أى : تعالوا إلينا إلى المدينة واتركوا محمداً وأصحابه يموتون وحدهم فإنهم لا يزيدون عن أكلة جزور، وقوله {وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً} ،أى : لا يشهد القتال ويحضره أولئك المنافقون المثبطون والذين قالوا إن بيوتنا عورة إلا قليلاً إذ يتخلفون في أكثر الغزوات وإن حضروا مرة قتالاً فإنما هم يدفعون به معرة التخلف ودفعا لتهمة النفاق التي لصقت بهم.

وقوله تعالى {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ} وصفهم بالبخل بعد وصفهم بالجبن وهما شر صفات المرء الجبن والبخل أشحة عليكم ،أى : بخلاء لا ينفقون معكم ولا على الجهاد ولا على الفقراء والمحتاجين وقوله تعالى {فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ} ،أى : بسبب هجوم العدو {رَأَيتَهُمْ} ،أيها الرسول {يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ} لائذين بك {تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ} من الخوف {كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} وهو المحتضر يغمى عليه لما يعاني من سكرات الموت وهذا تصوير هائل لمدى ما عليه المنافقون من الجبن والخوف وعلة هذا هو الكفر وعدم الأيمان بالقدر والبعث والجزاء.

وقوله {فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ} ،أي:راحت أسبابه بانتهاء الحرب {سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ} ،أى : سلقكم أولئك الجبناء عند اللقاء ،أى :ضربوكم بألسنة ذربة حادة كالحديد بالمطالبة بالغنيمة أو بالتبجح الكاذب بأنهم فعلوا وفعلوا. وهذا حالهم إلى اليوم .

وقوله {أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ} ،أى : بخلاء على مشاريع الخير وما ينفق في سبيل الله فلا ينفقون لأنهم لا يؤمنون بالخلف ولا بالثواب والأجر وذلك لكفرهم بالله ولقائه. ولذا قال تعالى {أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواً } فسجل عليهم وصف الكفر ورتب عليه نتائجه وقوله {فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ} ،أى:أبطلها فلا يثابون عليها لأنها أعمال مشرك وأعمال المشرك باطلة، وقوله {وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرا}،أى:إبطال أعمالهم وتخييبهم فيها وحرمانهم من جزائها يسير على الله ليس بالعسير. ولذ هو واقع كما أخبر تعالى.

ما زال السياق في سرد أحداث غزوة الأحزاب فقوله تعالى {يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا} ،أى : يحسب أولئك المنافقون الجبناء الذين قالوا إن بيوتنا عورة وقالوا

لإخوانهم هلم إلينا ،أى :اتركوا محمداً في الواجهة وحده إنهم لجبنهم ظنوا أن الأحزاب لم يعودوا إلى بلادهم مع أنهم قد رحلوا وهذا منتهى الجبن والخوف وقوله تعالى {وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ} ،أى:مرة أخرى على فرض وتقدير {يَوَدُّوا} يومئذ {لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ}،أى :خارج المدينة لشدة خوفهم من الأحزاب الغزاة، وقوله تعالى {يَسْأَلونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ }،أى : أخباركم هل ظفر بكم الأحزاب أو لا، {وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ} ،أى : بينكم ولم يكونوا في البادية {مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً} وذلك لجبنهم وعدم ،أى : مانهم بفائدة القتال لكفرهم بلقاء الله تعالى وما عنده من ثواب وعقاب هذا ما تضمنته الآية الأولى (٢٠)

وقوله تعالى في الآية الثانية{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً} ،أى:لقد كان لكم،أيها المسلمون ،أى:من مؤمنين صادقين ومنافقين كاذبين في رسول الله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوة حسنة،أى:قدوة صالحة فاقتدوا به في جهاده وصبره وثباته، فقد جاع حتى شد بطنه بعصابة وقاتل حتى شج وجهه وكسرت رباعيته ومات عمه وحفر الخندق بيديه وثبت في سفح سلع أمام العدو قرابة شهر فأتسوا به في الصبر والجهاد والثبات إن كنتم ترجون الله ،أى:تنظرون ما عنده من خير في مستقبل،أيامكم في الدنيا والآخرة وترجون اليوم الآخر،أي:ترتقبونه وما فيه من سعادة وشقاء، ونعيم مقيم أو جحيم وعذاب أليم. وتذكرون الله تعالى كثيرا في كل حالاتكم وأوقاتكم، فاقتدوا بنبيكم فإن الاقتداء به واجب لا يسقط إلا عن عجز.

- موقف المؤمنين :

ثم تحدثت السورة عن موقف المؤمنين فى غزوة الأحزاب فى قوله تعالى{ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا أيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤)}

التفسير :

قوله تعالى{وَلَمَّا رَأى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ}،أى:لما رأى المؤمنون الصادقون جيوش الأحزاب وقد أحاطب بهم {قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ} بخلاف ما قاله المنافقون حيث قالوا {مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً} وقوله {وَمَا زَادَهُمْ}،أى :رؤيتهم للأحزاب على كثرتهم {إِلَّا أيمَاناً} بصادق وعد الله {وَتَسْلِيماً} لقضائه وحكمه،وهذا ثناء عطر على المؤمنين الصادقين من ربهم عز وجل. وقوله تعالى {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ} هذا ثناء آخر على بعض المؤمنين الذين لما تخلفوا عن بدر فتأسفوا ولما حصل انهزام لهم في أحد عاهدوا الله لئن أشهدهم الله قتالا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليقاتلن حتى الاستشهاد فأخبر تعالى عنهم بقوله فمنهم من قضى نحبه ،أى :وفى بنذره فقاتل حتى استشهد ومنهم من ينتظر القتل في سبيل الله، وقوله تعالى {وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً } أدنى تبديل في موقفهم فثبتوا على عهدهم بخلاف المعوقين من المنافقين فإنهم

بدلوا وغيروا ما عاهدوا الله عليه وقوله تعالى {لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ} ،أى:أجرى تعالى تلك الأحداث فكانت كما قدرها في كتاب المقادير،ليجزي الصادقين بصدقهم فيكرمهم وينعمهم في جواره ويعذب المنافقين بناره إن شاء ذلك فيميتهم قبل توبتهم، أو يتوب عليهم فيؤمنوا ويوحدوا ويدخلوا الجنة مع المؤمنين الصادقين وهو معنى قوله {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ} ذلك لهم قضاء وقدراً أو يتوب عليهم فيتوبوا فلا يعذبوا، وقوله {إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً} إخبار منه تعالى عن نفسه بأنه كان ذا ستر على ذنوب التائبين من عباده رحيما بهم فلا يعاقبهم بعد توبتهم.

- نصر الله المبتلى في الغزوة

ورد نصرهم في قوله تعالى{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)}

وهم قريش وكنانة وأسد وغطفان ردهم بغيظهم،،أى:بكربهم وغمهم حيث لم يظفروا بالرسول والمؤمنين ولم يحققوا شيئاً مما أمّلوا تحقيقه، وكفى الله المؤمنين القتال حيث سلط على الأحزاب الريح والملائكة فانهزموا وفروا عائدين إلى ديارهم لم ينالوا خيراً،وكان الله قوياً على ،أى:جاد ما يريد،أى:جاده عزيزاً ،أى:غالباً على أمره لا يمتنع منه شيء أراده.

ثالثاً: الأحاديث الواردة في الغزوة

ورد في السنة النبوية العطرة ذكر عدد من الأحاديث التى تكلمت عن أحداث غزوة الأحزاب وهى :

١- حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَ،أى : تُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَ،أى : تُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ».

٢- عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الأَحْزَابِ عَلَى المُشْرِكِينَ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ،سَرِيعَ الحِسَابِ،اللَّهُمَّ اهْزِمِ الأَحْزَابَ،اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ».

٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ:«لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلاَ شَيْءَ بَعْدَهُ».

٤- عَنْ سَهْلٍ، قَالَ: جَاءَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَحْفِرُ الخَنْدَقَ، وَنَنْقُلُ التُّرَابَ عَلَى أَكْتَادِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَهْ،فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ».

٥- حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ،عَنْ حُمَيْدٍ،سَمِعْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الخَنْدَقِ،فَإِذَا المُهَاجِرُونَ، وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَلَمَّا [ص:١٠٨]رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالجُوعِ، قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ» فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ: نحن الَّذِينَ بَايعُوا مُحَمَّدَا ... عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا.

٦- عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الخَنْدَقِ،وَوَضَعَ السِّلاَحَ وَاغْتَسَلَ، أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَقَالَ: " قَدْ وَضَعْتَ

السِّلاَحَ؟ وَاللَّهِ مَا وَضَعْنَاهُ، فَاخْرُجْ إِلَيْهِمْ قَالَ: فَإِلَى ،أينَ؟ قَالَ: هَا هُنَا، وَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ ".

الدروس المستفادة من الغزوة :

تمثلت الدروس والعبر المستفادة من الغزوة في عدة نقاط وهى كالتالي:

أولاً: المعجزات الحسية لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

ظهرت خلال مرحلة حفر الخندق معجزات حسية للنبي صلى الله عليه وسلم، منها تكثير الطعام الذي أعده جابر بن عبد الله، فعن جابر بن عبد الله-رضي الله عنه- قال:إنا يوم الخندق مُحفِّر ،فعرضت كدية شديدة، فجاءوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل» ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول، فضرب في الكدية فعاد كثيبًا أهيل ،أو أهيم ،قال جابر: فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم شيئًا ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق ، فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبرمة ، ثم جئت النبي صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي ،قد كادت أن تنضج، فقلت: طُعَيمٌ لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان،قال: «كم هو؟» فذكرت له، فقال «كثير طيب» ، قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي. فقال: «قوموا»، فقام

المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحكِ جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال «ادخلوا ولا تضاغطوا» فجعل يكثر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: «كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة».

ثالثًا: سلمان منا أهل البيت :

قال المهاجرون يوم الخندق: سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سلمان منا أهل البيت ، وهذا الوسام النبوي الخالد لسلمان يشعر بأن سلمان من المهاجرين؛ لأن أهل البيت من المهاجرين .

رابعًا: الصلاة الوسطى:

قال صلى الله عليه وسلم: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارًا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس»،على كون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، كما هو منصوص عليه.

خامساً: شجاعة صفية عمة الرسول صلى الله عليه وسلم:

كان صلى الله عليه وسلم قد وضع النساء والأطفال في حصن فارع وهو حصن قوي، حماية لهم؛ لأن المسلمين في شغل عن حمايتهم لمواجهتهم جيوش الأحزاب، فعندما نقض يهود بني قريظة عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلت

يهوديًّا ليستطلع وضع الحصن الذي فيه نساء المسلمين وأطفالهم، فأبصرته صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت عمودًا ونزلت من الحصن فضربته بالعمود فقتلته،فكان هذا الفعل من صفية رادعًا لليهود من التحرش بهذا الحصن الذي ليس فيه إلا النساء والأطفال، حيث ظنت يهود بني قريظة أنه محمي من قبل الجيش الإسلامي،أو أن فيه على الأقل من يدافع عنه من الرجال ففي هذا الخبر دليل للمرأة في الدفاع عن نفسها إن لم تجد من يدافع عنها.

سادساً: أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أول مستشفى إسلامي حربي في غزوة الأحزاب، فقد ضرب الرسول صلوات الله وسلامه عليه خيمة في مسجده الشريف في المدينة، عندما دارت رحى غزوة الأحزاب، فأمر صلى الله عليه وسلم أن تكون رفيدة الأسلمية الأنصارية رئيسة ذلك المستشفى النبوي الحربي، وبذلك أصبحت أول ممرضة عسكرية في الإسلام ، وجاء في السيرة النبوية لابن هشام: ... وكان صلى الله عليه وسلم قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رفيدة، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من به ضيعة من المسلمين، وكان صلى الله عليه وسلم قد قال لقومه حين أصاب سعد بن معاذ السهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة، حتى أعوده من قريب».

سابعاً: توزيع غنائم بني قريظة وإسلام ريحانة بنت عمرو:

جمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم التي خلفها بنو قريظة، فكانت من السيوف ألفًا وخمسمائة سيف، ومن الرماح ألفي رمح، ومن الدروع ثلاثمائة درع، ومن التروس ألفًا وخمسمائة ترس وجحفة، كما تركوا عددًا كبيرًا من الشياه والإبل وأثاثًا كثيرًا وآنية كثيرة، ووجد المسلمون دنانًا من الخمر، فوزعت الغنائم وهي الأموال المنقولة كالسلاح والأثاث وغيرها بين المحاربين من أنصار ومهاجرين ممن شهدوا الغزوة، فأعطي أربعة أخماس الغنائم لهم، إذ جعل للفرس سهمين، وللراجل سهمًا، فالفارس يأخذ ثلاثة أسهم له ولفرسه، وغير الفارس يأخذ سهمًا واحدًا له، والخمس المتبقي هو سهم الله ورسوله المقرر في كتابه تعالى ، وقد أسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لسويد بن خلاد الذي قتلته المرأة اليهودية بالرحى، وأعطى سهمه لورثته ،ولصحابي آخر مات أثناء حصار بني قريظة ،كما رضخ رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء اللواتي حضرن ولم يسهم لهن، منهن: صفية بنت عبد المطلب، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء، والسميراء بنت قيس، وأم سعد بن معاذ ،وأما الأموال غير المنقولة كالأراضي والديار فقد أعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم للمهاجرين دون الأنصار،وأمر المهاجرين أن يردوا إلى الأنصار ما أخذوه منهم من نخيل وأرض،وكانت على سبيل العارية، ينتفعون بثمارها ،قال تعالى عن تلك الأراضي والديار: (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) .

المطلب الخامس

حديث القرآن الكريم والسنة النبوية

عن "غزوة بنى قريظة "

وقعت في السنة الخامسة للهجرة عقب غزوة الأحزاب، وذلك أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-بعد أن رأى ما انطوت عليه نفوس يهود بني قريظة من اللؤم والغدر والتحزب مع قريش وحلفائها،وبعد أن أعلنت له إبان اشتداد معركة الأحزاب أنها نقضت عهدها معه،وكانت وهي تساكن الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة تهم،بشر عظيم قد يقضي على المسلمين جميعا لولا انتهاء معركة الأحزاب بمثل ما انتهت إليه،رأى رسول الله-صلى الله عليه وسلم-أن يؤدب هؤلاء الخائنين الغادرين،ويطهر منهم المدينة مقر جهاده ودعوته حتى لا تواتيهم الظروف مرة أخرى،فينقضوا على جيرانهم المسلمين ويبيدوهم كما هي طبيعة الغدر اليهودي اللئيم وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع يوم الخندق ووضع السلاح واغتسل،أتاه جبريل وقد عصب رأسه الغبار فقال: وضعتَ السلاح، فوالله ما وضعتُه. قال: فأين؟ قال: ههنا، وأومأ إلى بني قريظة، قالت: فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من ينادي في الناس بأن لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، ثم خرج فيهم وقد حمل رايته علي رضي الله عنه، وقد اجتمع من المسلمين ثلاثة آلاف،ومن الخيل ست وثلاثون،فلما دنا علي من حصن بني قريظة،سمع منهم مقالة قبيحة في حقه صلى الله عليه وسلم وحق أزواجه، فأخبر النبي-صلى الله عليه

وسلم-بذلك،وطلب إليه ألا يدنو من أولئك الأخباث،فأجابه عليه السلام بأنهم إذا رأوه لم يقولوا من ذلك شيئا لما يعلم من أخلاقهم في النفاق والملق، فلما رأوه تلطفوا به كما تنبأ-صلى الله عليه وسلم-،ثم أخذ المسلمون في حصارهم خمسا وعشرين ليلة، فلما ضاق بهم الأمر نزلوا على حكم رسول الله-صلى الله عليه وسلم-،فحكم فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس،وكان بنو قريظة حلفاء الأوس،فحكم سعد بأن تقتل،مقاتلتهم،وأن تسبى ذراريهم،وأن تقسم أموالهم،فنفذ الرسول حكمه،وبذلك قضى على مؤامرات اليهود ودسائسهم وتآمرهم على رسول الله-صلى الله عليه وسلم-ودعوته قضاء مبرما في المدينة وما حولها،وفي هذه الغزوة نزلت آيات من القرآن الكريم تبين غدر اليهود،ونقضهم للعهود،وتخذيلهم لصفوف المسلمين .

قوله تعالى:{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا(١٢)وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا(١٣)وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا(١٤)وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا(١٥)قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا(١٦)}

أولاً: سبب النزول:

أخرج البيهقى في الدلائل من طريق كثير بن عبد الله ابن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال خط رسول الله-صلى الله عليه وسلم-الخندق عام الأحزاب،فأخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة فأخذ رسول الله-صلى الله عليه وسلم-المعول فضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا- يَعْنِي لَابَتَيِ الْمَدِينَةِ فكبر وكبر المسلمون ثم ضرب الثانية فصدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها فكبر وكبر المسلمون ثم ضربها الثالثة فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لا بيتها فكبر وكبر المسلمون فسئل عن ذلك فقال ضربت الأولي فأضاءت لي قصور الحيرة ومدائن كسرى وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ثم ضربت الثانية فأضاءت لي قصور الحمر من أرض الروم وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ثم ضربت الثالثة فأضاءت لي قصور صنعاء وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها،فقال المنافقون ألا تعجبون يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزل القرآن وإن يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض وما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا".

ثانياً: التفسير :

قوله{وَإِذْ يَقُولُ المنافقون والذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}،أي:واذكر حين يقول المنافقون، والذين في قلوبهم مرض النفاق،لأن الإيمان لم يخالط قلوبهم {مَّا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً}،أي:وما وعدنا الله ورسوله إِلا باطلاً وخداعاً، قال الصاوي: والقائل هو

«متعب بن قشير»الذي قال: عندا محمدٌ بفتح فارس والروم،وأحدُنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً،ما هذا إلا وعد غرور يغرنا به محمد {وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ}،أي:واذكر حين قالت جماعة من المنافقين وهم: أوس بن قيظي وأتباعه، وأُبيُّ بن سلول وأشياعه {ياأهل يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ} أي يا أهل المدينة لا قرار لكم ههنا ولا إقامة {فارجعوا} أي فارجعوا إلى منازلكم واتركوا محمداً وأصحابه {وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النبي} ويستأذن جماعة من المنافقين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ في الإنصراف متعللين بعلل واهية {يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ} أي غير حصينة فنخاف عليها العدوَّ والسُّرّاق {وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ} تكذيب من الله تعالى لهم أي ليس الأمر كما يزعمون {إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً} أي ما يريدون بما طلبوا من الرسول صلى الله عليهوسلم إلا الهرب من القتال، والفرار من الجهاد، والتعبريُ بالمضارع {وَيَسْتَأْذِنُ} لاستحضار الصورة في النفس، فكأن السامع يبصرهم الآن وهم يستأذنون، ثم فضحهم تعالى وبيَّن كذبهم ونفاقهم فقال: {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا} أي ولو دخل الأعداء على هؤلاء المنافقين من جميع نواحي المدينة وجوانبها {ثُمَّ سُئِلُواْ الفتنة لآتَوْهَا} أي ثم طلب إليهم أن يكفروا وأن يقاتلوا المسلمين لأعطوها من أنفسهم {وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلاَّ يَسِيراً} أي لفعلوا ذلك مسرعين، ولم يتأخروا عنه لشدة فسادهم، وذهاب الحق من نفوسهم، فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع، وهذا ذمٌ لهم في غاية الذم {وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ الله مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأدبار} أي ولقد كان هؤلاء المنافقون أعطوا ربهم العهود والمواثيق من قبل غزوة الخندق

وبعد بدر ألاَّ يفروا من القتال {وَكَانَ عَهْدُ الله مَسْئُولاً} أي وكان هذا العهد منهم جديراً بالوفاء لأنهم سيسألون عنه، وفيه تهديدٌ ووعيد، قال قتادة: لما غاب المنافقون عن بدر، ورأوا ما أعطى الله أهل بدرٍ من الكرامة والنصر، قالوا لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن {قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفرار إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ الموت أَوِ القتل}،أي:قل يا أيها النبي لهؤلاء المنافقين، الذين يفرون من القتال طمعاً في البقاء وحرصاً على الحياة،إن فراركم لن يطوّل أعماركم ولن يؤخر آجالكم،ولن يدفع الموت عنكم أبداً {وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}،أي:ولئن هربتم وفررتم فإذاً لا تمتعون بعدة إلا زمناً يسيراً،لأن الموت مآل كل حي،ومن لم يمت بالسيف مات بغيره".

قوله تعالى{وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦)وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)}

أولاً :سبب النزول :

قوله{وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ} الصياصي هي الحصون، ونزلت الآية في يهود بني قريظة، وذلك أنهم كانوا معاهدين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنقضوا عهده وصاروا مع قريش، فلما انصرفت قريش عن المدينة حصر رسول الله بني قريظة، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم بأن يقتل رجالهم ويسبى نساؤهم وذريتهم فَرِيقاً تَقْتُلُونَ يعني الرجال وقتل منهم يومئذ كل من أنبت وكانوا بين ثمانمائة أو تسعمائة وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً يعني النساء والذرية

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ يعني أرض بني قريظة قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها هذا وعد بفتح أرض لم يكن المسلمون قد وطئوها حينئذ، وهي مكة واليمن والشام والعراق ومصر، فأورث الله المسلمين جميع ذلك وما وراءها إلى أقصى المشرق والمغرب، ويحتمل عندي أن يريد أرض بني قريظة، لأنه قال: أورثكم بالفعل الماضي، وهي التي كانوا أخذوها حينئذ، وأما غيرها من الأرضين،فإنما أخذوها بعد ذلك فلو أرادها لقال:يورثكم إنما كررها بالعطف ليصفها بقوله:لَمْ تَطَؤُها:أي لم تدخلوها قبل ذلك.

ثانياً :التفسير :

قوله {وَأَنزَلَ الذين ظاهروهم} أي عاونُوا الأحزابَ المردودةَ {مّنْ أَهْلِ الكتاب} وهُم بنُو قريظةَ {مِن صَيَاصِيهِمْ} من حصونهم جميع صِيصِيَة وهي ما يُتحصَّن به ولذلكَ يقالُ لقرنِ الثَّورِ والظَّبيِ وشوكةِ الدِّيكِ{وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرعب}الخوفَ الشَّديدَ بحيثُ أسلمُوا أنفسَهم للقتلِ وأهليهم وأولادَهم للأسرِ حسبَما ينطِق به قولُه تعالى {فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً} من غيرِ أن يكون من جهتِهم حَراكٌ فضلاً عن المُخالفةِ والاستعصاءِ رُوي أنَّ جبريلَ عليهِ السلام أتى رسول-صلى الله عليه وسلم-صبيحةَ اللَّيلةِ التي انهزمَ فيها الأحزابُ ورجعَ المُسلمون إلى المدينةِ ووضعُوا السِّلاحَ فقال أتنزعْ لأمَتك والملائكةُ ما وضعُوا السِّلاحَ إنَّ الله يأمرُك أن تسيرَ إلى بني قُريظةَ وأنا عامدٌ إليهم فأذَّن في النَّاسِ أنْ لا يصلُّوا العصرَ إلا ببني قُريظةَ فحاصرُوهم إحدى وعشرينَ أو خَمساً وعشرين ليلةً حتَّى جهدَهم الحصارُ فقال لهم تنزلُون على حُكمي

فأبَوا فقالَ عَلى حُكم سُعد بن معاذٍ فرضُوا به فحكم سعد بقتل وسبيِ ذرارِيهم ونسائِهم فكبَّر النبيّ -صلَّى الله عليهِ وسلم- وقالَ لقد حكمتَ بحُكم الله من فوقِ سبعةِ أرقعةٍ فقُتلَ منهم ستمائةُ مقاتلٍ وقيل من ثمانمائةُ إلى تسعمائةُ وأُسر سبعمائةٌ {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وديارهم} أي حصونهم {وأموالهم} ونقودهم وأثاثَهم ومواشيهم رُوي أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جعلَ عقارَهم للمهاجرينَ دونَ الأنصارِ فقالتِ الأنصارُ في ذلك فقال -صلى الله عليه وسلم- إنَّكم في منازلِكم فقال عمرُ رضي الله عنه أَمَا تُخمس كما خمَّستَ يوم بدر فقال -صلى الله عليه وسلم- لا إنَّما جُعلتْ هذه لي طعمةً دونَ النَّاسِ قالُوا رضينَا بما صنعَ الله ورسولُه {وَأَرْضاً لَّمْ تطؤوها}،أي أورثَكم في علمِه وتقديرِه أرضاً لم تقبضُوها بعدَ كفارسَ والرُّومِ وقيل كلُّ أرضٍ تُفتح إلى يومِ القيامةِ وقيلَ خيبرُ {وَكَانَ الله على كُلّ شئ قَدِيراً}فقد شاهدتُم بعض مقدوراته من إيراثِ الأراضِي التي تسلَّمتموها فقيسُوا عليها ما عَدَاها.

قوله تعالى{أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}

التفسير:

قوله{أَوْ كُلَّمَا عاهدوا عَهْدًا}الهمزةُ للإنكارِ والواوُ للعطفِ على مقدر يقتضيه المقام أي أكفَروا بها وهي غاية الوضوحِ وكلما عاهدوا عهداً ومن جملة ذلك ما أشير إليه في قوله تعالى {وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ}من قولهم للمشركين قد أظلَّ زمانُ نبيَ يخرجُ بتصديقِ ما قلنَا فنقتلُكُم مَعَهُ قتلَ عادٍ وإرم وقرئ بسكون

الواو على أن تقدير النظم الكريم وما يكفر بها إلا الذين فسقوا أو نقضوا عهودَهم مرارا كثيرة وقرئ عوُهِدوا وعهِدوا وقوله تعالى عهداً إما مصدرٌ مؤكد لعاهَدوا من غير لفظِه أو مفعولٌ له على أنه بمعنى أعطَوُا العهدَ،{نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مّنْهُم} أي راموا بالزمام ورفضوه وقرئ نَقَضَه وإسنادُ النبذِ إلى فريق منهم لأن منهم من لم ينبِذْه،{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}أي،بالتوراة وهذا دفعٌ لما يُتوَهَّم من أن النابذين هم الأقلون وأن من لم ينبِذْ جِهاراً فهم يؤمنون بها سراً ".

ثالثاً: الأحاديث الواردة فى الغزوة:

١- عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الخَنْدَقِ، وَوَضَعَ السِّلاَحَ وَاغْتَسَلَ، أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَقَالَ: " قَدْ وَضَعْتَ السِّلاَحَ؟ وَاللَّهِ مَا وَضَعْنَاهُ، فَاخْرُجْ إِلَيْهِمْ قَالَ: فَإِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: هَا هُنَا، وَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ ".

٢- حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سَعْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: نَزَلَ أَهْلُ قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى سَعْدٍ فَأَتَى عَلَى حِمَارٍ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ المَسْجِدِ قَالَ لِلْأَنْصَارِ: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ، أَوْ خَيْرِكُمْ». فَقَالَ: «هَؤُلاَءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ»، فَقَالَ: تَقْتُلُ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَتَسْبِي ذَرَارِيَّهُمْ، قَالَ: «قَضَيْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ».

٣- عن قتادة، قوله: (وَأَنزلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) وهم: بنو قُرَيظة، ظاهروا أبا سفيان وراسلوه، فنكثوا العهد الذي بينهم وبين نبيّ الله، قال: فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند زينب بنت جحش يغسل رأسه، وقد غسلت شقه،إذ أتاه جبرائيل-صلى الله عليه وسلم-، فقال:عفا الله عنك؛ما وضعت الملائكة سلاحها منذ أربعين ليلة، فانهض إلى بني قريظة،فإني قد قطعت أوتارهم،وفتحت أبوابهم،وتركتهم في زلزال وبلبال؛ قال: فاستلأم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم سلك سكة بني غنم، فاتبعه الناس وقد عصب حاجبه بالتراب؛ قال: فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاصروهم وناداهم: "يا إخوان القردة"، فقالوا: يا أبا القاسم،ما كنت فحاشا،فنزلوا على حكم ابن معاذ، وكان بينهم وبين قومه حلف،فرجوا أن تأخذه فيهم هوادة،وأومأ إليهم أبو لبابة إنه الذبح، فأنزل الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى ذراريهم، وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقال قومه وعشيرته: آثرت المهاجرين بالعقار علينا قال: فإنكم كنتم ذوي عقار، وإن المهاجرين كانوا لا عقار لهم. وذُكر لنا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كبر وقال: "قَضَى فِيكُمْ بِحُكْمِ اللهِ".

٤- عن ابن شهاب الزهري: "معتجرًا بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها رحالة، عليها قطيفة من ديباج؛ فقال: أقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم قال جبريل:ما وضعت الملائكة السلاح بعد،ما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله

يأمرك يا محمد بالسير إلى بني قريظة، وأنا عامد إلى بني قريظة"،فأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مناديا، فأذّن في الناس: "إن من كان سامعا مطيعا فلا يصلينّ العصر إلا في بني قريظة"، وقدّم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس، فسار عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حتى إذا دنا من الحصون، سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- منهم فرجع حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريق، فقال: يا رسول الله، لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخباث، قال: "لِمَ؟ أَظُنُّكَ سَمِعْتَ لي مِنْهُمْ أذًى" قال: نعم يا رسول الله، قال: "لَوْ قَدْ رأوني لَمْ يقُولُوا مِنْ ذلكَ شَيْئا" فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال: "يا إخْوَانَ القِرَدَة هَلْ أخْزَاكُمُ اللهُ وأنزلَ بِكُمْ نِقْمَتَهُ؟ " قالُوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولا؛ ومرّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-على أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: "هل مَرَّ بِكُمْ أحَدٌ؟ "فقالوا: يا رسول الله، قد مرّ بنا دِحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "ذَاك جبْرَائيلُ بُعِثَ إلى بَنِي قُرَيْظَةَ يُزَلْزلُ بِهِمْ حُصُونَهُمْ،وَيَقْذِفُ الرُّعْبَ في قُلُوبِهِمْ"؛ فلما أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قريظة، نزل على بئر من آبارها في ناحية من أموالهم يقال لها: بئر أنا، فتلاحق به الناس، فأتاه رجال من بعد العشاء الآخرة، ولم يصلوا العصر لقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "لا

يُصَلِّيَنَّ أحَدٌ العَصْرَ إلا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ"، فصلوا العصر فما عابهم الله بذلك في كتابه ولا عنفهم به رسوله.

ثالثا: الدروس المستفادة من الغزوة :

١- بيان عاقبة الغدر فإن بني قريظة لما غدرت برسول الله انتقم منها فسلط عليها رسوله والمؤمنين فأبادوهم عن آخرهم ولم يبق إلا الذين لا ذنب لهم وهم النساء والأطفال.

٢- بيان صادق وعد الله إذ أورث المسلمين أرضاً لم يكونوا قد وطئوها وهي خيبر والشام والعراق وفارس وبلاد أخرى كبيرة.

٣- تقرير أن قدرة الله لا تحد أبداً فهو تعالى على كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

٤-جواز قتل من نقض العهد .

٥-مشروعية الاجتهاد فى الفروع وضرورة وقوع الخلاف فيها وذلك حين اختلف الصحابة فى حديث "ألا لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة".

حديث القرآن الكريم والسنة النبوية

عن " غزوة خيبر"

أولاً: تاريخها وأسبابها:

ذكر ابن إسحاق أنها كانت في المحرم من السنة السابعة للهجرة، وذكر الواقدي أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة للهجرة، بعد العودة من غزوة

الحديبية، وذهب ابن سعد إلى أنها في جمادى الأولى سنة سبعٍ، وقال الإمامان الزهري ومالك: إنها في محرم من السنة السادسة ،وقد رجح ابن حجر قول ابن إسحاق على قول الواقدي لم يُظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء بني النضير، الذي حزَّ في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم، ولم يكن الإجلاء كافيًا لكسر شوكتهم، فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأبناء والأموال، وخلفهم القيان يضربن الدفوف والمزامير بزهاء وفخر ما رئي مثله في حي من الناس في زمانهم ،وكان من أبرز زعماء بني النضير الذين نزلوا في خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب فلما نزلوا دان لهم أهلها ، وكان تزعم هؤلاء ليهود خيبر كافيًا في جرها إلى الصراع والتصدي والانتقام من المسلمين، فقد كان يدفعهم حقد دفين ورغبة قوية في العودة إلى ديارهم داخل المدينة، وكان أول تحرك قوي ما حدث في غزوة الأحزاب، حيث كان لخيبر وعلى رأسها زعماء بني النضير دور كبير في حشد قريش والأعراب ضد المسلمين وتسخير أموالهم في ذلك، ثم سعيهم في إقناع بني قريظة بالغدر والتعاون مع الأحزاب ،بل إنهم أنفقوا أموالهم واستغلوا علاقاتهم مع يهود بني قريظة من أجل نصرة الأحزاب وطعن المسلمين في ظهورهم ،وهكذا أصبحت خيبر مصدر خطر كبير على المسلمين ودولتهم النامية. تفرغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الذي أصبح يهدد أمن المسلمين، ولقد تضمنت سورة الفتح التي نزلت بعد الحديبية وعدًا إلهيًّا بفتح خيبر وحيازة أموالها غنيمة ،قال تعالى: (وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ

النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا - وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) .

ثانيًا: مسير الجيش الإسلامي إلى خيبر:

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر وشدة بأس رجالها وعتادها الحربي، وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فطلب منهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرفقوا بأنفسهم قائلا: « أيها الناس .. إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم»

وكان سيره صلى الله عليه وسلم بالجنود ليلا، فقد قال سلمة بن الأكوع - رضي الله عنه -: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر فسرنا ليلاً وكان عامر بن الأكوع يحدو بالقوم ويقول:

اللهم لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداء لك ما اتقينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

وألقين سكينة علينا ... إنا إذا صيح بنا أتينا

وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من هذا السائق؟» قالوا: عامر بن الأكوع. قال: «يرحمه الله»،قال رجل -وهو عمر بن الخطاب - من القوم: وجبت يا نبي الله،

لولا متعتنا به ،وعندما وصل الجيش الإسلامي بالصهباء، وهي من أدنى خيبر، صلى العصر ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا السويق، فأمر به فثري، فأكل وأكل معه الصحابة، ثم قام إلى المغرب فمضمض ثم صلى بالصحابة ولم يتوضأ ، وكان صلى الله عليه وسلم قد بعث عباد بن بشر - رضي الله عنه - في سرية استطلاعية يتلقط أخبار العدو، ويستطلع إن كان هناك كمائن، فلقي في الطريق عينًا لليهود من أشجع فقال: من أنت؟ قال: باغٍ ابتغى أبعرة ضلت لي، أنا على إثرها، قال عباد: ألك علم بخيبر؟ قال: عهدي بها حديث، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم، كان كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيهم عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاح وطعام كثير لو حصروا لسنين لكفاهم، وماء وأنى يشربون في حصونهم، ما أرى لأحد بهم طاقة، فرفع عباد بن بشر السوط فضربه ضربات، وقال: ما أنت إلا عين لهم، اصدقني وإلا ضربت عنقك. فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون، وجلون لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود، وقال لي كنانة: اذهب معترضًا للطريق فإنهم لا يستنكرون مكانك واحزرهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا، فإنهم لن يدعوا سؤلك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم ،وعندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قفوا. ثم قال: «اللهم

رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها، وشر ما فيها»، اقدموا باسم الله، وكان يقولها لكل قرية دخلها ،ولما أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم الليل أمر الجيش بالنوم على مشارف خيبر، ثم استيقظوا مبكرين، وضربوا خيامهم ومعسكرهم بوادي الرجيع، وهو وادي يقع بين خيبر وغطفان، حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان ، ولما أصبح الصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوا جيش المسلمين قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

ثالثًا: وصف تساقط حصون خيبر:

هرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون، وأخذوا في فتح حصونهم واحدًا تلو الآخر، وكان أول ما سقط من حصونهم ناعم والصعب بمنطقة النطاة، وأبى النزار بمنطقة الشق، وكانت هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر، ثم حصن القموص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن ابن أبي الحقيق، ثم أسقطوا حصني منطقة الوطيح والسلالم

وقد واجه المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعم الذي استُشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاري، حيث ألقى عليه مرحب رحى من أعلى الحصن والذي استغرق فتحه عشرة أيام فقد حمل

راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصديق، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهد الناس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه سيدفع اللواء غدًا إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح له، فطابت نفوس المسلمين، فلما صلى فجر اليوم الثالث دعا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ودفع إليه اللواء فحمله فتم فتح الحصن على يديه ،وكان علي يشتكي من رمد في عينيه عندما دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له فبرئ ولقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم عليًّا بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن تكون لك حمر النعم» وعندما سأله علي: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك منعوا منكم دماءهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله» وعندما حاصر المسلمون هذا الحصن برز لهم سيده وبطلهم مرحب وكان سببًا في استشهاد عامر بن الأكوع، ثم بارزه علي فقتله ،مماأثر سلبيًّا في معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم ،ووردت مجموعة من روايات تخبر بأن عليًّا - رضي الله عنه - تترس بباب عظيم كان عند حصن ناعم بعد أن أسقط يهودي ترسه من يده، وكلها روايات ضعيفة، وعدم الاعتماد عليها لا ينفي قوة علي وشجاعته، فيكفيه ما ثبت في ذلك وهو كثير ،توجه المسلمون إلى حصن الصعب بن معاذ بعد فتح حصن ناعم، وأبلى حامل رايتهم الحباب بن المنذر بلاء حسنًا حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه

الكثير من الطعام والمتاع، يوم كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير الذي اجتمع فيه الفارون من حصن ناعم والصعب وبقية ما فتح من حصون يهود، فحاصروه وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام، وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النطاة التي كان فيها أشد اليهود، ثم توجهوا إلى حصون منطقة الشق وبدءوا بحصن أبي فاقتحموه، وأفلت بعض مقاتلته إلى حصن نزار، وتوجه إليهم المسلمون فحاصروهم ثم افتتحوا الحصن، وفر بقية أهل الشق من حصونهم وتجمعوا في حصن القموص المنيع وحصن الوطيح وحصن السلالم، فحاصرهم المسلمون لمدة أربعة عشر يومًا حتى طلبوا الصلح وهكذا فتحت خيبر عنوة استنادًا إلى النظر في مجريات الأحداث التي سقناها، وما روى مسلم ، وأبو داود من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا خيبر وافتتحها عنوة خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وحاصر المسلمون وادي القرى، وهي مجموعة قرى بين خيبر وتيماء ليالي ثم استسلمت، فغنم المسلمون أموالا كثيرة وتركوا الأرض والنخل بيد اليهود وعاملهم عليها مثل خيبر وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر ووادي القرى ،وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهودية أمام قوات المسلمين وقد بلغ قتلى اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلا وسبيت النساء والذراري منهن صفية بنت حيي بن أخطب فأعتقها

رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوجها ،واستشهد من المسلمين عشرون رجلا فيما ذكر ابن إسحاق ،وخمسة عشر فيما ذكر الواقدي.

رابعاً: قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من الحبشة:

قدم جعفر بن أبي طالب وصحبه من مهاجري الحبشة على رسول الله يوم فتح خيبر، فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عينيه والتزمه وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»، وكان صلى الله عليه وسلم قد أرسل في طلبهم من النجاشي، عمرو بن أمية الضمري، فحملهم في سفينتين ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر، وقد رافق جعفر في قدومه أبو موسى الأشعري ومن كان بصحبته من الأشعريين فعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: بلغنا مخرج النبي صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم أحدهم أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال: في بضع، وإما قال في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلا من قومي، فركبنا السفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا جميعًا، فوافقنا النبي صلى الله عليه وسلم حين افتتح خيبر

لقد مكث جعفر وإخوانه في الحبشة بضعة عشر عامًا، نزل خلالها قرآن كثير، ودارت معارك شتى مع الكفار، وتقلب المسلمون قبل الهجرة العامة وبعدها في أطوار متباينة، حتى ظن البعض أن مهاجري الحبشة -وقد فاتهم هذا كله- أقل قدرًا من غيرهم ، فعن أبي موسى: كان أناس يقولون لنا سبقناكم بالهجرة، ودخلت

أسماء بنت عميس على حفصة زوج النبي زائرة -وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر- فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت أسماء: ابنة عميس، قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت، وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسول الله، وايم الله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه، فلما جاءت النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كذا وكذا، قال: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان» فأخذت أسماء هذا الوسام ووزعته على جميع أعضاء الوفد حيث كانوا ،كما قالت: يأتون أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في نفوسهم مما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ،وقد أشركهم النبي صلى الله عليه وسلم في مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصحابة رضي الله عنهم الذين شاركوا في فتحها

خامسًا: تقسيم الغنائم:

١ - كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم غنيمة، من حيث الأراضي والنخيل والثياب والأطعمة وغير ذلك، ومن خلال وصف كتب السيرة نلاحظ أن الغنائم تتكون من:

أ- الطعام: فقد غنم المسلمون كثيرًا من الأطعمة من حصون خيبر، فقد وجدوا فيها الشحم والزيت والعسل والسمن، وغير ذلك، فأباح رسول الله صلى الله عليه وسلم الأكل من تلك الأطعمة، ولم يخمسها.

ب- الثياب والأثاث والإبل والبقر والغنم، لقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسها ووضعه فيما وضعه الله فيه، ووزع أربعة أخماسها على المحاربين.

ج- السبي: لقد سبى رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرًا من نساء اليهود، ووزع السبي على المسلمين، فهو غنيمة ويأخذ حكم الغنيمة.

د- أما الأراضي والنخيل فقد قسمها النبي إلى ستة وثلاثين سهمًا، وجمع كل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين النصف من ذلك، وهو ألف وثمانمائة سهم، ووزع النصف الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهم لنوائبه، وما ينزل به من أمور المسلمين .

هـ- وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدة صحف من التوراة فطلب اليهود ردَّها، فأمر بتسليمها إليهم، ولم يصنع صلى الله عليه وسلم ما صنع الرومان حينما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم، ولا ما صنع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة .

وقد أبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها وينفقوا عليها من أموالهم، ولهم نصف ثمارها، على أن للمسلمين حق إخراجهم منها

متى أرادوا، وكان اليهود قد بادروا بعرض ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: نحن أعلم بالأرض منكم فوافق على ذلك بعد أن هم بإخراجهم منها .

وقد اشترط عليهم أن يجليهم عنها متى شاء، وهنا تظهر براعة سياسة جديدة في عقد الشروط، فإن بقاء اليهود في الأرض يفلحونها يوفر للمسلمين الجنود المجاهدين في سبيل الله، ومن جهة أخرى فإن اليهود هم أصحاب الأرض وهم أدرى بفلاحتها من غيرهم، فبقاؤهم فيها يعطي ثمرة أكثر وأجود وبخاصة أنهم لن يأخذوا أجرًا، ولكنهم سيأخذون نصف ما يخرج من الأرض قل أو كثر، وقد ضمن الرسول - بشرط إجلائهم متى شاء المسلمون- إخضاعهم وكسر شوكتهم؛ لأنهم يعلمون إذا فعلوا شيئًا يضر بالمسلمين سيطردونهم منها، ولا يعودون إليها أبدًا.

وقد حدث ذلك فعلا في عهد سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حيث اعتدوا على عبد الله ابن عمر ففدعوا يديه من المرفقين، وكانوا قبل ذلك في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم اعتدوا على عبد الله بن سهل فقتلوه، فلما تحقق عمر من غدرهم وخيانتهم أمر بإجلائهم ،وحاول يهود خيبر أن يخفوا الفضة والذهب وغيبوا مسكًا ،لحيي بن أخطب، وكان قد قتل مع بني قريظة، وكان احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت النضير، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم سعية عم حيي بن أخطب: أين مسك حيي بن أخطب؟ قال: أذهبته الحروب والنفقات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العهد قريب والمال أكثر من ذلك، فدفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الزبير بن العوام، فمسه بعذاب، وقد

كان حيي قبل ذلك دخل خربة، فقال عمه: قد رأيت حييًا يطوف في خربة هاهنا، فذهبوا فطافوا، فوجدوا المسك في الخربة، وبعد الاتفاق الذي تم بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهود خيبر على إصلاح الأرض جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة خرصه ، وأراد وا أن يرشوه فقال: يا أعداء الله تطعموني السحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليَّ، ولأنتم أبغض الناس إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض ،لقد أصبحت خيبر ملكًا للمسلمين وصارت موردًا مهمًّا لهم، قال ابن عمر - رضي الله عنه -: ما شبعنا حتى فتحت خيبر ،وقد تحسن الوضع الاقتصادي بعد خيبر، ورد المهاجرون المنائح التي أعطاهم إياها الأنصار من النخل.

سادسا: زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من صفية بنت حيي بن أخطب:

لما فتح المسلمون القموص -حصن بني أبي الحقيق- كانت صفية في السبي فأعطاها دحية الكلبي، فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم: فقال يا رسول الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قومها، وهي ما تصلح إلا لك، فاستحسن النبي صلى الله عليه وسلم ما أشار به الرجل، وقال لدحية، خذ جارية من السبي غيرها ،ثم أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقها وجعل عتقها صداقها ، ثم تزوجها بعد أن طهرت من حيضتها ، وبعد أن أسلمت،ولم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم

من خيبر حتى طهرت صفية من حيضها، فحملها وراءه فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرس بها، فأبت عليه، فوجد في نفسه، فلما كان بالصهباء نزل بها هناك فمشطتها أم سليم، وعطرتها، وزفتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبنى بها، فسألها: «ما حملك على الامتناع من النزول أولا» فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فعظمت في نفسه، ومكث رسول الله بالصهباء ثلاثة أيام، وأولم عليها ودعا المسلمين، وما كان فيها من لحم وإنما التمر والأقط والسمن، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه، فلما ارتحل وطأ له خلفه ومد عليها الحجاب، فأيقنوا أنها إحدى أمهات المؤمنين.

وقد كانت أم المؤمنين صفية بنت حيي قد رأت رؤية، فقد روى البيهقي -رحمه الله- بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما في حديث طويل قال: ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعين صفية خضرة، فقال: «يا صفية ما هذه الخضرة؟» فقالت: كان رأسي في حجر ابن حقيق، وأنا نائمة، فرأيت كأن قمرًا وقع في حجري، فأخبرته بذلك فلطمني، وقال: تمنين ملك يثرب .

وهكذا صدق الله رؤيا صفية رضي الله عنها، وأكرمها بالزواج من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعتقها من النار، وجعلها أمًّا للمؤمنين، وزوجًا في الجنة لخاتم الأنبياء والمرسلين ،وقد أكرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الإكرام،وكان يجلس عند بعيره فيضع ركبته لتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب، وقد بلغ

من أدبها أنها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته، فكانت تضع ركبتها على ركبته وتركب .

وهذه صفية رضي الله عنها تحدثنا عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقول: ما رأيت أحدًا قط أحسن خلقًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد رأيته ركب بي في خيبر، وأنا على عجر ناقته ليلاً، فجعلت أنعس، فتضرب رأسي مؤخرة الرحل، فيمسني بيده، ويقول: «يا هذه مهلاً» وعن صفية رضي الله عنها أنها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من صفية، نحن أزواجه وبنات عمه، فدخل عليها صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال: «ألا قلتِ: وكيف تكونان خير مني وزوجي محمد وأبي هارون، وعمي موسى».

لقد تأثرت صفية بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصبح صلى الله عليه وسلم أحب إليها من أبيها وزوجها والناس أجمعين، بل أصبح أحب إليها من نفسها، تفديه بكل ما تملك حتى نفسها، وإذا ألم به مرض تمنت أن يكون فيها، وأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمًا معافى، فقد أخرج ابن سعد -رحمه الله- بإسناد حسن عن زيد بن أسلم - رضي الله عنه - قال: اجتمع نساؤه صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي توفي فيه، فقالت صفية رضي الله عنها: إني والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فغمز بها أزواجه، فأبصرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «مضمضن» ، فقلن: من أي شيء فقال: «من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة».

ومما له صلة بزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية بنت حيي، حراسة أبي أيوب الأنصاري لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أن دخل بصفية، فعن ابن إسحاق أنه قال: ولما أعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية بخيبر، أو ببعض الطريق .. فبات بها رسول الله في قبة له، وبات أبو أيوب خالد بن زيد أخو بني النجار متوشحًا سيفه، يحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأى مكانه قال: «ما لك يا أبا أيوب؟» قال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمله الذي ينبئ على غاية الحب، والإيمان، وقال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحرسني» .

وكان زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية فيه حكمة عظيمة، فهو لم يرد بزواجه منها قضاء شهوة، أو إشباعًا لغريزة، كما يزعم الأفاكون، وإنما أراد إعزازها وتكريمها، وصيانتها من أن تفترش لرجل لا يعرف لها شرفها ونسبها في قومها، وهذا إلى ما فيه من العزاء لها، قد قتل أبوها من قبل، وزوجها وكثير من قومها، ولم يكن هناك أجمل مما صنعه الرسول معها، كما أن فيه رباط المصاهرة بين النبي واليهود عسى أن يكون هذا ما يخفف من عدائهم للإسلام والانضواء تحت لوائه والحد من مكرهم وسعيهم بالفساد ، وكانت أم المؤمنين صفية عاقلة وحليمة، وصادقة، يروى أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقالت: إن صفية تحب

السبت، وتصل اليهود، فبعث إليها فسألها عن ذلك، فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحمًا فأنا أصلها، فقبل منها، ثم قالت للجارية: ما حملك على هذا؟ قالت: الشيطان، فقالت لها: اذهبي فأنت حرة.

سابعاً: محاولة أثيمة لليهود .. الشاة المسمومة:

قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود» فجمعوا له، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني سائلكم عن شيء فهل أنت صادقي عنه؟». فقالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أبوكم؟». قالوا: أبونا فلان. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كذبتم بل أبوكم فلان». فقالوا: صدقت وبررت. فقال: «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا،قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أهل النار؟». فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفوننا. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدًا». ثم قال لهم: «فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم. فقال: «هل جعلتم في الشاة سمًّا». فقالوا: نعم. فقال: «ما حملكم على ذلك؟». فقالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرك.

قال صاحب بلوغ الأماني عن الشاة المسمومة: أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم، وكانت سألت أي عضو من الشاة أحب إليه؟ فقيل: الذراع، فأكثرت فيها من السم، فلما تناول الذراع لاك منها مضغة، ولم يسغها، وأكل منها معه بشر بن البراء فأساغ لقمة ومات منها .

وفي مغازي عروة: فتناول الذراع فانتهش منها، وتناول بشر عظمًا آخر، فانتهش منه، فلما أرغم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أرغم بشر ما في فيه، فقال رسول الله: ارفعوا أيديكم، فإن كتف الشاة تخبرني أني قد بغيت فيها، فقال بشر بن البراء: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أكلت، ولم يمنعني أن ألفظها إلا أني كرهت أن أنغص طعامك، فلما أكلت ما في فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك، ورجوت أن لا أكون رغمتها وفيها بغي. وقال ابن القيم: وجيء بالمرأة إلى رسول الله فقالت: أردت قتلك، فقال: «ما كان الله ليسلطك علي» قالوا: ألا تقتلها؟ قال: «لا» ولم يتعرض لها، ولم يعاقبها، واحتجم على الكاهل، وأمر من أكل منها فاحتجم، فمات بعضهم.

وقد اختلف في قتل المرأة والصحيح أنه لما مات بشر قتلها، ولقد كان السم الذي وضعته اليهودية قويًّا جدًّا إذ مات بشر بن البراء فورًا، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم يعاوده ألم السم حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد

أن بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، وقد روى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها

قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مرض موته الذي مات فيه: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم».

تاسعاً: الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوة:

وردت في غزوة خيبر أحكام شرعية كثيرة منها:

١ - تحريم أكل لحوم الحمر الأنسية: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية.

٢ - حرمة وطء السبايا الحوامل: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسق ماءه زرع غيره».

٣ - حرمة وطء السبايا غير الحوامل قبل استبراء الرحم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها».

والاستبراء إنما يكون بأن تطهر من حيضة واحدة فقط، ولا تجب عليها العدة وإن كانت متزوجة من كافر سواء مات أو بقي حيًّا؛ لأن العدة وفاء الزوج الميت وحداد عليه، ولا يحد على الكافر كما علمت.

هي الربا، وهذا محرم، كما رأيت إذ نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأرشد إلى الحل السليم بأن يبيع ما لديه من تمر ثم يشتري بما لديه من نقود ما يشتهي من تمر؛ لأن الحاجة قد تدفع صاحبها إلى قبول الربا.

٥ - حرمة بيع الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين: روى عن عبادة بن الصامت أنه قال: نهانا رسول الله يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين، وقال «ابتاعوا تبر الذهب بالورق والعين، وتبر الفضة بالذهب والعين» والمراد من الحديث: أن يباع الذهب بالذهب مثلاً بمثل والفضة بالفضة مثلاً بمثل، بلا زيادة ولا نقص، وعندما يقابل الذهب بالفضة لا تشترط المماثلة، كما هو معلوم وثابت في الصحاح .

٦ - مشروعية المساقاة والمزارعة: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أعطى النبي صلى الله عليه وسلم خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شطر ما يخرج منها .

وقد تساءل بعض الباحثين: لِمَ جاءت أحكام هذه البيوع في خيبر وما الحكمة من ذلك؟ وأجاب الشيخ محمد أبو زهرة على هذا فقال: إن فتح خيبر كان فتحًا جديدًا بالنسبة للعلاقات المالية التي يجري في ظلها التبادل المالي، فكانت فيها شرعية المزارعة والمساقاة ولم تكن تجري كثيرًا في يثرب .

٧ - حل أكل لحوم الخيل: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر، ورخص في الخيل.

٨ - تحريم المتعة: عن علي - رضي الله عنه - قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الأنسية.

٩ - مشاركة المرأة في غزوة خيبر: روت أمية بنت أبي الصلت عن امرأة من بني غفار قالت: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من بني غفار فقلن: يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا -وهو السير إلى خيبر- فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال: على بركة الله، قالت: فخرجنا معه، قالت: فوالله لنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبح ونزلت عن حقيبة رحله، قالت: وإذا بها دم مني وكانت أول حيضة حضتها، قالت: فتقبضت إلى الناقة واستحييت، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بي ورأى الدم قال: «ما لك؟ لعلك نفست؟» قالت: قلت: نعم؟ قال: «فأصلحي من نفسك ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحا ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمركبك» قالت: فلما فتح الله خيبر رضخ لنا من الفيء، وأخذ هذه القلادة التي ترين في عنقي فأعطانيها وعلقها بيده في عنقي، فوالله لا تفارقني أبدًا ،وكانت في عنقها حتى ماتت، ثم أوصت أن تدفن معها، قالت: وكانت لا تطهر من حيضها، إلا جعلت في طهرها ملحًا، وأوصت به أن يجعل في غسلها حين ماتت ،وهي صورة حية أمام كل فتاة مسلمة، تحرص على أن تشارك في أجر الجهاد مع المسلمين

وهكذا كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تعليمًا وتربية للأمة في السلم والحرب على معاني العقيدة وحقيقة العبادة، وهذا غيض من فيض وجزء من كل، هذا وقد أحدث فتح خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء دويًّا هائلاً في الجزيرة العربية بين مختلف القبائل، وقد أصيبت قريش بالغيظ والكآبة إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتليهم ووفرة سلاحهم ومؤونتهم ومتاعهم ،أما القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر وخذلها انتصار المسلمين الساحق؛ ولذلك فإنها جنحت إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، مما فتح الباب واسعًا لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقق له من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي .

واستمرت حركة السرايا بعد خيبر، وكانت كثيرة، وأمر عليها صلى الله عليه وسلم كبار الصحابة، وكان في بعضها قتال، ولم يكن في بعضها قتال.

ب - كتب الدلائل والشمائل والخصائص

١- دلائل النبوة. لأبي نعيم الأصبهاني - أحمد بن عبد الله بن أحمد (٤٣٠هـ)

٢- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة (١) . لأبي بكر البيهقي - أحمد بن الحسين بن علي (٤٥٨هـ) .

٣- الشمائل النبوية (٢) . للإمام الترمذي - محمد بن عيسى بن سورة (٢٧٩هـ) .

٤- شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم (٣) . لابن كثير - إسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ)

٥- الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٤) . للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (٥٤٤هـ) .

٦- الوفا بأحوال المصطفى. لابن الجوزي - أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (٥٩٧هـ) .

٧- الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة. لمحمد بن أبي بكر ابن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني، الشهير بالبرى، من رجال القرن السابع (١) .

٨- الرصف لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من الفعل والوصف (٢) . لأبي المكارم محمد بن محمد بن عبد الله الشافعي الواسطى البغدادي. المعروف بابن العاقولي (٧٩٧هـ) .

٩- إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنبياء والأموال والحفدة والمتاع (٣) . لتقي الدين المقريزي المصري - أحم بن علي بن عبد القادر (٨٤٥هـ) .

١٠- الخصائص الكبرى. لجلال الدين السيوطي- عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ) .

١١- تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس. للدياربكري - حسين بن محمد المتوفي نحو سنة ٩٩٦هـ

ج- تراجم الصحابة والتابعين

١- الطبقات. لأبي عمرو خليفة بن خياط (١) . شباب العصفوري (٢٤٠هـ) .

٢- الطبقات الكبير (٢)

(الكبرى) لأبن سعد - محمد بن سعد بن منيع (٢٣٠هـ) .

٣- الاستيعاب في أسماء أصحاب (٣) لابن عبد البر - يوسف بن عبد الله بن محمد (٤٦٣هـ).

٤- أسد الغابة في معرفة الصحابة. لعز الدين بن الأثير - علي ابن محمد بن عبد الكريم (٦٣٠هـ) .

٥- الإصابة في تمييز الصحابة (١) . لابن حجر العسقلاني - أحمد بن علي بن محمد (٨٥٢هـ) .

د- تراجم القراء

١- معرفة القراءة الكبار على الطبقات والأعصار (٢) . للذهبي - محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ) .

٢- طبقات القراءة - يسمى غاية النهاية - لابن الجزري - محمد بن محمد بن محمد (٨٣٣هـ) .

هـ - تراجم المفسرين

١- طبقات المفسرين (١) . للسيوطي - عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ) .

٢- طبقات المفسرين. للداودي - محمد بن علي بن أحمد (٩٤٥هـ) .

وتراجم المحدثين والرواة

١- التاريخ الكبير. للإمام أبي عبد الله البخاري - محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (٢٥٦هـ) .

٢- الجرح والتعديل. لابن أبي حاتم الرازي - عبد الرحمن بن محمد بن إدريس (٣٢٧هـ) .

٣- تذكرة الحفاظ (٢) . للذهبي - محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ) .

٤- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي (١) .

٥- لسان الميزان. لابن حجر العسقلاني - أحمد بن علي بن محمد (٨٥٢-هـ) .

٦- تهذيب التهذيب. لابن حجر.

ز- تراجم الفقهاء والأصوليين الحنفية

١- الجواهر المضية في طبقات الحنفية (٢) . للقراشي- عبد القادر بن محمد بن نر الله (٧٧٥هـ) .

٢- الطبقات السنية في تراجم الحنفية (٣) . لتقي الدين بن عبد القادر التميمي العزى (١٠١٠هـ) .

المالكية

١- ترتيب المدارك (٤) وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب

ملك. للقاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى (٥٥٤هـ) .

٢- لديباج المذهب في تراجم أعيان المذهب (١) . لابن فرحون - إبراهيم بن علي بن

محمد (٧٧٩هـ) .

٣- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. لمحمد بن محمد مخلوف (١٣٦٠هـ) .

الشافعية

١- طبقات الشافعية الكبرى (٢) . لتاج الدين السبكي - عبد الوهاب بن علي بن

عبد الكافي (٧١١هـ) .

٢- طبقات الشافعية. لتاج الدين الإسنوى - عبد الرحيم بن الحسن بن علي

(٧٧٢هـ)

الحنابلة

١- طبقات الحنابلة. لابن أبي يعلى - محمد بن محمد بن الحسين (٥٢٦هـ) .

٢- الذيل على طبقات الحنبلة (١) . لابن رجب - عبد الرحمن ابن أ؛ مد (٧٩٥هـ) .

الأصوليون

طبقات الأصوليين - يسمى: الفتح المبين. لعبد الله مصطفى المراغي.

ح- تراجم الشيعة والمعتزلة

١- أعيان الشيعة (٢) . لمحسن بن عبد الكريم بن علي. الأمين (١٣٧١هـ) .

٢- الذريعة إلى تصانيف الشيعة. لمحمد محسن بن علي، الشهير بالشيخ آغار بزرك الطهراني (١٣٨٩هـ) .

وله أيضاً: طبقات الشيعة.

٣- طبقات المعتزلة. للقاضى عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني (٤١٥هـ)

٤- طبقات المعتزلة (١)

. لابن المرتضى - أحمد بن يحيى (٨٤٠هـ) .

ط- تراجم الزهاد والصوفية

١- حيلة الأولياء وطبقات الأصفياء (٢) . لأبي نعيم الأصبهاني - أحمد بن عبد الله بن أحمد (٤٣٠هـ) .

٢- صفة الصفوة [ويسمى: صفوة الصفوة - وهو اختصار حلية الأولياء، السابق] لأبي الفرج بن الجوزي - عبد الرحمن بن علي ابن محمد (٥٩٧هـ) .

٣- طبقات الصوفية. للسلمى - محمد بن الحسين بن محمد (٤١٢هـ) .

٤- الرسالة القشيرية (١) . لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (٤٦٥هـ) .

٥- طبقات الأولياء. لابن الملقن - عمر بن علي بن أحمد (٨٠٤هـ) .

٦- الطبقات الكبرى - وتسمى: لواقح الأنوار في طبقات الأخيار. للشعراني - عبد الوهاب بن أحمد بن علي (٩٧٣هـ) .

ي- تراجم اللغويين والنحاة

١- نزهة الألباء في طبقات الأدباء. لابي البركات الأنباري - عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (٥٧٧هـ) .

٢- إنباه الرواة على أنباه النحاة (٢) . للقفطي - علي بن يوسف بن إبراهيم (٦٤٦هـ)

٣- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. للسيوطي - عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (٩١١هـ) .

ك- تراجم الأباء والشعراء

١- طبقات فحول الشعراء (١) . لابن سلام الجمحي - محمد بن سلام بن عبيد الله (٢٣٢هـ) .

٢- الشعر والشعراء (٢) . لابن قتيبة - عبد الله بن مسلم (٢٧٦هـ) .

٣- طبقات الشعراء. لابن المعتز - عبد الله بن محمد (٢٩٦هـ) .

٤- الأغاني (٣) . لأبي الفرج الأصبهاني - على بن الحسين بن محمد (٣٥٦هـ) .

٥- المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء. للآمدي - الحسن بن بشر بن يحيى (٣٧٠هـ) .

٦- معجم الشعراء (١) . للمرزباني - محمد بن عمران بن موسى (٣٨٤هـ) .

٧- يتيمة الدهر - وتتمة اليتيمة. كلاهما لأبي منصور الثعالبي - عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (٤٢٩هـ) .

٨- دمية القصر وعصره أهل العصر. للباخرزي - علي بن الحسن بن علي (٤٦٧هـ) .

٩- خزيدة القصر وجريدة أهل العصر. للعماد الأصفهاني الكاتب - محمد بن محمد بن حامد (٥٩٧هـ) وهي في أقسام:

قسم شعراء مصر.

قسم شعراء الشام.

قسم شعراء العراق.

قسم شعراء المغرب والأندلس.

وقد طبع القسم الأول في مصر، بتحقيق الأستاذة: أحمد أمين، وشوقي ضيف، وإحسان عباس. وطبع الثاني في دمشق، بتحقيق الدكتور شكري فيصل، وطبع الثالث في بغداد بتحقيق العلامة الشيخ محمد بهجة الأثري.

أما القسم الرابع فقد طبع أولاً في مصر، بتحقيق الأستاذين علي عبد العظيم، وعمر الدسوقي، ثم طبع بعد ذلك في تونس، بتحقيق الأساتذة: محمد المرزوقي، ومحمد العروسي المطوي، والجيلاني بن الحاج يحيى، وآذرتاس آذرنوس.

ويقول الأستاذ خير الدين الزركلي، رحمه الله، تعليقاً على ذلك: "وكانت في طريقة طبعة إقليمية خبيثة في الأدب (١) ".

فإن كان الزركلي يشير إلى شيء قد عرفه ولم يصرح به، حياءً منه أو ستراً، فلا بأس ولا نكران.

أما إ، كان يريد استقلال علماء كل بلد بتحقيق القسم الخاص ببلدهم، فلا إقليمية في ذلك، بل إن هذا ما ينبغي أن يكون - وأهل مكة أدرى بشعابها، كما قالوا. وآية ذلك أن طبعة تونس من "القسم الخاص بشعراء المغرب والأندلس" تفضل بكثير الطبعة المصرية منه (٢) .

وأزيد ذلك بياناً بمثالين: الأول: طبعة دار الكتب المصرية من كتاب النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة. فما كان لأحد غير محمد

رمزي بك، الجغرافي المصري الكبير، أن يكتب هذه الحواشي النافعة على الكتاب، والتي حقق بها كثيراً من أسماء المدن والقرى المصرية (١) .

والمثال الثاني: ذلك النقد الذي كتبه العلامة الشيخ حمد الجاسر، على الطبعة الكويتية من " تاج العروس"، والذي تناول أوهاماً حول أسماء البلدان والمواضع في الجزيرة العربية. والشيخ حمد الجاسر، هو فارس ذلك الميدان، غير مدفوع ولا مزاحم.

أما ما وراء تلك الخصوصية البلدانية، من علوم الأمة وفنونها، فالكل فيه سواء، ولا تفاضل بين الناس في ذلك، إلا بالعلم والإحاطة.

١٠- معجم الأدباء - ويسمى إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٢) . لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (٦٢٦هـ) .

١١- المحمدون من الشعراء (٣) . للقفطى - علي بن يوسف بن إبراهيم (٦٤٦هـ) .

١٢- ريحانة الألبا (١) . للشهاب الخفاجي - أحمد بن محمد بن عمر (١٠٦٩هـ) .

١٣- نفحة الريحانة. للمحبى - محمد أمين بن فضل الله (١١١١هـ) .

١٤- خزانة الأدب (٢) . للعلامة عبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٩٣هـ) .

وهذا الكتاب شرح لشواهد الرضى على الكافية في النحو، ولكن البغددي رحمه الله نفذ من خلال هذا الشرح إلى تراجم الشعراء والأدباء والعلماء، وأتى بكل غريبة وعجيبة من علوم العربية وفنونها.

ل- تراجم الأطباء والفلاسفة

١- طبقات الأباء والحكماء (٣) . لابن جلجل الأندلسي

- سليمان بن حمد (بعد ٣٧٧هـ) .

٢- تاريخ حكماء الإسلام. للبهقي - علي بن زيد بن محمد (٥٦٥هـ) .

٣- إخبار العلماء بأخبار الحكماء. للقفطي - علي بن يوسف ابن إبراهيم (٦٤٦هـ) .

٤- عيون الأنباء في طبقات الأطباء (١) . لابن أبي أصبيعة - أحمد بن القاسم بن خليفة (٦٦٨هـ) .

م- تراجم القضاء

١- أخبار القضاة. لوكيع - محمد بن خلف بن حيان (٣٠٦هـ) .

٢- الولاة والقضاة. لأبي عمر الكندي - محمد بن يوسف بن يعقوب. (بعد ٣٥٥هـ)

٣- قضاة قرطبة. للخشني - محمد بن الحارث بن أسد القيرواني الأندلسي (نحو ٣٦٦هـ) .

٤- رفع الإصر عن قضاة مصر (٢) . لابن حجر العسقلاني - أحمد بن علي بن محمد (٨٥٢هـ) .

٥- ذيله المسمى: بغية العلماء والرواه (١) . لشمس الدين السخاوي - محمد بن عبد الرحمن محمد - وهو تلميذ ابن حجر - (٩٠٢هـ) .

٦- قضاة دمشق. ويسمى: الثغر بسام في ذكر من ولى قضاء الشام لابن طولون - محمد بنعلي بن أحمد (٩٥٣هـ) .

ن- تراجم الخلفاء

١- أسماء الخلفاء والولاة (٢) . لابن حزم - علي بن أحمد بن سعيد (٤٥٦هـ) .

٢- الإنباء في تاريخ الخلفاء (٣) . لمحمد بن علي بن محمد، المعروف بابن العمراني (نحو ٥٨٠هـ) .

٣- تاريخ الخلفاء. للسيوطي - عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ) .

٤- اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطمين الخلفا. للمقريزي - أحمد بن علي بن عبد القادر (٨٤٥هـ) .

ص - تراجم الوزراء

١- الوزراء والكتاب. للجهشياري - محمد بن عبدوس بن عبد الله (٣٣١هـ) .

٢- تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (١) . لهلال بن المحسن بن إبراهيم الصابى (٣٣١هـ)

٣- الإشارة إلى من نال الوزارة. لابن الصيرفي - علي بن منجب بن سليمان (٥٤٢هـ)

٤- النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية (٢) . لنجم الدين عمارة بن علي بن زيدان الحكمي اليمني (٥٦٩هـ) .

ع- تراجم المؤرخين

١- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. لشمس الدين السخاوي - محمد بن عبد الرحمن ابن محمد (٩٠٢هـ) .

ف- تراجم النسابين

١- منية الراغبين في طبقات النسابين (١) . للسيد عبد الرزاق ابن السيد حسن كمونة الحسيني. فرغ من تأليفه سنة ١٣٨١هـ.

ض- تراجم النساء

١- الدر المنثور في طبقات ربات الخدود. لزينب بن علي بن حسين - الشهيرة بزينب فواز العاملي (١٣٣٢هـ) .

٢- أعلام النساء. للأستاذ عمر رضا كحلة. أطال الله في النعمة بقاءه.

ق- التراجم على البلدان

١- أخبار مكة (١) وما جاء فيها من آثار. للأزرقي - محمد بن عبد الله بن أحمد (نحو ٢٥٠هـ) .

٢- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين. لتقى الدين الفاسي - محمد بن أحمد بن علي (٨٣٢هـ) .

٣- إتحاف الورى بأخبار أم القرى. لنجم الدين فهد فهد - عمر بن محمد بن محمد (٨٨٥هـ) .

٤- تاريخ المدينة [المنورة] لأبي زيد عمر بن شبة (٢٦٢هـ) .

٥- الدرة الثمينة في تاريخ المدينة (٢) . لابن النجار - محمد بن محمود بن الحسن (٦٤٧هـ)

٦- المغانم المطابة في معالم طابة. للفيروز إبادي - محمد بن يعقوب بن محمد (٨١٧هـ) .

٧- التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة. للسخاوي - محمد بن عبد الرحمن بن محمد (٩٠٢هـ) .

٨- وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى. للسمهودي - على بن عبد الله بن أحمد (٩١١هـ) .

- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (١) . لمجير الدين العليمي الحنبلي - عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن (٩٢٨هـ) .

١٠- تاريخ إربل - المسمى - المبارك بن أحمد اللخمى الأماثل (٢) . لابن المستوفى الإربلى-المبارك بن أحمد اللخمي (٦٣٧هـ) .

١١- ذكر أخبار أصبهان (٣) . لأبي نعيم الاصبهاني - أحمد عبد الله بن أحمد (٤٣٠هـ) .

١٢- تاريخ بغداد (٤) . للخطيب البغدادي - أحمد بن علي بن ثابت (٤٦٣هـ) .

- تاريخ جرجان. للسهمى - حمزة بن يوسف بن إبراهيم (٤٢٧هـ) .

١٤- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء. للشيخ محمد راغب ابن محمود الطباخ (١٣٧٠هـ) .

١٥- تاريخ دمشق (١) . للحافظ ابن عساكر- علي بن الحسن بن هبة الله (٥٧١هـ) .

ولهذا الكتاب قيمة أدبية كبرى - إلى جانب قيمته التاريخية - لعنايته بتراجم الشعراء وذكر أخبارهم وأشعارهم. فينبغي أن يوضع أيضاً في مصادر تاريخ الأدب.

١٦-تهذيب تاريخ دمشق (٢) السابق. للشيخ عبد القادر بن ابن مصطفى بن محمد. المعروف بعبد القادر بدران (١٣٤٦هـ) .

١٧- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (موريتانيا الآن) لأحمد ابن الأمين الشنقيطي (١٣٣١هـ) .

١٨- تاريخ ثغر. لعبد الله الطيب بن عبد الله بامخرمة (٩٤٧هـ) .

١٩- فضائل مصر. لعمر بن محمد بن يوسف الكندي (كان حياً في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) .

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. لابن ثغرى بردى (١) - يوسف بن تغرى بردي بن عبد الله (٨٧٤هـ) .

٢١- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. للسيوطي - عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ) .

٢٢- الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء السعيد [صعيد مصر] للأدفوي - جعفر بن (٢) تغلب بن جعفر (٧٤٨هـ) .

٢٣- السلوك لمعرفة دول الملوك [بمصر] للمقريزي - أحمد بن علي بن عبد القادر (٨٤٥هـ) .

٢٤- تاريخ الموصل. للأزدي - يزيد بن محمد بن إياس (٣٣٤هـ) .

٢٥- تاريخ مدينة صنعاء. لأحمد بن عبد الله بن محمد الرازي الصنعاني. (نحو سنة ٥٠٠هـ) (٣) .

٢٦- طبقات فقهاء اليمن. لابن سمرة الجعدي - عمر بن علي بن سمرة (بعد ٥٨٦هـ) .

٢٧- قرة العيون في أخبار اليمن الميمون (٤) . لابن الديبع الشيباني - عبد الرحمن بن علي ابن محمد (٩٤٤هـ) .

ر- التراجم على القرون

١- الذيل على الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) لأبي شامة المقدسي- عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (٦٦٥هـ) .

٢- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. للشوكاني - محمد بن علي بن محمد (١٢٥٠هـ) .

٣- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١) . لابن حجر العسقلاني - أحمد بن علي بن محمد (٨٥٢هـ) .

٤- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. لشمس الدين السخاوي - محمد بن عبد الرحمن بن محمد (٩٠٢هـ) .

٥- النور السافر عن أخبار القرن العاشر. لعبد القادر بن شيخ ابن عبد الله العيدروس (١٠٣٨هـ) .

٦- الكواكب السائرة في أعان المائة العاشرة. لنجم الدين الغزى - محمد بن محمد بن محمد (١٠٦١هـ) .

٧- خلاصة الأثر في أعيان الحادي عشر. للمحبى - محمد أمين بن فضل الله بن محب الله (١١١١هـ) .

٨- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني [عشر] للقادري - محمد الطيب بن عبد السلام الحسنى (١١٨٧هـ) .

٩- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر. للمرادي - محمد خليل بن علي بن محمد (١٢٠٦هـ) .

١٠- الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر. للآلوسي. علاء الدين بن نعمان بن محمود (١٣٤٠هـ) .

١١- حيلة البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. لعبد الرزاق بن حسن البيطار (١٣٣٥هـ) .

١٢- المسك الأذفر في تراجم علماء القرن الثالث عشر. للآلوسي. محمود شكري بن عبد الله (١٣٤٢هـ) .

١٣- تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر. لأحمد باشا تيمور (١٣٤٨هـ) .

١٤- الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية. للوراق المصري زكي محمد مجاهد (١) ، المتوفى منذ نحو سبع سنوات

وهذا الكتاب - فيما أعلم - آخر تلك السلسلة، في الترجمة على القرون..

س- التراجم العامة

وهي على قسمين:

التراجم المرتبة على السنين.

التراجم المرتبة على الأسماء.

ومراجع الطائفة الأولى تتمثل في كتب التاريخ العامة، التي تترجم للأعلام، على السنوات، فتذكر في أحداث كل سنة من توفى فيها من الأعلام.

ومن أبرز مراجع كتب التاريخ هذه:

١- تاريخ الأمم والملوك (١) . لابن جرير الطبري - محمد بن جرير بن يزيد (٣١٠هـ) .

٢- الكامل (٢) . لعز الدين بن الأثير - على بن محمد بن عبد الكريم (٦٣٠هـ) .

٣- البداية والنهاية (١) . لابن كثير - إسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ) .

٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب. لابن العماد الحنبلي - عبد الحي بن أحمد بن محمد (١٠٨٩هـ) .

التراجم المرتبة على الأسماء

من أبرز كتب هذه الطائفة:

١- وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان - لابن خلكان - أحمد بن محمد بن إبراهيم (٦٨١هـ) .

٢- فوات الوفيات. لابن شاكر الكتبي - محمد بن شاكر بن أحمد (٧٦٤هـ) .

٣- الوافي بالوفيات (١) . لصلاح الدين الصفدي - خليل بن أيبك بن عبد الله (٧٦٤هـ) .

٤- سير أعلام النبلاء (٢) . للذهبي - محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ) .

ت- تراجم أهل المغرب والأندلس

١- تاريخ علماء الأندلس (١) . لابن الفرضى - عبد الله بن محمد بن يوسف (٤٠٣هـ)

٢- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (٢) . للحميدي محمد بن فتوح بن عبد الله (٤٨٨هـ) .

٣- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٣) . لابن بسام - علي بن بسام الشنتريني (٥٧٨هـ) .

٤- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس (٤) . لابن بشكوال - خلف ابن عبد الله بن مسعود (٥٧٨هـ) .

٥- التكملة لكتاب الصلة. لابن الأبار- محمد بن عبد الله بن أبي بكر (٦٥٨هـ) .

٦- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. لابن عبد الملك - محمد بن محمد بن عبد الملك (٧٠٣هـ) .

٧- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس. للفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان (١) القيسي (٥٢٨هـ) .

٨- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس. لابن عميرة الضبي - أحمد بن يحيى بن أحمد (٥٩٩هـ) .

٩- المعجب في تلخيص أخبار المغرب. لعبد الواحد بن علي التيمي المراكشي (٦٤٧هـ)

١٠- الحلة السيراء (٢) -في تاريخ أمراء المغرب. لابن الأبار- محمد بن عبد الله بن أبي بكر (٦٥٨هـ) .

١١- المعجم في أصحاب القاضي الصدفي. لابن الأبار- محمد بن عبد الله بن أبي بكر (٦٥٨هـ) .

١٢- المغرب في حلى المغرب. لابن سعيد المغربي الأندلسي - على بن موسى بن محمد (٦٨٥هـ) .

١٣- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة. لابن سعيد المغربي الأندلسي - علي بن موسى بن محمد (٣) (٦٨٥هـ.

١٤- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة. للسان الدين بن الخطيب - محمد بن عبد الله بن سعيد (٧٧٦هـ) .

١٥- الإحاطة في أخبار غرناطة. للسان الدين بن الخطيب أيضاً.

١٦- دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشاهير القرن العاشر (١) . لمحمد بن علي بن عمر الحسني (٩٨٦هـ) .

١٧- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٢) . للمقرى - أحمد بن محمد بن أحمد (١٠٤١هـ) .

١٨- أزهار الرياض في أخبار القاضى عياض (٣) . للمقرى - أحمد بن محمد بن أحمد (١٠٤١هـ) .

١٩- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. لابن أبي دينار - محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني (كان حياً سنة ١١١٠هـ) .

٢٠- الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى (٤) . لأحمد بن خالد ابن حماد الناصري السلاوي (١٣١٥هـ) .

٢١- دليل مؤرخ المغرب الأقصى. لعبد السلام بن سودة المتوفى منذ نحو خمس سنوات (١) .

ث- المراجع الهادية

وأعني بها تلك المراجع التي تهدي وتدل على المراجع الكبرى، بعد أن تقدم تعريفاً موجزاً بالمترجم له، وتأتي فيه على مولده ووفاته، وأبرز أعماله.

وقد كثرت هذه المراجع في العصر الحديث كثرة ظاهرة. ولا يستحق منها التنويه به، سوى كتابين (١)

، هما:

١- الأعلام؟ للأستاذ خير الدين الزركلي. رحمه الله.

١٢- معجم المؤلفين. للأستاذ عمر رضا كحالة. متعه الله بالصحة والسلامة.

* * *

أما " الأعلام " فهو خير كتاب لف في بابه، بل هو خير ما كتب كاتب في تراجم الرجال والنساء في هذا العصر.

وقد جعل الزركلي ميزان الاختيار عنده: "أن يكون لصاحب الترجمة علم تشهد به تصانيفه، أو خلافة أو ملك أو إمارة، أو منصب رفيع - كوزارة أو قضاء - كان له فيه

أثر بارز، أو رياسة مذهب، أو فن تميز به، أو أثر في العمران يذكر له، أو شعر، أو مكانة يتردد بها أسمه، أو رواية كثيرة، أو يكون أصل نسب، أو مضرب مثل. وضابط ذلك كله: أن يكون ممن يتردد ذكرهم، ويسأل عنهم " (١) .

وقد أفسح الزركلى في كتابه، مكاناً لهؤلاء النفر من المستشرقين، الذين قدموا خدمة للعربية، في مجال الدراسات ونشر النصوص.

ومحاسن هذا الكتاب كثيرة، وإن فأتنى ذكر هذه المحاسن مجتمعة، فإني أشير إلى أبرزها:

١- الدقة البالغة في تحرير الترجمة، وإبراز أهم ملامح العلم المترجم.

٢- ذكر ما قد يكون من خلاف، في الاسم (٢) ، والمولد والوفاة، ونسبة الكتب (٣) مع اتخاذ مواقف الحسم، أو الترجيح.

٣- تنقية بعض كتب التراجم مما علق بها، من وهم، أو تصحيف، أو تحريف.

٤- الرجوع في توثيق الترجمة إلى المصادر المخطوطة، إذا عزت المطبوعة، أو كانت الثقة بها نازلة (١) .

٥- الاستعانة بالمراجع الحية، من أهل العلم، والمنتسبين إلى مذهب المترجم (٢) .

٦- جلاء الغموض الذي يكتنف بعض الأعلام (٣) .

٧- التنبيه على بعض الفوائد العلمية (٤) .

٨- الإنصاف والبعد عن الهوى، وسوق الرأي الخاص ملفقاً في بجاد (١) النزاهة والتصون. وأكثر ما ترى ذلك في تراجم المعاصرين، من أهل الفكر والأدب والسياسة (٢) .

٩- الإحالة الذكية بعد الفراغ من الترجمة إلى أصول المصادر والمراجع.

١٠- ذكر نفائس المخطوطات ونوادرها، التي رآها في رحلاته وأسفاره. وكذلك التي اطلعه عليها أصدقاؤه (٣) ، وفي مقدمتهم السيد أحمد عبيد، بدمشق، وما أكثر ما أشار إليه في تعليقاته.

١١- إثبات صور خطوط العلماء قديماً وحديثاً. وهذا يفيد في توثيق المخطوطات التي يقال إنها بخطوط مؤليها. فعن طريق مضاهاة ما بيدك منها بما أثبته من تلك النماذج للخطوط، يظهر لك وجه الصواب، أو الخطأ.

ويتصل بذلك إثباته لتوقيعات الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء وصور المحدثين من المعاصرين، ومن قرب منهم، ممن أدركهم فن التصوير الفوتوغرافي.

١٢- وقد زان ذلك كله حسن البيان، وصفاء العبارة. فالرجل رحمه الله، كان أديباً شاعراً. وقد كان الأدب ومازال، خير سبيل لإيصال المعرفة، وسرعة أنصابها إلى السمع، واستيلائها على النفس. والبليغ يضع لسانه حيث أراد. وإنك لتجد كثيراً من الدراسات قد جمعت فأوعت، لكنها لم تبلغ مبلغها من النفع والفائدة؛ لجفافها وعسرها.

أما ما وراء ذلك من حلو الشمائل، وكرم الطبع، ونقاء الخلق، فهو مما لهج به الخاصة والعامة، ممن اتصلوا بالرجل، بسبب من الأسباب.

ولست أشك في أن إقامة الزركلى - رحمه الله - في مصر والمغرب، سنين ذوات عدد، قد أعانته على إقامة ذلك الصرح الشامخ. وآية ذلك أن كثيراً من نماذج المخطوطات، التي امتلأ بها كتابه، من محفوظات دار الكتب المصرية، ومعهد المخطوطات بالقاهرة، وخزائن الكتب الخاصة والعامة، بالمغرب الأقصى (١) .

وخلاصة القول: أن هذا الكتاب أبلغ رد على من يزعم أن العرب المعاصرين لم يصنعوا شيئاً ذا بال، في تاريخ رجالهم وأعلامهم.

وأنه لا ينبغي أن تخلو مكتبة طالب علم من هذا الكتاب.

وليت الذين يطبعون الكتب احتساباً وقربى، يدخرون لأنفسهم عملاً صالحاً بطبع هذا الأثر الباقي، وتمكين من لا يقدر على شرائه من قراءته ولانتفاع به.

* * *

وأما كتاب "معجم المؤلفين" للأستاذ عمر رضا كحالة، فهو عظيم النفع جليل الفائدة. وقد أبان عن منهجه، وغايته من تأليفه، فقال في تقدمته: "هذا معجم لمصنفي الكتب العربية، ومن عرب وعجم، ممن سبقوا إلى رحمة الله، منذ بدء تدوين الكتب العربية حتى العصر الحاضر. وقد أحلقت بهم من كان شاعراً، أو راوياً، وجمعت آثاره بعد وفاته".

وتراجم الكتاب غاية في الوجازة والاختصار، فهو لم يعن بترجمة المؤلف عنايته بذكر مصادر الترجمة، وقد توسع في ذلك توسعاً ظاهراً، وأتى بالقريب والبعيد، مما يعفى الباحث عن عناء التتبع والاستقصاء (١) .

خ-أنساب العرب

١- مختلف القبائل ومؤتلفها (١) . لابن حبيب - محمد بن حبيب بن أمية (٢٤٥هـ) .

٢- الاشتقاق (٢) . لابن دريد - محمد بن الحسن (٣٢١هـ) .

٣- الإيناس بعلم الأنساب (٣) . للوزير المغربي - الحسين بن علي بن الحسين (٤١٨هـ) .

٤- جمهرة أنساب العرب. لابن حزم - علي بن أحمد بن سعيد (٤٥٦هـ) . وهو أجمع كتاب في هذا الباب.

٥- عجالة المتبدى وفضالة المنتهى (٤) ، في النسب، لأبي بكر الحازمي - محمد بن موسى بن عثمان (٥٨٤هـ) .

هذا وقد بدأت وزارة الإرشاد والأنباء، بالكويت، في إخراج أصل كتب الإنساب جميعا، وهو كتاب " جمهرة النسب " لابن الكلبى - هشام بن محمد، المتوفى سنة (٢٠٤هـ) . وقد أصدرت منه الجزء الأول، عام ١٤٠٣هـ.

ذ-الأنساب بوجه عام

(إلى قبيلة، أو بلد، أو صناعة، ومذهب، أو شيخ (١))

١- الأنساب (٢) . لأبي سعد السمعاني - عبد الكريم بن محمد بن منصور (٥٦٢هـ)

٢- اللبان في تهذيب الأنساب (٣) . لعز الدين بن الأثير - علي بن محمد بن عبد الكريم (٦٣٠هـ) .

٣- لب اللباب في تحرير الأنساب (٤) . للسيوطي - عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)

ضبط الأعلام والكنى والألقاب والأنساب

معلوم أن العناية بالضبط والتقييد، إنما ترجع إلى علماء الحديث، الذين أرادوا أن يحاصروا مظاهر التصحيف والتحريف (١) ، في متون الأحاديث وأسانيدها، ثم قفا الأدباء والمؤرخون قفوهم، حتى استوى ذلك؛ فنا قائماً بنفسه، وتعددت فيه المصنفات.

فمن ذلك

١- المبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة (٢) . لأبي الفتح عثمان بن جنى (٣٩٢هـ) .

٢- الإكمال في رفع الارتياب عن المختلف والمؤتلف من الأسماء والكنى والأنساب. للأمير علي بن هبة الله بن علي، المعروف بابن ماكولا (٤٧٥هـ) .

٣- الأنساب المتفقة في الخط، المتماثلة في النقط والضبط. لابن الفيسراني - محمد بن طاهر بن علي (٥٠٧هـ) .

٤- المشتبه في الأسماء والأنساب والكنى والألقاب (٣)

. للذهبي

محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ) .

٥- تبصير المنتبه بتحرير المشتبه (١) . لابن حجر العسقلاني - أحمد بن علي بن محمد (٨٥٢هـ) .

٦- تحفة ذوى الأرب في مشكل الأسماء والنسب. لابن خطيب الدهشة - محمود بن أحمد بن محمد المتوفى سنة (٨٣٤هـ) وهو ابن الإمام الفيومي، صاحب "المصباح" في اللغة.

فهذه أبرز مراجع ضبط الأعلام والأنساب. وهناك كتابان داخلان في هذا الفن:

أما أحدهما فهو كتاب وفيات الأعيان. لابن خلكان، الذي ذكرته في "مراجع التراجم العامة". فقد جرى ابن خلكان، على أن يذكر في آخر الترجمة ما يشتبه ويلتبس من الأسماء والكنى والألقاب والأنساب، مقيداً ذلك بالعبارة والبيان الواضح، مما عرف عند العلماء بتقييدات ابن خلكان.

وأما الثاني فهو كتاب تاج العروس في شرح القاموس، للمرتضى الزبيدي. فإذا عز عليك شيء من المشتبهات، في تلك الكتب التي ذكرتها، فالتمسه من هذا الكتاب الجامع، الذي أتى على كثير من فوائد الضبط والتقييد، وخاصة في أعلام وأنساب المتأخرين.

وقد عول الزبيدي كثيراً، على كتاب " تبصير المنتبه " لابن حجر، الذي ذكرته. فإذا قال: "وقال الحافظ" فأعلم أنه يريده (١) .

ظ-مراجع البلدان والمواضع والمياه والجبال

١- بلاد العرب (١) . للحسن بن عبد الله الأصفهاني، المعروف بلغدة (من رجال القرن الثالث الهجري) .

٢- معجم ما استعجم في أسماء البلدان والمواضع (٢) . لأبي عبيد البكري الأندلسي - عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (٤٨٧هـ) .

وهذا الكتاب - إلى قيمته الجغرافية - يعد مصدراً من مصادر الأدب، وتوثيق الشعر، فقد حشد فيه أبو عبيد، طائفة كبيرة من الشعر، منزلة على منازلها في أسماء البلدان والمواضع.

٣- الأمكنة والمياه والجبال. لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (٥٣٨هـ) .

٤- معجم البلدان (٣) . لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (٦٢٦هـ) .

وهذا الكتاب هو أجمع ما صنف في الجغرافية العربية.

٥- والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً - في أسماء البلدان - لياقوت أيضاً (١) .

٦- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع. لعبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي الحنبلي (٧٣٩هـ) .

اختصر به " معجم البلدان " لياقوت. واستدرك عليه أشياء. قال في مقدمته: "وربما زدته بياناً في بعض المواضع، أو أصلحت ما تنبهت عليه فيه، من خلال وجدته ... وقد يكون مما رأيت في سفري، واجتزت به، وخاصة في أعمال بغداد، فإنه كثير الخطأ فيها " (٢) .

٧- الروض المعطار في خبر الأقطار. لمحمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري السبتي، المتوفى سنة (٧٢٧هـ) على ما حققه الدكتور إحسان عباس، في نشرته للكتاب (٣) .

٨- صفة جزيرة الأندلس.

انتزعه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال، من كتاب " الروض المعطار" المذكور، ونشره بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر، سنة ١٩٣٧م. وكنت حرياً أن أغفله، إذا كان أصله " الروض " قد طبع وذاع، لولا أني رأيت منه مصورة بيروتية ضالة، فأحببت أن أبين أمره، حتى لا يلتبس علي بعض المبتدئين. وربنا المستعان على ما ينشرون، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فهذه أشهر مراجع البلدان والجغرافية العربية.

على أن هناك معجماً لغوياً، يتصل بهذه السلسلة الجغرافية بنسب وثيق. ذلكم هو كتاب "تاج العروس في شرح القاموس" للمرتضى الزبيدي - محمد بن محمد بن محمد. (المتوفى سنة ١٢٠٥هـ) فقد ذكر أسماء البلدان العربية، وأنزلها منزلها من حروف المعجم. ثم هو فوق ذل حجة في بلدان ومواضع اليمن ومصر، وتعليل ذلك واضح، فقد كان منشأة في زبيد باليمن، وإقامته وأعماله العلمية بمصر. وهو يصف بعض البلدان في مصر واليمن، وصف الرائي المشاهد (١) .

غ- علم قوائم الكتب والفنون أو الببليوجرافيا العربية

أخذت دائرة التأليف العربي - في شتى العلوم والفنون - تتسع منذ منتصف القرن الثالث. وكان لابد من تسجيل هذا التراث وتصنيفه، على أبواب العلوم وأسماء الكتب.

ويعد ابن النديم - محمد بن إسحاق بن محمد، المتوفى سنة ٤٣٨هـ أول من عنى بهذا اللون من التأليف الكتبي، أو الببليوجرافي.

ولاشك أن اشتغال ابن النديم بصناعة الوراقة، وهي نسخ الكتب وبيعها، قد أظهره على أسماء الكتب، وطرائق تأليفها، مما أعانه على إقامة عمله الرائد هذا (١) .

وقد أبان ابنُ النديم عن منهجه، في تلك المقدمة الموجزة التي صدر بها كتابه. قال:

وهذا فهرست كتب جميع الأمم، من العرب والعجم، الموجود منها بلغة العرب وقلمها، في أصناف العلوم، وأخبار مصنفيها، وطبقات

مؤلفيها وأنسابهم، وتاريخ مواليدهم، ومبلغ أعمارهم، وأوقات وفاتهم، وأماكن بلدانهم، ومناقبهم ومثالبهم، منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا، وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة ".

وهكذا اختلط هذا العلم - علم قوائم الكتب - بعلم التراجم، وإن كانت الغلبة للأول. وظهر هذا المنهج القائم على المزج بين العلمين، في كتب الببليوجرافية كلها، على اختلاف مناهجها، بسطاً أو إيجازاً.

ومن أبرز كتب هذا الفن:

١- الفهرست، لابن النديم، الذي قدمت لك شيئاً من خبره.

٢- مفتاح السعادة ومصباح دار السيادة. لأحمد بن مصطفى ابن خليل. المعروف بطاش كبرى زاده (٩٦٨هـ) .

وقد أخضع المؤلف كتابه هذا، لتقسيمات فكرية، قائمة على رأيه في العلوم العربية والإسلامية؛ نظرية وعملية، مستهدفاً تصفية النفس الإنسانية، وإيصالها إلى السعادة عند طريق الاطلاع على العلوم والمعارف.

وفي أثناء ذلك يذكر موضوع كل علم، والغاية منه، وأسماء أبرز الكتب المصنفة فيه، مع الترجمة للمؤلفين. والتراجم عنده - في غالب أمره - منتزعة من كتب المرخين السابقين، بألفاظها وسياقها، كما رأيت من اتكائه على طبقات الشافعية الكبرى، لابن السبكي.

٣- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون؟ لمصطفى بن عبد الله. كاتب جلبى، المعروف بالحاج (١) خليفة (١٠٦٧هـ) .

وهذا الكتاب أجمع ما صنف في علم قوائم الكتب، وايسر ما ألف فيه أيضاً؛ وذلك لأن الحاج خليفة - رحمه الله - قد رتبه على حروف ألف باء، وأنزل الحدي عن موضوعات العلوم وأسماء الكتب، على منازل هذا الحروف. فعلم النحو مثلا يذكر في حرف النون، مع ذكر أبرز الكتب المصنفة فيه، والجبر والحساب يذكران في الجيم والحاء. وغالباً ما يذكر الكتاب مرتين: مرة في نفه، ومرة في مكانه من حروف الهجاء؛ فكتاب مثل " النهاية " لابن الأثير، يذكره في حرف الغين، في أثناء حديثه في علم "غريب الحديث" ثم يورده في حرف النون، وهو حق مكانه.

والمادة العلمية في هذا الكتاب غزيرة جداً، فقد ذكر نحو (٢٠٠) علم وفن، ونحو (١٥٠٠) عنوان كتاب، ونحو (٩٥٠٠) مؤلف (٢) .

وأحب أن ألخص لطالب العلم المبتدئ، فوائد هذا الكتاب، وهي - فيما أراه - أربع:

موضوعات العلوم.

عنوان الكتب.

ج- ... شروح الكتب. فقد حرص الحاج خليفة على ذكر كل ما يتصل بالكتاب: شرحاً أو اختصاراً، أو تذبيلا، أو نقداً.

د- وهذه فائدة رابعة، تفيد في توثيق الكتب، ونسبتها إلى مؤلفيها. وذلك ما ينقله الحاج خليفة، من خطبة الكتاب - يتحدث عنه - أو مقدمه. وقد أفادت هذه الطريقة في نسبة بعض المخطوطات لعارية من النسبة، أو المختلف في نسبتها، حين يتنازع الكتاب أكثر من مؤلف.

ومن ملاحظاتي الخاصة على هذا الكتاب، أنه أخل بشيء من تاريخ المغرب وعلومه، وكذلك ما يتصل بتاريخ اليمن وعلومه. ولذلك أسباب، ليس هنا موضع تفصيلها.

غير أن يبقى لذلك الكتاب قيمته العظيمة، في رصد حركة الفكر العربي، وتتبع مساره، منذ بداية التدوين حتى القرن الحادي عشر الهجري.

٤- أسماء الكتب المتمم لكشف الظنون. لعبد اللطيف بن محمد بن مصطفى الشهير برياضى زادة (١٠٧٨هـ) .

٥- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون. لإسماعيل باشا بن محمد أمين البغدادي (١٣٣٩هـ) .

فهذه مصنفات علم قوائم الكتب، أو المراجع الببليوجرافية (١) .

على أنه ينبغي التنبه إلى أن عناية العرب بهذا الفن، قد اتخذت شكلاً آخر، هو ما عرف بالمعاجم، والفهارس، والمشيخات، والأثبات والبرامج.

وهو لون من التأليف يجمع بين الشيوخ والكتب. فقد جرى كثير من (١)

العلماء على أن يصنع لنفسه معجماً، أو فهرساً، أو مشيخة، أو ثبتا، أو برنامجاً، يذكر فيه شيوخه الذين أخذ عنهم العلم، والكتب التي سمعها منهم، مسندة إلى مؤلفيها.

وهذا هو الملاك العام الذي يجمع تلك المصنفات، على اختلاف في مناهجها، يطول الكلام بذكره.

ويقول الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني - رحمه الله - في تعريف البرنامج: "إنه كتاب يسجل فيه العالم، ما قرأه من مؤلفات في مختلف العلوم، ذكراً عنوان الكتاب، واسم مؤلفه، وربما ذكر خلال ذلك، المكان الذي كان موضعاً لدرس، والتاريخ الذي بدأ فيه الدراسة، أو ختمها " (١) .

وهذا اللون من التأليف يعرفنا حياة الكتب، وحظوظها في عصر من العصور، ويكشف عن الاهتمامات العلمية، للبيئات العربية

والإسلامية، في الأزمان التي كتبت فيها تلك المعاجم والبرامج، إلى أنه يظهرنا على العلائق والصلات الفكرية، بين مشرق العالم العربي ومغربه.

فالكتب في هذا اللون من التأليف نابضة فوارة، تتنغش بالحياة، وتمور بالحركة. وهي في الطائفة الأولى الببليوجرافية؛ قوائم صامتة، تنطق إذا استنطقتها، وتعطي إذا فاتشتها.

كما أنك ترى من حياة الشيوخ، في تلك الكتب، وخاصة أمرهم، ودقائق سلوكياتهم ملالا تراه في كتب التراجم العامة والخاصة، التي تسرد حياة المترجم سردا. وما ظنك بتلميذ يكتب عن شيخه؟

وليس يخفى أن اهتمام العلماء بذلك الضرب من التأليف، إنما هو أثر من آثار المحدثين، الذين كانوا أول من استعمل لفظ "معجم"، وجمعوا فيه الأحاديث على ترتيب الصحابة، أو الشيوخ، أو البلدان، ثم انتقل الأمر من تسجيل مجموعات الأحاديث إلى تسجيل كل أنواع المرويات، في علوم الدين، واللغة، والأدب، كما انتقل لفظ "المعاجم" من المحدثين، إلى سائر الطبقات التي يترجم لها، فكانت معاجم الشعراء، ومعاجم الأدباء، ومعاجم البلدان (١) .

ومن أبرز تلك الكتب (٢) :

١- فهرسة ما رواه عن شيوخه أبو بكر محمد بن خير بن عمر الإشبيلي (٥٧٥هـ) وهو أشهر تلك الكتب، وأكثرها دوراناً عند العلماء والمحققين، الذي يلتمسون الصلات بين المشرق والمغرب. ومن انفع ما ذكره من ذلك حديثه عن الكتب التي حملها أبو

علي البغدادي القالي، ودخل بها إلى المغرب والأندلس، سنة ٣٢٨هـ، في أيام عبد الرحمن الناصر. إلى فوائد أخرى كثيرة.

٢- فهرس ابن عطية - وهو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الأندلسي، المتوفى نحو سنة (٥٤١هـ) وهو صاحب التفسير، المسمى: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.

٣- الغنية - فهرست شيوخ القاضى عياض بن موسى اليحصبى السبتي (٥٤٤هـ) .

٤- مشيخة ابن الجوزي - وهو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن محمد (٥٩٧هـ) .

٥- برنامج ابن أبي الربيع - وهو أبو الحسين عبيد الله بن أحمد ابن عبيد الله القرشي الإشبيلي السبتي (٦٨٨هـ) .

٦- فهرس الفهارس والأثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات. لمحمد عبد الحي بن عبد الكبير بن محمد الإدريسي، المعروف بعبد الحي الكتاني (١٣٨٢هـ) .

وهو - فيما أعلم - آخر تلك السلسلة من المنصفات.

وقد جعله ذيلاً على طبقات الحفاظ والمحدثين للحافظين بن ناصر، والسيوطي، إلى زمانه في منتصف القرن الرابع عشر الهجري.

حيث فرغ م نتأليفه عام ١٣٤٢هـ، وأتم تحريره وتهذيبه وتصحيحه عام ١٣٤٤هـ (١)

ش- تعريفات العلوم ومصطلحاتها

معلوم أن لكل علم حداً وتعريفاً، ولكل علم أيضاً مصطلحات ورسوماً. وقد يقع في المصطلح اشتراك لغوي، حين يستعمل في أكثر من علم: كالخبر عند المحدثين، والخبر عند النحاة، والخبر عند البلاغيين (١)

. ومثل الغصب في الشرع، وهو " أخذ مالٍ متقوم محترم بلا إذن مالكه بلا خفيفة". والغصب في آداب البحث والمناظرة، وهو " منع مقدمة الدليل، وإقامة الدليل على نفيها قبل إقامة المعلل الدليل على ثبوتها " (٢) .

وقد تكفل علماء كل علم بتعريفه، وتحديد مصطلحاته، ثم جاء آخرون فرأوا في توزع ذلك على العلوم والفنون كلفة ومشقة، فانتزعوا من العلوم تعريفاتها ومصطلحاتها، وجمعوهما في مصنفات مفردة، كانت أساساً لما عرف في تاريخ العلم بالموسوعات.

ولقد كانت عناية العرب بذلك اللون من التأليف مبكرة. فمن أقدم من صنف في ذلك: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف البلخي الخوارزمي الكاتب، المتوفى سنة ٣٨٧هـ، الذي صنف كتاب " مفاتيح العلوم ".

ثم تلته عدة مصنفات، دارت في هذا الفلك، وإن اختلفت بعض الاختلاف؛ من حيث التوسع في تعريف العلوم، وتحديد المصطلحات، والعناية بتراجم المصنفين.

وإليك أشهر المطبوع من هذه المصنفات:

١- مفاتيح العلوم (١) . لأبي عبد الله الخوارزمي، الذي ذكرت لك ريادته وسبقه.

٢- التعريفات. للسيد الشريف، علي بن محمد بن علي الجرجاني (٨١٦هـ) .

٣- الكليات. لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكوفي (١٠٩٤هـ) .

٤- كشاف اصطلاحات الفنون. لمحمد أعلى بن علي بن محمد التهانوى. أتم تأليفه سنة ١١٥٨هـ ولم يعرف له تاريخ وفاة.

٥- أبجد العلوم - ويسمى الوشى المرقوم في بيان أحوال العلوم - لأبي الطيب صديق (١) بن حسين بن علي الحسيني البخاري القنوجي (١٣٠٧هـ) .

وينبغي أن يدرج في هذا الفن أيضاً، الكتابان اللذان سبقا في "علم قوائم الكتب". وهما: مفتاح السعادة، لطاش كبرى زاده، وكشف الظنون، للحاج خليفة، وذلك لعنايتهما بتعريفات العلوم. وقد عول عليهما كثيرا صاحب " أبجد العلوم ".

الفصل الثانى

نماذج من كتب التراجم

الفهرست لابن النديم:

حين اتسع نطاق المعرفة، وكثر عدد الأعيان الذين لعبوا أدوارًا هامة في تاريخ الحياة العربية والمعرفة الإسلامية، والفنون الأدبية، كان من الطبيعي أن تتجه مناهج المؤلفين إلى الكتابة عن هؤلاء جميعًا بشكل يشفي الغلة ويروي الظمأ في نطاق دراسة علم بعينه أو عالم بذاته أو شاعر بتفرده. أو في نطاق كل ذلك مجتمعًا. فكان أن نشأت أنماط من الكتب التي تتولى الترجمة لأعيان العلماء وعظماء الشخصيات، وكان أهم تلك جميعًا كتب الطبقات، وكتب التراجم.

أما كتب الطبقات فإنها تترجم لجماعات من الأعيان اتَّحدت في الغالب مشاربهم، وتلاقت ثقافاتهم، وتوحدت تخصصاتهم، فهناك طبقات الشعراء، وطبقات الأدباء وطبقات المفسرين، وطبقات المحدثين، إلى غير ذلك من كتب الطبقات، وقد خصصنا طبقات الأدباء بباب منفرد في هذا الكتاب مضى قبل صفحات عدة.

وأما كتب التراجم فإنها في الأغلب لا تختص بفئة واحدة معينة متفقة المشارب، مشتركة أسباب المعرفة، وإنما تترجم لكل الأعيان من ملوك وسلاطين، ووزراء وقواد، وعلماء، وفلاسفة، وشعراء وأدباء، وفقهاء، وظرفاء إلى غير أولئك ممن تنطبق على الواحد منهم صفة عين من أعيان الزمان، وذلك باستثناء كتابين شهيرين هما كتاب "الفهرست" وكتاب "معجم الأدباء" الذي سوف يأتي ذكرهما بعد قليل ...

ونستطيع في ضوء ذلك أن نقسم كتب التراجم إلى خمسة أقسام محاولين أن نستعرض بعضًا منها في كل قسم من أقسامها تلك التي ذكرنا.

فأما القسم الأول، فإن له صفة الشمول بمعنى أنه يترجم للمادة العلمية نفسها ويعرف بأعيان علمائها والمؤلفين في ميدانها، ويذكر أسماء الكتب التي ألفها هؤلاء العلماء كل في ميدانه، ويأتي على رأس هذا القسم من كتب التراجم كتاب الفهرست لابن النديم.

وأما القسم الثاني، فهو ما يتعلق بتراجم أعيان بلد بذاته بكل ما تعنيه كلمة "عين" من معنى، أي الرؤساء والوزراء والقضاة والفقهاء، والمحدثين والأدباء والشعراء والفلاسفة والمتصوفة والزهاد والنحاة والقواد ومن إليهم. وفي مقدمة كتب التراجم التي التزمت هذا المنهج من الترجمة لأعيان بلد بذاته كتاب "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ والذي سوف يأتي حديثه بعد قليل. ومنها أيضًا كتاب "در الحبب في تاريخ أعيان حلب" لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الحنبلي، المتوفى سنة ٩٧١هـ، وهناك كتب كثيرة التزمت هذا المنهج من التأليف المختص ببلد بعينه.

وأما القسم الثالث، فقد عمد المؤلفون فيه إلى التخصص في الترجمة لأعيان فئة بذاتها هي جماعة العلماء من لغويين، وأدباء، وإخباريين، وفلاسفة، وغيرهم من أصحاب المؤلفات وخير كتاب يمثل هذا الصنف من كتب التراجم، هو كتاب "معجم الأدباء لياقوت الرومي المتوفى سنة ٦٣٦هجرية، وسوف يأتي حديثه بعد قليل.

وأما القسم الرابع، من كتب التراجم فقد تحرر مؤلفوه من التخصص العلمي ومن المحدودية بالترجمة لأعيان بلد بذاته فانطلقوا يترجمون لجميع الأعيان منذ أن وجد الأعيان العرب والأعلام المسلمون إلى زمان المؤلف نفسه، ويأتي في مقدمة هذه الكتب كتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ وكتاب "الوافي بالوفيات" لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤هـ، وكتاب "فوات الوفيات" الذي يعتبر ديلًا على وفيات الأعيان، وقد قام على تأليفه محمد بن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤هـ وسوف نتحدث عنهؤلاء جميعًا ومناهج كتبهم تفصيلًا فيماهو قادم من قول.

وأما القسم الخامس من كتب التراجم، فهو الذي رأى فيه مؤلفوه أن يحددوا أعيانهم بقرن بذاته من حيث الزمن، ولكنهم يطلقون لأنفسهم العنان من حيث المكان، فهو إذ يحددون فترة زمان أعيانهم بقرن بذاته يساحون على مساحة الأرض الإسلامية، من أقصى الهند وحدود الصين شرقًا إلى حدود الأطلنطي والأندلس غربًا ملتزمين جميعًا الترتيب الهجائي عند عرض أسماءهؤلاء الذين تناولوا سيرتهم بالترجمة والتعريف، ويأتي في مقدمةهذا القسم الخامس في التخصص في الترجمة لأعيان القرون كتاب "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" لشيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني العالم الأجل الذي يعتبر واحدًا من ألمع وأعلم علماء زمانه المتوفى سنة ٨٥٢هـ، ومنها كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوي المتوفى سنة ٩٠٥هـ، ومنها كتاب "الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة"

لنجم الدين الغزي العالم الجليل صاحب التآليف التي تنوف على الثلاثين المتوفى سنة ١٠٦١هـ.

ومن هذا القسم من الترجمة في نطاق القرون كتاب "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" لعالم زمانه محمد أمين المحبي المتوفى سنة ١١١١هـ ولنا مع هذا الكتاب وقفة نرجو أن تكون مفيدة، فهو في نظرنا أقرب هذا الصنف من الكتب اتصالًا بالأدب واحتفالًا بالشعر وابتهاجًا بالأدباء وتمثلًا للشعراء.

هذا ومن المفيد أن نشير إلى كتابين قديمين نوعًا وآخرين معاصرين لعلماء أجلاء اجتهد كل منهم في أن يخرج للناس كتابًا في الطبقات والتراجم، وأسماء الكتب ومؤلفيها، فأما الكتابان القديمان نوعا فهما كتاب "مفتاح السعادة" لطاش كبرى زاده، وكتاب "كشف الظنون" لحاجي خليفة. وكل من المؤلفين عالم جليل قضى حياته في خدمة العلوم العربية والإسلامية على الرغم من أن كلا منهما تركي المولد واللسان.

وأما الكتابان المعاصران، فأولهما للأستاذ عمر رضا كحالة الدمشقي، وقد اختصه صاحبه بالترجمة لأصحاب التآليف من العلماء أسماه "معجم المؤلفين".

وأما الكتاب المعاصر الثاني الذي نعنيه فقد عمد صاحبه إلى المنهج العام الذي يعرف فيه بكل من ورد على خاطره من أعلام ثقافتنا حتى المستشرقين منهم، إنه كتاب "الأعلام" للعالم المحقق خير الدين الزركلي، ولئن اكتفى صاحب الأعلام

بالترجمة القصيرة لكل علم من أعلامه فإنه يحاول جاهدًا أن يحيل القارئ إلى أكثر المراجع المتاحة التي تمكن الباحث من التوسع في التعرف بمن يريد التعرف به من الأعلام، وهو في الوقت نفسه حريص كل الحرص على أن يمد قارئه بتاريخي ميلاد ووفاة المترجم له ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، والكتاب في واقعه بمجلداته العشرة وباستدراكاته التي تشمل مجلدين آخرين يعتبر المفتاح لكل علم من أعلام الثقافة العربية وأعيان الحضارة الإسلامية ورواد التاريخ القومي، وفي رأينا أن هذا الكتاب الجليل ضرورة لا بد لكل باحث من أن يجعله في متناول يده على الرغم من القليل القليل من الهنات التي تفوت على الباحث المدقق مهما اشتد حرصه وزادت عنايته.

الفهرست لابن النديم

إن كتاب الفهرست يعتبر المحاولة الأولى في فن التراجم في التراث العربي والإسلامي، وهو مع بكورته زمنًا وأوليته من حيث المحاولة خرج إلى دنيا المعرفة شامخًا ثريًّا خصيبًا، بل إنه ليس المحاولة الأولى في التراجم وحسب بل إنه المحاولة الأولى في الببلوجرافيا العربية وبالتالي الببلوجرافيا العالمية من حيث الممارسة؛ لأن العرب كانوا من أصحاب السابقات في هذا الميدان من غيرهم.

فابن النديم -مؤلف الفهرست وهذا حاله- يعتبر رائد علم التراجم في الفكر الإسلامي والمكتبة العربية من حيث التأليف، وأما من حيث التطبيق فإن المكتبات الإسلامية الكبرى مثل مكتبة المستنصر في قرطبة، ودار الحكمة في القاهرة ودار العلم في بغداد فقط كانت تضارع أضخم المكتبات العالمية في زماننا هذا١، هذا فضلًا عن مكتبات الموصل، ودمشق، والبصرة، ونيسابور والري وأصبهان ومرو وغيرها من مكتبات المساجد والمدارس والمستشفيات.

إن شهرة ابن النديم من حيث كونه مؤلف أول كتاب عربي في التراجم، والببلوجرافيا واسعة عريضة، ولكن شخصه وسيرته لم يكونا موضع عناية أحد من كتاب التراجم الذين جاءوا بعده وإن استعانوا جميعًا بكتابه، ولا يدري أحد متى ولد أو مات. ولكننا نفهم من خلال كتابه "الفهرست" أمرين: الأول أنه ألف الكتاب على مراحل بدأها سنة ٣٧٧هـ حسبما هو واضح من مقدمته. والأمر الثاني أنه مات بعد سنة ٤٠٠هـ؛ لأنه يترجم لأعلام توفوا بعد سنة الأربعمائة مثل ابن نباتة التميمي شاعر سيف الدولة الذي ينص المؤلف على أنه توفي بعد الأربعمائة١.

أما مهنة ابن النديم فقد ذكر المؤرخون أنه كان وراقًا، والوراقة كانت مهنة كثير من الأدباء والعلماء. ولا يدخل في معنى الوراقة مجرد التجارة والكسب من الكتب كماهي الحال في أيامنا، فكما أن بين الناشرين في عصرنا علماء أفاضل، وأدباء مرموقين وفي الوقت نفسه يوجد بينهم مجرد مهنيين تجار، فكذلك كان الحال بين وراقي فترة التفجر العلمي الإسلامي والعربي. فياقوت الرومي صاحب المؤلفات الكثيرة الثمينة كان مع علمه الوفير وراقًا، وسعد بن علي المشهور بـ "دلال الكتب" ومؤلف "كتاب زينة الدهر" الذي جعله ذيلًا لدمية القصر -وصاحب غيره من المؤلفات- كان وراقًا، ومحمد بن شاكر الكتبي صاحب "فوات الوفيات" وغيره من المؤلفات الثمينة كان أيضًا وراقًا، وإذًا فابن النديم: محمد بن إسحق كان واحدًا منهؤلاء الوراقين العلماء الذين جعلوا من العلم زادًا لعقولهم، ومن تجارة الكتب ونشرها وتحقيقها وجمعها وتصويبها ومراجعتها وسيلة لكسب قوتهم وأسباب حياتهم.

منهج الكتاب:

لقد اعتمد ابن النديم منهج الترجمة للموضوعات والفنون وذكر الكتب، ومن خلالهما ينفذ إلى الترجمة لكل عالم في فنه وكل مؤلف في موضوعه. ويمكن عرض منهج ابن النديم في "فهرسه" على النحو التالي:

أولًا: استهدف المؤلف الدخول إلى موضوعه مباشرة دون مقدمات أو مداخل، وليس أدل على ذلك من مقدمته القصيرة التي قدم بها كتابه النفيس بقوله:

"النفوس -أطال الله بقاءك- تشرئب إلى النتائج دون المقدمات وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل في العبارات، فلذلك اقتصرنا على هذه الكلمات في صدر كتابنا هذا إذا كانت دالة على ما قصدناه في تأليفه إن شاء الله، فنقول وبالله نستعين وإياه نسأل الصلاة على جميع أنبيائه، وعباده المخلصين في طاعته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فهذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم، الموجود فيها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفيها، وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم، وأوقات وفاتهم، وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا، وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة"١.

فمن هذه المقدمة القصيرة نستطيع أن نلمح منهج المؤلف تمام الوضوح، وأنه عمد فيه إلى الإيجاز وادخر الإفاضة للمادة التي يضمها الكتاب.

ثانيًا: ويزيدنا المؤلف تعريفًا بماة كتابته في المحتوى الذي قدمه بنفسه في صدر كتابه حين قسم الكتاب إلى عشر مقالات، أو بالحري عشرة أبواب كبار، كل باب يضم عددًا من الفصول. وإن دل ذلك على المنهج وهذا المحتوى على شيء فإنما يدل على عقلية مرتبة، وفكر منظم وخطة منسقة، ذلك؛ لأن المؤلف يتدرج في عرض موضوعاته تدرجًا منطقيًّا، فهو يجعل المقالة الأولى لفنون ثلاثة، هي وصف لغات الأمم من العرب والعجم ونعوت أقلامها وأنواع خطوطها وأشكال كتاباتها، إذ بغير الخط لا تكون كتابة. ثم يثني المؤلف بالشرائع والمذاهب الإسلامية وكتبها، ومن هذا المنطلق ينعطف إلى علوم القرآن الكريم وأسماء الكتب المؤلفة في علومه وأخبار القراء وأسماء الرواة.

وينتقل ابن النديم بعد ذلك انتقالًا طبيعيًّا إلى المقالة الثانية، التي يضمن خلالها ثلاثة فصول عن النحو، والنحويين من بصريين، وكوفيين وأخبارهم وأسماء كتبهم.

ويجعل ابن النديم المقالة الثالثة، أو الباب الثالث، من الفهرست للأخبار، والآداب، والسير مضمنًا إياه أخبار الإخباريين، والرواة والنسابين، وأصحاب السير والأحداث وأسماء كتبهم. وأخبار القدماء والجلساء والمغنين والمضحكين وأسماء كتبهم.

ويخصص المؤلف المقالة الرابعة للشعر والشعراء ابتداء من الشعراء الجاهليين، وانتهاء بالشعراء المعاصرين له وصناع دواوينهم وأسماء رواتهم.

والمقالة الخامسة جعلها لعلم الكلام والمتكلمين من معتزلة ومرجئة وشيعة بفرقها وجبرية وخوارج وزهاد ومتصوفة وأخبارهم وأسماء كتبهم. وجعل المقالة السادسة في فنون الفقه والفقهاء والمحدثين وأخبارهم وأسماء كتبهم، والمقالة السابعة عن الفلاسفة والمناطقة والمهندسين، والموسيقيين، والرياضيين، والمنجمين، وصناع الآلات، وأصحاب الحيل والحركات، والأطباء، والمتطببين وأخبارهم وأسماء كتبهم. وجعل المقالة الثامنة عن الأسمار والخرافات والسحر والشعوذة وأصحاب هذه المهن إن صح أن تسمى مهنا وأخبارهم وأسماء كتبهم، هذا فضلًا عن كتب شتى لا يعرف مصنفوها ولا مؤلفوها.

وجعل ابن النديم المقالة التاسعة من كتابه في المذاهب والاعتقادات المعاصرة لزمانه من صابئة، وثنوية، ومنانية، وديصانية، وخرمية، ومزدكية وغيرها مع أخبار رجالها وأسماء كتبهم.

وأنهى ابن النديم كتابه بالمقالة العاشرة التي خصصها للكيمائيين، والصنعويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين وأخبارهم وأسماء كتبهم.

ثالثًا: يعتبر الكتاب والحال كذلك دائرة معارف علمية أدبية فقهية في نطاق فن التراجم، والتراجم في مفهومه تراجم مادة وتراجم أعيان، بمعنى أنه يقدم المادة،

ويعرف بها ثم بعلمائها وأعلامها تعريفًا مختصرًا، ولكنه شافٍ مؤدٍ للغرض، ثم يذكر أسماء كتبهم. وهو في هذا الميدان عالم ثقة، ورائد لكل من جاء بعده على مختلف مدارسهم. وهو بعد ذلك كله مبدع على اختصاره، مفصل على إيجازه، جماع ثقة للأخبار، معرف بارع بالأعلام والعلماء، صيرفي في معرفة الكتب وتصنيفها. ومن ثم فإن "فهرست" ابن النديم في عالم المعرفة العربية والتراجم العلمية، مثل قطعة من الجوهر صغيرة الحجم، والجرم، نفيسة القيمة، والمحتوى.

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي

إن كتاب تاريخ بغداد واحد من أشهر كتب التراجم في ميدان الثقافة العربية والإسلامية، وهو بالإضافة إلى شهرته قمة شامخة الذروة من كتب التراجم صدق رواية وحسن عرض وثقة أخبار، وهو في الوقت نفسه رأس المدرسة التي تنهج الترجمة لأعيان مدينة بعينها، وهو في هذا المقام رأس أساتذة هذه المدرسة جميعًا*.

ومؤلف "تاريخ بغداد"هو الخطيب البغدادي واسمه كاملًا أحمد بن علي بن ثابت وكنيته أبو بكر، ومولده في غزية -منتصف الطريق بين الكوفة ومكة- سنة ٣٩٢هـ ووفاته في بغداد سنة ٤٦٣هـ. وصاحب تاريخ بغداد من الرواة الثقات والمحدثين الصادقين والعلماء الأجلاء والأدباء الأبيناء، رحل في سبيل العلم إلى مكة والبصرة والكوفة والدينور حتى إذا استقامت له أسباب المعرفة وتهيأت له مؤهلات الرواية وأسلس العلم له قياده جلس في جامع المنصور في بغداد يلقى دروسه على طالبي العلم. ومن الطريف أنه واحد من العلماء القليلين الذين أخذ عنهم أساتذتهم، فقد روى عنه من شيوخه، الأزهري، كما روى عنه آخرون كثيرون١.

وقد ثار عليه الحنابلة أكثر من مرة؛ لأنه كان ينكر الفقه على الإمام أحمد ويقول في ترجمته: أحمد بن حنبل سيد المحدثين. ويقول في ترجمة الشافعي: إنه تاج الفقهاء.

وكان الخطيب البغدادي عالمًا وقورًا حسن الشكل، وفير العلم في الفقه والحديث

والتاريخ واللغة والأدب والأخبار، يذكره ياقوت بقوله: ختم به ديوان المحدثين، ويذكره ابن خلكان فيقول: ومن العجب أنه كان في وقته حافظ المشرق، وأبو عمر يوسف بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب حافظ المغرب، وماتا في سنة واحدة١.

ويذكر مؤرخو الخطيب البغدادي خبرًا ينم عن ذكائه وأهليته للرواية وقدرته على كشف الزيف وسرعة بديهته وقوة عارضته فضلًا عن حفظه للتاريخ. أما الخبر فهو أن أحد اليهود أظهر كتابًا ادعى أنه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادات الصحابة، وأنه خط علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فعرض الكتاب على الخطيب فقال: هذا مزور، فقيل له: من أين لك ذلك؟ قال: في الكتاب شهادة معاوية بن أبي سفيان، ومعاوية أسلم يوم الفتح، وخيبر كانت في سنة سبع، وفيه شهادة سعد بن معاذ، وكان مات يوم الخندق سنة خمس، وهكذا أثبت الرجل بمنطقه وعلمه بالتاريخ تزوير الكتاب٢.

ولم يكن مقام الخطيب كله في بغداد، فقد اضطر للاستثار والخروج منها لأسباب اختلف في ذكرها المؤرخون، ووفد إلى الشام، وأقام في "صور" مدة من الزمان تردد خلالها على القدس أكثر من مرة، ومر في طرابلس وحلب وأقام بهما وقتًا قليلًا، ثم عاد إلى بغداد قبل وفاته بعام واحد فوقف كل كتبه، وفرق أمواله في وجوه البر وعلى أهل العلم الحديث، وما لبث المرض أن حط عليه فمات في ذي الحجة سنة

٤٦٣هـ تاركًا من المؤلفات مائة كتاب على رواية ابن خلكان ٣ وستة وخمسين على رواية ياقوت الحموي ٤ في مختلف الفنون أهمها على الإطلاق "تاريخ بغداد".

على أن للخطيب البغدادي كتبًا أخرى مطبوعة غير تاريخ بغداد منها الكفاية والرواية في مصطلح الحديث، وتقييد العلم، والتطفيل. ومن كتبه المخطوطة: البخلاء، كتاب الخيل، الفوائد المنتخبة في الحديث، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ويقع في عشرة مجلدات، الفقيه والمتفقه في اثنى عشر جزءًا، الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة الأسماء والألقاب، تلخيص المتشابه في الرسم، كتاب التنبيه، والتوقيف في فضائل الخريف. وأما كتبه في الحديث فمن الوفرة والدقة بمكان، منها -غير ما ذكرنا- على سبيل المثال: الرحلة في طلب الحديث، شرف أصحاب الحديث، كتاب المؤتنف في تكملة المختلف والمؤتلف، كتاب التبيين لأسماء المدلسين، كتاب من حدث فنسي، كتاب رواية

الآباء عن الأبناء، كتاب الرواة عن مالك بن أنس، كتاب الاحتجاج للشافعي فيما أسند إليه والرد على الجاهلين بطعنهم عليه.

منهج كتاب تاريخ بغداد:

إنه بيت القصيد في هذا الفصل وإنما -كعادتنا- وكنهج علمي سليم نجد من الضرورة بمكان التعريف بالمؤلف تعريفًا سريعًا حتى يسبر قارئ كتبه غوره، ويلم بأطراف علمه وطبيعة ثقافته، وإن المؤرخين وكتاب التراجم والطبقات حين يترجمون للخطيب البغدادي يقولون: لو لم يكن له إلا "التاريخ" -يعني تاريخ بغداد- لكفى، فلنعرض إذن لمنهج الكتاب وطبيعته على النسق الذي تعودنا السير عليه والنهج الذي اخترناه لأنفسنا مسلكًا أقرب إلى اليسر للإلمام بالكتاب والإبانة عن مزاياه والإشارة إلى ما فاته فيما إذا كان قد فاته شيء ذو بال.

أولًا: لخص المؤلف منهجه لكتابه الطويل -أول الأمر- في سطور قصيرة موجزة غير مطولة، مجملة غير مفصلة وذلك في قوله:

"هذا كتاب تاريخ مدينة السلام وخبر بنائها، وذكر كبراء نزالها، وذكر وارديها وتسمية علمائها. ذكرت من ذلك ما بلغني علمه وانتهت إلي معرفته، مستعينًا على ما يعرض من جميع الأمور بالله الكريم، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. أخبرنا عبد العزيز بن أبي الحسن القرميسيني قال: سمعت عمر بن أحمد بن عثمان يقول: سمعت أبا بكر النيسابوري يقول: سمعت عبد الأعلى يقول: قال لي الشافعي: يا يونس دخلت بغداد؟ قلت: لا. قال: ما رأيت الدنيا١.

كان ذلك هو منهج الخطيب في تأليفه كتابه الكبير: تاريخ المدينة لفضلها وخبر ساكنيها والوافدين عليها من العلماء في منهج من أدق المناهج، وهو منهج أهل الحديث في تحقيق الأخبار قبل روايتها، وقد مر بنا القول إن المؤلف كان كبير محدثي عصره، وإنه كان حجة في التمييز بين الصحيح، والمدلس من الأخبار.

ثانيًا: أفرد المؤلف فصلًا غير قصير تحدث فيه عن بغداد منذ أن كانت أرضًا من أراضي السواد، ثم فكرة المنصور العباسي في بنائها. ومن الحديث، عن السواد ينطلق إلى الحديث، عن فتح العراق، وفارس أيام الخليفة عمر بن الخطاب، ثم يورد مناقب أهل بغداد وظروفهم معرضًا بالأحاديث المدلسة التي رويت في الطعن على أهاليها.

ويدفع به حديث تاريخ بغداد إلى الكلام على أبي جعفر المنصور بانيها ومنشئها

وتخطيط المدينة وبناء الكرخ والرصافة وبعض القصور مثل قصر الخلد والقصر الحسني والتاج ودار الخلافة، وأنهار بغداد وجسورها في شيء غير كثير من التفصيل.

ثانيًا: يبدأ المؤلف في الترجمة للأعلام أو الأعيان الذين سلفت الإشارة إلى صفاتهم فيجعل ذكر المدائن وتسمية من وردها من الصحابة منطلقًا لترجماته، فيرتب الصحابة على حسب درجاتهم بادئًا بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب جاعلًا له الترجمة الأولى، ثم يثني بالترجمة للحسن بن علي، ويثلث بأخيه الحسين، ثم يجعل

القائد الفاتح سعد بن أبي وقاص صاحب الترجمة الرابعة، ومن بعده عبد الله بن مسعود ثم عمار بن ياسر ثم أبا أيوب الأنصاري، وهكذا يمضي في الترجمة للصحابة الذين وردوا المدائن -وهي في قلب العراق الذي أصبحت بغداد عاصمة له -الواحد بعد الآخر حتى يكملهم خمسين عدًّا بعبد الله بن الحارث بن ببة.

رابعًا: فإذا انتهى الخطيب البغدادي من ذكر الصحابة الذين وردوا المدائن، وقد قرن أخبارهم بالفصل التاريخي الخاص بمدينة السلام يقول: "لم تخل بلد المدائن فيما مضى من أهل الفضل، وقد كان به جماعة ممن يذكر بالعلم فبدأنا بذكر الصحابة مفردًا عمن سواهم، وأما التابعون ومن بعدهم، فإنا سنورد أسماءهم في جملة البغداديين عند وصولنا إلى ذكر كل واحد منهم إن شاء الله تعالى١.

ويمضي صاحب "التاريخ" في سرد من سوف يتناول ترجمتهم في كتابه الكبير البالغ أربعة عشر مجلدًا، فيذكر أنهم "الخلفاء والأشراف والكبراء والقضاة والفقهاء والمحدثون والقراء والزهاد والصلحاء والمتأدبون والشعراء من أهل مدينة السلام الذين ولدوا فيها أو في سواها من البلدان ونزلوها، وذكر من انتقل منهم عنها ومات ببلدة غيرها، ومن كان بالنواحي القريبة منها، ومن قدمها من غير أهلها، وما انتهى إلى معرفة كناهم وأنسابهم ومشهور مآثرهم وأحسابهم ومستحسن أخبارهم ومبلغ أعمارهم، وتاريخ وفاتهم، وبيان حالاتهم، وما حفظ فيهم من الألفاظ وعن أسلاف أئمتنا الحفاظ من ثناء ومدح، وذم وقدح، وقبول وطرح، وتعديل وجرح. جمعت ذلك كله وألفته أبوابًا مرتبة على نسق المعجم من أوائل أسمائهم، وبدأت منهم

بذكر من اسمه محمد تبركًا برسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أتبعته بذكر من ابتدأ اسمه حرف الألف وثنيت بحرف الباء ثم ما بعدها من الحروف على ترتيبها إلى آخرها ليسهل إدراك ذلك على طالبيه وتقرب معرفته من مبتغيه، فإني رأيت الكتاب الكثير الإفادة، المحكم الإجادة، ربما أريد منه الشيء فيعمد من يريده إلى إخراجه فيغمض عن موضعه، ويذهب بطلب زمانه، فيتركه وبه حاجة إليه وافتقار إلى وجوده"٢.

وهكذا أبان العالم الجليل عن منهجه في إيراد تراجمه إبانة دقيقة، وكأنما قد كابد ما يكابده كل باحث -حتى نحن المحدثين- حين يريد الرجوع إلى موضوع بعينه في متاهات كتب التاريخ والطبقات والآداب والعلوم والتراجم، وقد أغنانا عن مزيد من التفصيل إلا في القليل.

وقد كان الخطيب صاحب فضل بين أصحاب التراجم حين استن سنة البداية بالترجمة للمحمدين من الأعلام تبركًا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وتبعه في ذلك كثيرون من أصحاب التراجم الذين جاءوا من بعده وفي مقدمتهم صلاح الدين الصفدي في كتابه "الوافي بالوفيات" الذي سنقف معه وقفة غير قصيرة.

خامسًا: احتوى تاريخ بغداد على "٧٨٣١" سبعة آلاف وثمانمائة وإحدى وثلاثين ترجمة على مسرى المجلدات الأربعة عشر، عدد المحمدين فيه ألف وخمسمائة وتسع وسبعون ترجمة ابتداء بمحمد بن إسحاق صاحب السيرة وانتهاء بمحمد بن ياسر أبي عبد الله البزار، وقد استغرقت تراجم المحمدين هؤلاء مجلدين ونصف

مجلد من الكتاب هي نصف الأول والمجلدان الثاني والثالث بأكملهما. يضاف إليها ثلاثمائة وست عشرة ترجمة لمحمدين آخرين عاد إلى ترجمتهم فغطى بهم النصف الثاني من المجلد الخامس لسبب غير واضح، إذ كان المنهج الأمثل أن يأتي بهم جميعًا متصلين متلاحقين.

إن عدد المحمدين المترجم لهم في الكتاب إجمالًا يبلغ والحال كذلك ألفًا وثمانمائة وخمسًا وتسعين ترجمة تستغرق -حسبما ذكرنا- مجلدات ثلاثة كاملة هي نصف الأول والمجلدات الثاني والثالث ونصف المجلد الخامس، وهو الفريق الأخير من المحمدين الذين وردت ترجمتهم في المجلد الخامس تبدأ أسماؤهم بمحمد بن حنيفة القصبي وتنتهي بمحمد بن عبد الله بن عبيد الله أبي الحسين المقرئ المؤدب.

سادسًا: بعد أن ينتهي الخطيب البغدادي من ذكر العدد الوفير من المحمدين أو بالأحرى الدفعة الكبرى من المحمدين في المجلدات الثلاثة الأولى يثني بالترجمة لأعلام "الأحمدين" بادئًا بأحمد بن أحمد بن محمد بن عبيد الله الطالقاني ورقم ترجمته "١٥٨٠" ألف وخمسمائة وثمانون، وانتهاء بأحمد بن العباس المؤدب الصوفي ورقم ترجمته "٢٧١٣" ألفان وسبعمائة وثلاثة عشر، فيكون عدد الأحمدين الذين أورد الخطيب ترجمتهم ألفًا ومائة وثلاثا وثلاثين ترجمة شملت المجلد الرابع جميعه ونصف المجلد الخامس.

سابعًا: ينتقل المؤلف رأسًا من الترجمة للأحمدين إلى الترجمة للأعلام من "الإبراهيميين" مسقطًا عددًا كبيرًا من الأعلام الذين تضعهم طبيعة التكوين

الأبجدي لأسمائهم قبل إبراهيم مثل أبان وغيره، وهو بذلك قد فضل أن يترجم لمن تتفق أسماؤهم مع أسماء الأنبياء من الأعلام، ويتبع ترجمة الأعلام من مادة إبراهيم بالأعلام من مادة إسماعيل، ثم إسحاق.

فإذا كان المجلد السابع فإنه يبدأه بالترجمة لمن اسم الواحد منهم "أيوب" ويتبعه بالأدارسة، ويتبع الأدارسة بمن اسمه "أسد" وبذلك يكون قد شذ عن القاعدة التي اختطها لنفسه بالابتداء بذكر من طابقت أسماؤهم أسماء الأنبياء.

غير أنه لا يلبث أن يعود إلى أسماء الأنبياء في حرف الهمزة مترجمًا لمن كانت أسماؤهم "إسرائيل" ثم "آدم". وبعد ذلك يمضي في حرف الهمزة غير مرتبط بالترتيب الهجائي للحرف الذي يليها في بنية اسم العلم، فيترجم لمن اسمه "أصرم" ثم "أسود" ثم "أشعب" ثم "أبان" ثم "أشجع" ثم "أسباط" ثم "أسيد" ثم "أزاد" ثم "أنس" ثم "أنيس" ثم "أحيد" ثم "الأحوص" ثم "أسامة" ثم "أزهر"١.

وإذا ما انتقلنا إلى حرف الحاء مثلًا وجدناه يبدأ بمن اسمه "حسن" ثم لا يكاد ينتهي من الحسنين حتى يترجم لمن يحملون اسم الحسين، وكلا الاسمين من الوفرة بمكان، وأغلب ظننا أنه بدأ حرف الحاء بالحسنين تبركًا بهما تبركه باستفتاح الكتاب بالتراجم لمن يتشرفون بحمل اسم جدهما عليه الصلاة والسلام.

ولكننا لا نلبث أن نعود إلى نقطة عدم الالتزام بالترتيب الهجائي لبنية الاسم باستثناء الحرف الأول منه وهو الحاء، ذلك أنه بعد الحسين يذكر أسماء "حماد"

ثم "حميد" ثم "حامد" ثم "حمدان" ثم "حمدون" ثم "حمزة" ثم "حفص" ثم "الحارث" ثم "الحكم" وهكذا يبدو أن الرجل لا يلتزم من الترتيب الهجائي غير الحرف الأول من الاسم الأول، الأمر الذي يعرض الباحث عن عين من الأعيان أو علم من الأعلام إلى مشقة كبيرة في البحث عنه من خلال الحرف الأول من اسمه.

ثامنًا: هناك ملاحظة قد تيسر للباحث أمر بحثه للوصول إلى الكشف عن العلم الذي يبحث عنه، إذا كان هذا العلم يحمل اسم نبي من الأنبياء، فحرف السين مثلًا يبدأ بمن اسمه "سليمان"٢ وحرف الميم يبدأ بمن اسمه "موسى" وحرف الهاء يبدأ بـ"هارون" وحرف الياء يبدأ بـ"يحيى" ثم "يعقوب" ثم "يونس" ثم يشذ عن القاعدة، فيذكر "يزيد" ثم يعود مرة ثانية إليها فيذكر "يونس"، ثم ينطلق في ذكر بقية الأسماء التي تبدأ بحرف الياء على غير ترتيب.

ومما ييسر على الباحث أيضًا أمره في الأسماء المعبدة، أن المؤلف يبدأ بالعبادلة "من اسمه عبد الله" وهم كثيرون "٤٠٢ من الأسماء" ثم يثني بعباد الرحمن، ثم بمن اسمهم "عبيد الله" ثم "عبد الملك" ثم "عبد العزيز" ثم "عبد الواحد" ثم "عبد الوهاب" ثم "عبد الصمد" ثم "عبد السلام" ثم "عبد الأعلى" ثم "عبد الكريم" ثم "عبد الرحيم" ثم "عبد الباقي" ثم "عبد الرازي" ثم من اسمه "عبيد" ثم "عبادة" ثم "عبد الجبار" ثم "عبدوس" ثم "عبد الغفار" ثم "عبيدة" ثم "عبد المؤمن" ويمضي بنا المؤلف في ذكر ترجمة بقية ما عبد من الأسماء في غير ما نهج واضح أو غرض ظاهر.

ولكنه لا يكاد ينتهي من ذكر المعبدة من الأسماء، حتى ينتقل إلى ذكر من اسمهم "عيسى" والأمر يبدو والحال كذلك أنه من باب التبرك بسيدنا عيسى عليه السلام على اعتبار أنه رسول كريم، وعبد عزيز من عباد الله الكرام.

وتكريم الأسماء يبقى ماثلًا في ذهن المؤلف إذ إنه يتبع ذكر تراجم من اسمهم "عيسى" بمن تماثل أسماؤهم أسماء الخلفاء الراشدين: عمر -وهو كثير جدًّا- ثم عثمان ثم علي وهو أوفر كثرة.

ويتبع ترجمة "العليين" بمن اسمه "عباس" ثم "عمرو" ثم "عامر" ثم "العلاء" ثم "عاصم" ثم "عمار" ثم "عكرمة" ثم "عقبة" ثم "عمران"، ويمضي المؤلف بعد ذلك في ذكر من بدأت أسماؤهم بالعين في غير ما التزم لطبيعة الترتيب الهجائي لحروف الاسم بعد أن استوفى غرضه من تقديم من رأى أنهم أهل للتقديم.

تاسعًا: يعقد الخطيب البغدادي في القسم الأخير من المجلد الرابع عشر من كتابه فصلين متميزين، أحدهما لمن عرف بكنيته دون اسمه، إذ إن كثيرًا من الأعلام عرفوا بكناهم دون أن تعرف أسماؤهم، أو أن تكوين اسم الواحد منهم كنية في حد ذاته، كأن يكون اسمه "أبو إبراهيم" أو "أبو اليزيد" أو "أبو العينين" وهذا شائع في كثير من البلدان العربية وبخاصة مصر. وأول من ترجم لهم الخطيب البغدادي في باب الكنى أبو المؤمن الوائلي "ترجمة رقم ٧٦٨٩" وآخرهم أبو بكر محمد بن إبراهيم بن أحمد المازني "ترجمة رقم ٧٧٩٩" فيكون عدد الأسماء التي ترجم لها بالكنى مائة اسم وعشرة أسماء.

وأما الفصل الخاص الثاني الذي أشرنا إليه فقد جعله المؤلف للنساء من أهل بغداد اللائي ذكرن بالفضل، ورواية العلم وعددهن إحدى وثلاثون من فضليات النساء وشهيراتهن.

أولاهن: الخيزران زوجة المهدي "ترجمة رقم ٧٨٠٠" وآخرهن: خديجة بنت محمد بن علي الواعظة المعروفة بالشاهجانية.

وكتاب تاريخ بغداد واحد من أنفس وأدق وأصدق كتب التراجم بصفة عامة وتراجم أبناء البلد الواحد بصفة خاصة. والمؤلف بحكم شهرته بالرواية، ومعرفته بالشعر وتبحره بالأدب يرصع تراجمه العديدة التي بلغت سبعة الآف وثمانمائة وإحدى وثلاثين ترجمة بالخبر الأدبي الطريف والنص الشعري الأنيق، والعبارة البارعة والصوغ الأنيق الذي جعل الكتاب لازمًا لكل متأدب ضروريًّا لكل مؤرخ، على الرغم مما في منهج ترتيب تراجمه من صعاب سبقت الإشارة إليها.

معجم الأدباء لياقوت الرومي

إذا ذكرت كتب التراجم فإن كتاب معجم الأدباء يأتي في مقدمتها شهرة ونفعًا، ويتربع على رأسها أهمية وخطرًا، ذلك أنه يمتاز عن غيره من كتب التراجم التي ذكرنا في هذا الباب بأنه كتاب متخصص في تراجم الأدباء، وبخاصة ذوي التآليف منهم، وليس الأمر كذلك في بقية كتب التراجم التي قدمنا؛ ذلك لأنها اهتمت بكل الأعيان على اختلاف شخصياتهم وصفاتهم ونوازعهم، ومقاماتهم من خلفاء وملوك وعلماء، وفقهاء ومحدثين وزهاد وصوفيين وقضاة ووزراء، وقواد وحجاب وكتاب وشعراء وفلاسفة وأطباء إلى غير ذلك من الأعلام والأعيان. أما هنا في هذا الكتاب فليس ثمة مكان إلا لعالم، وليس من ترجمة أخرى إلا لأديب صاحب تآليف ولذلك كان الكتاب في جوهره مثلما هو في مخبره اسمًا على مسمى.

وأما مؤلف الكتاب فهو بدوره من الشهرة بمكان، إنه ياقوت بن عبد الله الحموي. والواقع أن نسبة الحموي لا تعني أن هذا العالم الجليل ذو صلة ما بمدينة حماه الجليلة في القطر الشامي، ذلك أن ياقوت مولود ببلاد الروم حوالي سنة ٥٧٥هـ، ومن ثم فإنه يعرف بياقوت الرومي، أما صفة الحموي فهي نسبة إلى الرجل الذي ابتاعه، وهو بغدادي اسمه عسكر بن أبي نصر إبراهيم الحموي، ولذلك فإنه تجدر الإشارة هنا إلى الخطأ الذي يقع فيه كثير من المتأدبين حينما يربطون بين ياقوت ومدينة حماة، فقد ذهب عدد منهم إلى أنه حموي المولد وفي مقدمتهم ابن العماد١.

إن عالمنا الجليل كان يلقب بشهاب الدين، ويكنى بأبي عبد الله، وهو على الأغلب لم يكن يعرف من أبوه ومن ثم جعل اسمه ياقوت بن عبد الله، وإذن فهو رومي المولد، حموي المولى، بغدادي الدار.

لقد رغب عسكر مولى ياقوت في أن يعلم فتاه مبادئ القراءة والكتابة، والحساب حتى يساعده في ضبط أمور تجارته، وكان الأرقاء يتاجرون لمواليهم ويرتحلون ويبيعون ويشترون، فقام ياقوت بالعديد من الأسفار، وكان في الوقت نفسه مغرمًا بالعلم فتعلم شيئًا من النحو واللغة وتحسين الخط.

وما لبث ياقوت أن نال حريته، وانعتق من عقال الرق بعد جفوة جرت بينه وبين سيده فلم يجد ما يتكسب به قوت يومه غير النسخ بالأجرة، ولعل عملية النسخ هذه هي السبب في الخير الوفير الذي فاضت به ملكة ياقوت في التأليف فترك لنا من الكتب القيمة ما سوف يأتي حديثه بعد حين.

ويبدو أن عسكرًا احتاج مرة أخرى إلى ياقوت فطلب إليه معاودة الاتجار له فوافق ياقوت إلى ذلك العرض، وما إن عاد من سفرته الرابحة حتى كان عسكر قد فارق الحياة فأعطي ياقوت أسرة مولاه ما أرضاها من المال واستبقى لنفسه منه ما يستطيع أن يجعله بداية لاستثمار ورأس مال للاتجار.

وفي سنة ٦٠٣هـ ترك ياقوت بغداد واتجه إلى دمشق، وأقام في أسواقها غير أنه كان متأثرًا بمذهب الخوارج شديد التحامل على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فصدر

عنه في مناظرة مع أحد البغداديين في دمشق ما لا يليق من القول في حق الخليفة الراشد، وتألب الناس عليه فلم يجد بدًّا من أن يغادر دمشق هاربًا بعد إقامة طويلة فيها إلى حلب، ومن حلب انتقل إلى الموصل، وظل يضرب في أكناف الأرض متجهًا إلى إربل ومنها إلى خراسان فاستوطن مرو وعمل فيها بالتجارة التي كانت الكتب تشكل جانبًا منها. ثم عن له أن يخرج من مرو إلى نسا فخوارزم. ويتصادف أن يخرج التتار خروجهم المشئوم وهو في تلك المدينة الأخيرة سنة ٦١٦هـ، فلا يجد ياقوت بدًّا من أن ينجو بنفسه فيهرب حتى تلقي به عصا الترحال في الموصل ممزق النفس معذب الخاطر. ومن الموصل يكتب رسالة إلى القاضي جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم القفطي وزير صاحب حلب يصف فيها حاله وما حل به من متاعب وما تعرض له من مخاطر تعتبر نفحة من الأدب الرفيع بمعيار ذلك الزمان١. ثم تتهيأ لياقوت أسباب السفر إلى حلب مرورًا بسنجار فأقام بظاهر حلب منذ وصوله إليها حوالى ٦١٧ إلى أن وافاه أجله فيها سنة ٦٢٦هـ.

لقد أفاد ياقوت من الأسفار فائدة جليلة ساعدته على تأليف بعض كتبه خاصة كتاب البلدان، كما كان أديبًا أريبًا ذا همة عالية في تحصيل المعارف، ومن ثم فقد ألف عددًا من الكتب ذات النفع الجليل، هي: أخبار الشعراء المتقدمين والمتأخرين١. معجم البلدان، معجم الشعراء، معجم الأدباء، كتاب المشترك وضعًا المختلف صقعًا، كتاب المبدأ والمآل في التاريخ، كتاب الدول، مجموع كلام أبي علي الفارسي، عنوان كتاب الأغاني، المقتضب في النسب، كتاب أخبار المتنبي. غير أن

هذه الكتب على نفاستها تأتي في المرتبة بعد كتابيه النفيسين: معجم البلدان، ومعجم الأدباء.

منهج ياقوت في معجم الأدباء:

لقد اجتهد ياقوت كل الاجتهاد في أن يجعل كتابه هذا متميزًا إلى حد كبير عن بقية كتبه، وعن كتب من سبقه من المصنفين القدامى، ويذكر أن ذلك كان أملًا راوده منذ أن أحب الأدب وأغرم بأخبار العلماء، وشغف بأحوال الأدباء يبحث عن نكت أقوالهم بحث المغرم الصب والمحب من المحب، ويطوف على مصنف فيهم يشفي الغليل ويداوي لوعة العليل فما وجد في ذلك تصنيفًا شافيًا ولا تأليفًا كافيًا١، هذا على الرغم من العديد من العلماء السابقين عليه الذين أولوا هذا الموضوع الكثير من العناية من أمثال أبي بكر محمد بن عبد الملك التاريخي، وأبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه، وأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، وأبي سعيد الحسن بن عبد الله المرزبان السيرافي، وأبي بكر محمد بن حسن الإشبيلي الزبيدي، وأبي المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر المغربي، وعلي بن فضال المجاشعي، وكمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري، ويمكن أن نعرض منهج ياقوت ونستعرض معجمه عن الأدباء على النحو التالي:

أولًا: إن ياقوتا يذكر هؤلاء المؤلفين جميعًا، ولا يحدد من أسماء كتبه إلا القليل مثل شجرة الذهب في أخبار من ذهب للمجاشعي، الذي لا يعتني بالأخبار، ولا يعبأ بالوفيات، ومثل نزهة الألبا في أخبار الأدبا" للكمال بن الأنباري.

ويرى ياقوت أن كتاب أبي بكر الإشبيلي الزبيدي هو أفضل هذه الكتب جميعًا وأكثرها فوائد وأوفرها تراجم وفرائد.

ولكن هذه الكتب التي ذكرها جميعًا كانت حسب اعترافه مصادره في تأليفه كتابه الذي نحن بصدده، فما يكاد يذكر كتابًا منها حتى يقول: نقلنا فوائده، وبذلك تكون أكثر مصادر ياقوت في معجم الأدباء بعضًا معروف العنوان والمؤلف، والبعض الآخر معروفًا اسم مؤلفه وإن حجب عنا -دون قصد- عنوان الكتاب.

غير أن هذه الكتب جميعًا على وفرة نفعها وجلال قيمتها، لم تكن لديه بالمنزلة التي يرتضيها، فحاول تأليف كتاب يرضي به طموحه العلمي شاملًا أخبار كل ذي ثقافة وجميع أصحاب المعرفة من النحويين، واللغويين، والنسابين والقراء المشهورين، والأخباريين، والمؤرخين، والوراقين، المعروفين، والكتاب، والمترسلين والخطاطين، والمؤلفين.

إن ياقوتًا يوضح منهجه بهذا القول من مقدمة كتابه:

"وكنت مع ذلك أقول للنفس مماطلًا، وللهمة مناضلًا، رب غيث غب البارقة، ومغيث تحت الخافقة إلى أن هزم الياس الطمع، واستولى الجد على اللعب الولع، وعلمت أنه طريق لم يسلك، ونفيس لم يملك، فاستخرت الله الكريم واستنجدت بحوله العظيم، وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إلي من أخبار النحويين واللغويين والنسابين، والقراء المشهورين. والأخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين، والكتاب

المشهورين، وأصحاب الرسائل المدونة، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة، وكل من صنف في الأدب تصنيفًا، أو جمع في فنه تأليفًا، مع إيثار الاختصار، والإعجاز في نهاية الإيجاز ولم آلُ جهدًا في إثبات الوفيات، وتبيين المواليد والأوقات، وذكر تصانيفهم، ومستحسن أخبارهم، والأخبار بأنسابهم، وشيء من أشعارهم، فأما من لقيته أو لقيت من لقيه، فأورد لك من أخباره وحقائق أموره، ما لا أترك لك بعده تشوقًا إلى شيء من خبره، وأما من تقدم زمانه، وبعد أوانه، فأورد من خبره ما أدت الاستطاعة إليه، ووقفني النقل عليه، وفي ترادي إلى البلاد، ومخالطتي للعباد، وحذفت الأسانيد إلا ما قل رجاله، وقرب مناله مع الاستطاعة لإثباتها سماعًا وإجازة، إلا أنني قصدت صغر الحجم، وكبر النفع، وأثبت مواضع نقلي ومواطن أخذي من كتب العلماء المعول في هذا الشأن عليهم، والمرجوع في صحة النقل إليهم، وكنت قد شرعت عند شروعي في هذا الكتاب أو قبله، في جمع كتاب في أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء، ونسجتها على هذا المنوال، وسبكتها على هذا المثال، في الترتيب، والوضع والتبويب، فرأيت أكثر أهل العلم المتأدبين، والكبراء المتصدرين، لا تخلو قرائحهم من نظم شعر، وسبك نثر، فأودعت ذلك الكتاب كل من غلب عليه الشعر، فدون ديوانه، وشاع بذلك ذكره وشأنه، ولم يشتهر برواية الكتب وتأليفها، والآداب وتصنيفها، وأما من عرف بالتصنيف، واشتهر بالتأليف، وصحت روايته، وشاعت درايته وقل شعره، وكثر نثره، فهذا الكتاب عشه ووكره، وفيه يكون ثناؤه وذكره، وأجتزئ به عن التكرار هناك، إلا النفر اليسير الذي دعت الضرروة إليهم،

ودلتنا عنايتهم بالصناعتين عليهم، ففي هذين الكتابين أكثر أخبار الأدباء من العلماء والشعراء، وقصدت بترك التكرار، خفة محمله في الأسفار، وحيازة ما أهواه من هذا النشوار.

وهكذا يكون قد خص الأدباء، وكل من لهم بالأديب وشيجة، أو ربطتهم بالعلم مشاركة دون غيرهم بالترجمة، والرواية لهم والإخبار عنهم وذكر آثارهم العلمية، ومؤلفاتهم الأدبية الأمر الذي جعل هذا الكتاب من كتب التراجم متميزًا عن غيره بالتخصص، متفردًا عما سواه في نهجه وموضوعه.

ثانيًا: التزم ياقوت في ترتيب الأعيان والأدباء الذي ترجم لهم حروف المعجم التزامًا دقيقًا في الاسم، ثم في اسم الأب ثم في اسم الجد، فإن تطابقت الأسماء جعل التقدم في الذكر لمن تقدمت وفاته، وأما عن الأقطار والأمصار فلم يميز بين بلد وبلد ولا مصر ومصر، أو صقع وصقع وإنما ذكر أعيان الأدباء على امتداد رقعة العالم الإسلامي من أواسط آسيا شرقًا إلى شواطئ المحيط الأطلنطي غربًا من مغرب وأندلس، ويوضح ياقوت هذا النهج توضيحًا في قوله: "وجعلت ترتيبه على حروف المعجم، أذكر أولًا من أول اسمه "ألف" ثم من أول اسمه "باء" ثم "تاء" ثم "ثاء" إلى آخر الحروف، وألتزم ذلك في أول حرف من الاسم وثانيه وثالثه ورابعه، فأبدأ بذكر من اسمه "آدم" ألا ترى أن أول اسمه "همزة" ثم "ألف" ثم من اسمه إبراهيم؛ لأن اسمه "ألف" وبعد الألف "باء" ثم كذلك إلى آخر الحروف، وألتزم ذلك في الآباء أيضًا، فاعتبره، فإنك إذا أردت الاسم تجد له موضعًا واحدًا لا يتقدم

عليه، ولا يتأخر عنه، اللهم إلا أن يتفق أسماء عدة رجال وأسماء آبائهم فإن ذلك مما لا حصر فيه إلا بالوفاة، فإني أقدم من تقدمت وفاته على من تأخرت، وأفردت في آخر كل حرف فصلًا أذكر فيه من اشتهر بلقبه على ذلك الحرف، من غير أن أورد شيئًا من أخباره فيه، إنما أدل على اسمه واسم أبيه، لتطلبه في موضعه، ولم أقصد أدباء قطر، ولا علماء عصر، ولا إقليم معين، ولا بلد مبين، بل جمعت للبصريين والكوفيين، والبغداديين، والخراسانيين والحجازيين، واليمنيين، والمصريين، والشاميين، والمغربيين، وغيرهم، على اختلاف البلدان، وتقارب الأزمان حسب ما اقتضاه الترتيب، وحكم بوضعه التبويب، لا على قدر أقدارهم في القدمة والعلم والتأخر والفهم٢.

والحق أن ترتيب التراجم في معجم الأدباء من الدقة بمكان، فقد جنب القارئ بدقته الكثير من المتاعب التي يتعرض لها حين يحاول الاستعانة بكتاب تراجم عظيم آخر، مثل "تاريخ بغداد" على سبيل المثال الذي لم نستطع أن نجد لترتيبه مفاتيح إلا في نطاق اجتهاد محدود وقواعد غير ثابتة يصدق بعضها، ويشذ أكثرها.

ومع استعراضنا لمعجم الأدباء كله، واستقراء ترتيبه لم تقع العين إلا على أخطاء قليلة لا تستحق الاحتفال، فقد وردت ترجمة "محمد بن واقد" على سبيل المثال بين ترجمة محمد بن عمر بن عبد العزيز، وترجمة محمد بن فتوح الأزدي١، وكذلك وردت ترجمة ميمونة أبو ربيعة الأصبهاني بين ترجمة مكي بن زيان المكسيني وترجمة منداد بن عبد الحميد الكرخي ٢، وواضح أن كلا من الترجمتين قد حشرت

في غير موضعها حسب الترتيب الهجائي، ويقيننا أن هذا الخطأ قد وقع من محقق الكتاب وليس من المؤلف.

ثالثًا: يتأرجح ياقوت في صدد تقديم كتابه بين طيبة ذوي الوقار، وتواضع العلماء وبين فخر ذوي التيه وإدلال ذوي الخيلاء، وهو في تواضعه ربما كان أكثر إدلالًا من في خيلائه، ولكن في أسلوب الحكيم وسياق الأريب، إنه يقول متواضعًا طالبًا العفو عن الزلل والغفران عن الخطأ هذا القول العذب الطريف٣:

"وأنا قد اعترفت بقصوري، فيما اعتمدت عن الغاية وتقصيري عن الانتهاء إلى النهاية، فاسأل الناظر فيه ألا يعتمد العنت، ولا يقصد قصد من إذا رأى حسنًا ستره، وعيبًا أظهره، وليتأمله بعين الإنصاف لا الانحراف، فمن طلب عيبًا وجد وجد ومن افتقد زلل أخيه بعين الرضا فقد، فرحم الله امرءًا قهر هواه وأطاع الإنصاف ونواه وعذرنا في خطأ إن كان منا، وزلل إن صدر عنا، فالكمال محال لغير ذي الجلال، فالمرء غير معصوم، والنسيان في الإنسان غير معدوم، وإن عجز عن الاعتذار عنا والتصويب، فقد علم أن كل مجتهد مصيب، فإنا وإن أخطأنا في مواضع يسيرة، فقد أصبنا في مواطن كثيرة، فما علمنا فيمن تقدمنا وأمنا من الأئمة القدماء إلا وقد نظم في سلك أهل الزلل وأخذ عليه شيء من الخطل وهم هم، فكيف بنا مع قصورنا واقتصارنا وصرف جل زماننا في نهمة الدنيا وطلب المعاش، وتنميق الرياش، الذي مرادنا منه صيانة العرض، وبقاء ماء الوجه لدى العرض.

وإنما تصديت لجميع هذا الكتاب لفرط الشغف والغرام، والوجد بما حوى والهيام، لا لسلطان أجتديه، ولا لصدر أرتجيه، غير أني أرغب إلى الناظر فيه أن يترجم علي ويعطف جيد دعائه إلي، فذلك ما لا كلفة فيه عليه ولا ضرر يرجع به إليه، فربما انتفعت بدعوته وفزت بما قد أمن هو من مغرته.

وفي نطاق التيه والإدلال، يرق المؤلف في تيهه ويلتمس العذر لنفسه في إدلاله في نطاق الحجة المقبولة العبارة المستساغة ومن خلال عدة أبيات من الشعر المتوسط فيقول١:

ومع ما تقدم من اعتذارنا، ومر من تنصلنا، واستغفارنا، فقد رآني جماعة من أهل العصر وقد نظمت لآلئ هذا الكتاب، وأبرزته في أبهى من الحلي على ترائب الكعاب، فاستحسنوه والتمسوه لينسخوه، فوجدت في نفسي شحًّا عليهم، وبخلًا بعطف جيده إليهم؛ لأنه مني بمنزلة الروح في جسد الجبان، والسوداوين من العين والجنان، مع كوني غير راضٍ لنفسي بذلك المنع، ولا حامد لها على ذلك الصنع، لكنها طبيعة عليها جبلت، وسجية إليها جبرت، حتى قلت فيه مع اعترافي بقلة بضاعتي في الشعر، وعلمي بركاكة نظمي والنثر:

فكم قد حوى من فضل قول محبر ... ومن نثر مصقاع ومن نظم ذي فهم

ومن خبر حلو طريف جمعته ... على قدم الأيام للعرب والعجم

ترنح أعطافي إذا ما قرأته ... كما رنحت شرابها ابنة الكرم

ولو أنني أنصفته في محبتي ... لجلدته جلدي وصندقته عظمي

ولا عليه في ذلك كله فمن حق المبدع أن يتيه بما أبدع، وكتاب ياقوت يأتي بين الصفوة الممتازة من كتب التراجم التي لا يستغني عنها باحث، ولا يستطيع أن يغفل عن الانتفاع بها دارس، أو أديب.

رابعًا: أتبع ياقوت مقدمة الكتاب بدراسة طريفة في فصلين: فصل خصصه للحديث عن فضل الأدب وأهله ضمنه مجموعة ممتعة من الأخبار اللطيفة العذبة حول العلم والجهل، بعضها شعر وبعضها نثر، وهي في جملتها مختارات محبوكة نسج الحواشي بين نكتة، ووصية، ومقطوعة شعرية، ومحاورة عذبة بين العلم والأدب يرجح فيها ياقوت جانب الأدب على جانب العلم، مع أقوال من بدائع الأصمعي ولطائف من بدائه التاريخي١، وأما الفصل الآخر فيخصصه لفضيلة علم الأخبار٢ مع نخبة من المحاورات والأسماء والأشعار التي جعلها المؤلف بمثابة التوابل اللذيذة، التي توضع على الطعام، فتحبب إلى المرء تناوله في شهية والإقبال عليه في رغبة والاغتراف منه في لذة وتحصيل قدر منه في متعة.

خامسًا: يضم الكتاب عددًا كبيرًا من التراجم قدرها ألف وخمس وستون ترجمة لأعلام الآداب، والمعارف على مساحة الأراضي الإسلامية، والعربية كلها منذ القرن الأول الهجري حتى زمان المؤلف بحيث إنه ترجم لبعض من رآهم والتقى بهم وتحدث إليهم.

وتبلغ الترجمة أحيانًا حدًّا من الطول بحيث تصلح أن تكون كتابًا بذاته، وتبلغ حدًّا من القصر أحيانًا أخرى بحيث لا تتعدى كلمات سبعًا أو ثمانٍ.

فمن التراجم الطويلة على سبيل المثال ترجمة الصاحب إسماعيل بن عباد التي استغرقت النصف الثاني كله من الجزء السادس من المعجم، ومنها ترجمة أحمد بن عبد الله بن سليمان المشهور بأبي العلاء المعري٣ ومنها ترجمة الحسن بن عبد الله المرزباني النحوي المشهور بأبي سعيد السيرافي٤، ومنها تلك التي لأسامة بن منقذ العالم الفارس الأمير الشاعر بحيث استغرقت ترجمته النصف الثاني بأكمله من الجزء الخامس من المعجم٥.

يقابل هذه التراجم المفصلة البالغة الطول تراجم أخرى بالغة القصر إلى المدى الذي يكاد يصاب المعجم بسبب قصرها بالخلل، ولكن لم يكن لدى ياقوت من حيلة في ذلك، فهو يرى أن ذكر الشيء القليل مهما بلغ من ضآلة خير من عدمه فمن التراجم البالغة القصر على سبيل المثال، تلك التي أوردها لأحمد بن عبد الله المهاباذي الضرير، يقول فيها ما نصه: "من تلاميذ عبد القادر الجرجاني، له شرح كتاب اللمع"٦ أو تلك التي ترجم بها لجعفر بن هارون بن إبراهيم النحوي الدينوري، وفيها يقول: "أبو محمد، روى عنه ابن شاذان في شوال سنة أربع وأربعين وثلاثمائة"٧. أو تلك التي ترجم بها لمحمد بن الحسن البرجي الأديب الأصفهاني، وفيها يقول "قال ابن مندة: مات في محرم سنة ثمانٍ وأربعين وأربعمائة"١ أو ترجمته للحسين بن أحمد بن بطَّويه، وهي أطراف التراجم القصيرة جميعًا؛ لأن المؤلف

يقول فيها ما نصه: "لا أعلم من أمره شيئًا" ٢ ثم ينسب إليه مقطوعتين من الشعر، واحدة في ثلاثة أبيات والأخرى في بيتين.

هذا وقد يكون من الطرافة بمكان أن نذكر أن أسماء قليلة بعينها قد استولت من الكتاب على نصيب الأسد، أو أكثر بل إنها أربعة أسماء بالذات هي على الترتيب الأبجدي أحمد، والحسن وعلي، ومحمد. "فالأحمدون" استولوا على ثلثي الجزء الثاني فضلًا عن الأجزاء الثالث والرابع والخامس بأكملها. و "الحسنون" استولوا على كل من الجزءين الثامن والتاسع بأكملهما باستثناء أربع تراجم قصيرة في آخر التاسع. و "العليون" استولوا على الربع الأخير من الجزء الثاني عشر وكل من الأجزاء الثلاثة التالية له، وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر باستثناء ثلاث تراجم قصيرة في آخر الجزء الخامس عشر، و "المحمدون" استولوا على ثلثي الجزء السابع عشر الأخيرين، وكل الجزء الثامن عشر، والثلث الأول من الجزء التاسع عشر، وبعملية حسابية صغيرة يتبين أن أصحاب هذه الأسماء الأربعة من العلماء قد استغرقوا أحد عشر جزءًا من الكتاب كله البالغ عدد أجزائه عشرين جزءًا.

على أن ذلك الذي نذكره حول هذه الأسماء وسيادتها واستيلائها على ناصية العلم ليس إلا من باب الملاحظة العابرة، وهي في مجموعها أسماء لطيفة مباركة.

هذا ملخص سريع لمنهج كتاب معجم الأدباء ومحتواه للعالم الهاوي الأريب الأديب النشط المبارك الإنتاج على الرغم من صغر سنه نسبيًّا، وزحمة أعماله وكثرة

أسفاره ومشاكل الرق التي كابدها في أول حياته. إنه كتاب ثمين في قيمته، فريد في جوهره، خصيب في عطائه، كريم في فيضه، إنه عطاء العلم وفيض الأدب ممثلًا فيمن ترجم لهم بعناية وإحكام مستعينًا بالمصادر التي يطمئن إليها ذاكرًا أصحابها كلما سنحت له الفرصة أن يذكرهم، والكتاب من الشهرة والقيمة بحيث لا يستغني عنه باحث أو طالب علم، أو أديب، أو معلم.

وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان:

لعل هذا الكتاب هو أشهر كتب التراجم عامة منها ما تخصص في تراجم أبناء بلد بعينه أو ما اشتمل على تراجم عامة بغض النظر عن الزمان والمكان، ولا يكاد يدانيه شهرة من كتب التراجم إلا كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.

وهذا الكتاب وأقرانه لا يستطيع التوفر على تصنيفها إلا العلماء من أولي العزم للصبر الذي يحتاج إليه مؤلفه، فضلًا عن سعة في العلم وتبحر في الأدب وتمكن من اللغة، ومعرفة بالتاريخ وثقة في الرواية وحسن سمعة بين الناس.

إن شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان مؤلف "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" كان جامعًا لكل هذه الصفات، لقد عاش بين سنتي ٦٠٨-٦٨١هـ، وكان مولده بإربل وحصل فيها ما استطاع من ألوان العلم والمعرفة، وتتلمذ لمشهوري علمائها، ثم أصبح أستاذًا لكثير من العلماء والفضلاء وعلامة في الأدب والشعر وأيام الناس، ووصف بأنه كان كثير الاطلاع جليل المذاكرة وافر الحجة ذا هيبة ومكانة عند الناس.

وإذا كانت الرحلة تفيد في تحصيل المعرفة، وتزيد المرء من تجارب الحياة، فقد رحل ابن خلكان، وسكن فترة من الزمان في كل من الموصل وحلب ومصر حيث تولى فيها نيابة القضاء، ثم رحل إلى الشام حيث تولى القضاء فيها للشافعية. ومن الطريف أن قضاة المذاهب الأربعة الشافعية والأحناف والمالكية والحنابلة كان كل واحد

منهم -وابن خلكان منهم- يلقب بشمس الدين فقال في ذلك بعض شعراء دمشق الظرفاء:

أهل دمشق استرابوا ... من كثرة الحكام

إذ هم جميعًا شموس ... وحالهم في ظلام١

غير أن ابن خلكان كان يتمتع من بين هؤلاء جميعًا بمكانة خاصة من الاحترام في قلوب الناس، فقد عزل من قضاء دمشق، ثم أعيد بعد سبع سنوات، فكانت عودته مصدر راحة لنفوس الدمشقيين وصارت هذه المناسبة من الأهمية بحيث قال الأدباء فيها شعرًا طريفًا، فإن سعد الدين الفارقي يقول في ذلك:

أذقت الشام سبع سنين جدبًا ... غداة هجرته هجرًا جميلًا

فلما زرته من أرض مصر ... مددت عليه من كفيك نيلًا

هذا ولابن خلكان نفسه شعر جيد طريف المعاني متعدد الأوزان أورد له كل من صاحب "الوافي بالوفيات" و "فوات الوفيات" شيئًا كثيرًا يصلح للدراسة. وتمنينا لو سمح المقام هنا بذكر شيء منه، غير أن أكثره لسوء الحظ في موضوع ينبو عن الذوق، ويخرج عن المألوف إذ إنه في شعر الغلمان، وهو أمر كان يجمل بعالم كبير مثل ابن خلكان أن يترفع عنه، ويسمو بنفسه عن التدني إليه.

فإذا ما انتقل الحديث بنا إلى كتاب ابن خلكان الذي سماه "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل والسماع، أو أثبته العيان" نجده عنوانًا مفرط الطول الأمر الذي جعل المتأدبين والدارسين يعرفونه بالمقطع الأول من عنوانه "وفيات الأعيان".

والكتاب يترجم للنابهين من الناس في المحيط الإسلامي والعربي، أيا كانت صفاتهم أو أمكنتهم أو عصورهم، وليس لطائفة واحدة أو بلدة بعينها كما هو الحال في نسق آخر من كتب التراجم، إنه يترجم للجميع من ملوك ووزراء وأئمة ومحدثين، وفقهاء، وعلماء، وفلاسفة ومتصوفة وأطباء وقضاة وولاة وقواد وكتاب وشعراء، وندماء وظرفاء وشهيرات النساء وكل من يقع السؤال عنه.

هذا ويضع المؤلف مقدمة لكتابه يبين فيها منهجه في تأليفه كأحسن وأدق وأحدث ما يكون المنهج العلمي بمراحله المتكاملة. إنه يبدأ بالقراءة سنوات عديدة وفي أثناء ذلك يجمع المادة التي يستمد منها موضوعات كتابه، وهو يتثبت من صحتها وأمانة رواتها، ويوردها مرتبة على حروف المعجم ويبين لماذا اختار هذا السبيل دون غيره. ويتوقع أن قارئًا سوف يلاحظ أنه لم يترجم للصحابة والتابعين فيذكر في منهجه السبب الذي من أجله استثناهم فلم يضمن كتابه أخبارهم، وفي تواضع العلماء الأصلاء يذكر ابن خلكان أنه غير معصوم من الخطأ، ويرجو ممن يجيئون بعده من أهل -مثابين- أن يصلحوا ما يكون قد وقع فيه من خطأ. بل إنه لا يغفل عن أن يذكر أنه ألف الكتاب في القاهرة في شهور سنة ٦٥٤ الهجرية.

فلنستمع إلى ابن خلكان، وهو يقدم لنا بنفسه في مقدمة كتابه المنهج الذي اتبعه، والطريق الذي سلكه في تأليف الكتاب١:

"هذا مختصر في التاريخ، دعاني إلى جمعه أني كنت مولعًا بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولي النباهة وتواريخ وفياتهم وموالدهم، ومن جمع منهم كل عصر، فوقع لي منه شيء حملني على الاستزادة وكثرة التتبع، فعمدت إلى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن، وأخذت من أفواه الأئمة المتقنين له ما لم أجده من كتاب، ولم أزل على ذلك حتى حصل عندي منه مسودات كثيرة في سنين عديدة، وغلق على خاطري بعضه فصرت إذا احتجت إلى معاودة شيء منه لا أصل إليه إلا بعد التعب في استخراجه، لكونه غير مرتب، فاضطررت إلى ترتيبه، فرأيته على حروف المعجم أيسر منه على السنين، فعدلت إليه، والتزمت فيه تقديم من كان أول اسمه الهمزة، ثم من كان ثاني حرف من اسمه الهمزة أو ما هو أقرب إليها، على غيره، فقدمت إبراهيم على أحمد؛ لأن الباء أقرب إلى الهمزة من الحاء، وكذلك فعلت إلى آخره، ليكون أسهل للتناول، وإن كان هذا يفضي إلى تأخير المتقدم وتقديم المتأخر في العصر، وإدخال من ليس من الجنس بين المتجانسين، لكن هذه المصلحة أحوجت إليه.

ولم أذكر في هذا المختصر أحدًا من الصحابة رضوان الله عليهم، ولا من التابعين رضي الله عنهم، إلا جماعة يسيرة تدعو حاجة كثيرة من الناس إلى معرفة أحوالهم، وكذلك الخلفاء: لم أذكر أحدًا منهم اكتفاء بالمصنفات الكثيرة في هذا الباب، لكن

ذكرت جماعة من الأفاضل الذين شاهدتهم ونقلت عنهم، أو كانوا في زمني ولم أرهم ليطلع على حالهم من يأتي بعدي.

ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة، مثل العلماء أو الملوك أو الأمراء، أو الوزراء أو الشعر، بل كل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه ذكرته وأتيت من أحواله بما وقفت عليه، مع الإيجاز كيلا يطول الكتاب، وأثبت وفاته ومولده إن قدرت عليه، ورفعت نسبه على ما ظفرت به، وقيدت من الألفاظ ما لا يؤمن تصحيفه، وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة، أو نادرة، أو شعر، أو رسالة ليتفكه به متأمله ولا يراه مقصورًا على أسلوب واحد فيمله، والدواعي إنما تنبعث لتصفح الكتاب إذا كان مفننًا.

وبعد أن صار كذلك لم يكن بد من استفتاحه بخطبة وجيزة للتبرك بها، فنشأ من مجموع ذلك هذا الكتاب، وجعلته تذكرة لنفسي، وسميته كتاب "وفيات الأعيان"، وأنباء أبناء الزمان، مما ثبت بالنقل أو السماع، أو أثبته العيان" ليستدل على مضمون الكتاب بمجرد العنوان.

فمن وقف عليه من أهل الدراية بهذا الشأن ورأى فيه خللًا فهو المثاب في إصلاحه بعد التثبت فيه، فإني بذلت الجهد في التقاطه، من مظان الصحة، ولم أتساهل في نقله ممن لا يوثق به، بل تحريت فيه حسبما وصلت القدرة إليه.

وكان ترتيبي له في شهور سنة أربع وخمسين وستمائة بالقاهرة المحروسة مع شواغل عاتقة، وأحوال عن مثل هذا متضايقة، فليعذر الواقف عليه، وليعلم أن الحاجة المذكورة ألجأت إليه؛ لأن النفس تحدثها الأماني من الانتظام في سلك المؤلفين بالمحال، ففي أمثالهم السائرة "لكل عمل رجال" ومن أين لي ذلك والبضاعة من هذا العلم قدر منذور، والمتشبع بما لم يعطَ كلابس ثوبي زور، حرسنا الله تعالى من التردي في مهاوي الغواية، وجعل لنا من العرفان بأقدارنا أمنع وقاية بمنه وكرمه، آمين".

إننا من خلال هذه المقدمة، أو هذا المنهج نستطيع أن نوضح أهم ميزات الكتاب وفوائده على النحو التالي:

أولًا: يضم الكتاب ثمانمائة وخمسًا وخمسين ترجمة لأعلام المسلمين والعرب وكل من يمكن السؤال عنهم من رجال ونساء على مساحة العالم الإسلامي كله من بخارى سمرقند وحدود الصين شرقًا إلى المغرب والأندلس غربًا. هذا من حيث المكان، وأما من حيث الزمان، فإنه يغطي الحقب الزمنية منذ القرن الأول الهجري حتى قرابة نهاية القرن السابع الهجري، وهي الفترة التي توفي فيها المؤلف.

ثانيًا: يذكر الكتاب سنة الميلاد ومكانه لكل عين يترجم له، كما يذكر سنة الوفاة ومكانها، وإذا كان هناك اختلاف بين المؤرخين في سني الوفاة أو الميلاد، فإنه يذكر هذا الخلاف، ثم يرجح ما يرى أنه الصواب، مثال ذلك قوله عن إبراهيم النخعي،

وهو أول من ترجم له: "توفي سنة ست وقيل خمس وتسعين للهجرة وله تسع وأربعون سنة وقيل ثمان وخمسون سنة، والأول أصح"١.

ثالثًا: التزم المؤلف ذكر من يترجم لهم بحسب ترتيب الحروف الهجائية في الاسم

الأول فقط دون الاسم الثاني -أي اسم الأب- فإن أول من ترجم له هو إبراهيم بن حارثة ابن سعد بن ... النخع الفقيه الكوفي النخعي، والمترجم له الثاني هو إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان، والثالث إبراهيم بن أحمد إسحاق المروزي الشافعي، ولو كان ابن خلكان سار على مطلق الترتيب الهجائي المعجمي سيرًا سليمًا لكان اتبع ذلك في كل من اسم الشخص المترجم له ثم اسم أبيه وبالتالي يكون المترجم له الثالث إبراهيم بن أحمد بن إسحاق المروزي مكان إبراهيم بن حارثة النخعي. وأما آخر من ترجم لهم، فهو يونس بن يوسف المخارقي.

وإذا كان المؤلف قد فاته هذا الترتيب الحديث فإنه يعوضنا بتدقيقه في ضبط الأسماء والكنى والألقاب، والنسب، وأسماء البلدان التي ترد متصلة بالمترجم له، أو بمكان مولده أو وفاته ضبطًا صحيحًا سليمًا وبذلك يسهم إسهامًا ذا أهمية وخطر في أن يحسن الدارس نطق الأعلام.

رابعًا: يذكر المؤلف الأحداث الكبرى والأمور ذات الخطر المتصلة بحياة المترجم، مكارمه إن كان حاكمًا ونماذج من شعره إن كان شاعرًا، وأخرى من كتابته إن كان كاتبًا، ومؤلفاته إن كان عالمًا وهكذا.

لقد كان لياقوت فضل كبير على العلم والعلماء حين نقل كثيرًا من صفحات مؤلفات ثمينة ضاعت مع الزمان، فحفظ لنا نماذج تعلن عن طبيعتها، وأسلوبها ومحتواها فيساعد بذلك المهتمين والمحققين.

وعلى سبيل المثال يذكر ابن خلكان في ترجمته لابن عبد البر أبي عمر يوسف بن عبد الله كتبه التي ألفها، ويذكر من بين كتبه كتاب "بهجة المجالس وأنس المجالس" وينقل منه ثلاث صفحات تفصح عن قيمة الكتاب١. لقد ظل قراء العربية يشتاقون إلى قراءة هذا الكتاب منذ عهد ابن خلكان حتى سنة ١٩٦٢م أي قبل نحو عشر سنوات حتى عثر عليه مخطوطًا ونشر الجزء الأول من أجزائه الثلاثة٢.

وهكذا نجد ابن خلكان حين يترجم لعين من الأعيان يورد أهم ما يتصل بشخصه من أحداث أو أخبار أو طرائف أو نصوص شعرية أو نثرية أو مؤلفات، وهو من الكتب العمد في التراجم العامة في المكتبة العربية.

فوات الوفيات:

قديمًا قالوا: "الكتاب يقرأ من عنوانه" ولعلّ هذا المثل لا يكتمل انطباقه على شيء قدر انطباقه على كتاب "فوات الوفيات" أي ما فات ابن خلكان ذكره في كتابه "وفيات الأعيان".

إن مؤلف فوات الوفيات ينص على ذلك نصًّا في مقدمته لكتابه فيقول " ... إن علم التاريخ مرآة الزمان لمن تدبر، ومشكاة أنوار يطلع بها على تجارب الأمم من أمعن النظر وتفكر، وكنت ممن أكثر لكتبه المطالعة، واستحلى من فوائده المراجعة، فلما وقفت على كتاب "وفيات الأعيان" لقاضي القضاة ابن خلكان، قدس الله روحه! وجدته من أحسنها وضعًا لما اشتمل عليه من الفوائد الغزيرة، والمحاسن الكثيرة، غير أنه لم يذكر أحدًا من الخلفاء، ورأيته قد أخل بتراجم فضلاء زمانه، وجماعة ممن تقدم على أوانه، ولم أعلم أذلك ذهول عنهم، أو لم يقع له ترجمة أحد منهم؟!

فأحببت أن أجمع كتابًا يتضمن ذكر من لم يذكره من الأئمة الخلفاء، والسادة الفضلاء، من وفاته إلى الآن، فاستخرت الله تعالى، فانشرح لذلك صدري وتوكلت عليه، وفوضت إليه أمري. وسميته بـ"فوات الوفيات".

والله تعالى المسئول أن يوفق في القول والعمل، وأن يتجاوز عن هفوات الخطأ والزلل ... ".

أما مؤلف كتاب "فوات الوفيات" فهو محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الكتبي الداراني الدمشقي المولود في داريا من قرى دمشق، فلما نما عوده اشتغل بتجارة الكتب فأصاب ربحًا كبيرًا وغنًى وافرًا وظل وفيًّا للعلم فأسهم على قدر طاقته في التأليف والتصنيف وأهدى إلى المكتبة العربية كتابين نفيسين هما هذا الكتاب الذي نتناوله بالدراسة، وكتابًا آخر لا يزال مخطوطًا في مجلدات ستة سماه "عيون التواريخ" وتوفي سنة ٧٦٤هـ في دمشق.

ويمكن أن نقدم الكتاب على النحو التالي:

أولًا: ضم الكتاب الذي بين يدي وأقدم من خلاله هذه الدراسة أربعمائة وثلاثًا وثمانين ترجمة سار في تقديم أصحابها على الحروف الأبجدية، تمامًا كما فعل أستاذه ياقوت، بادئًا بالترجمة لإبراهيم بن آدم العجلي الزاهد المجاهد المتوفى سنة ١٦١هـ منتهيًا بالترجمة ليونس بن مودود بن محمد بن أيوب، وهو نفسه الملك الجواد بن الملك العادل الأيوبي، وتشكل التراجم للأدباء والعلماء الجانب الأوفر عددًا من بين تراجم الكتاب، وهو المسار نفسه الذي انتهجه سلفه ابن خلكان.

وبصدد عدد من ترجم لهم ابن شاكر، فإننا قد ذكرنا أن النسخة التي بين يدي من الكتاب، وهو في مجلدين تضم أربعمائة وثلاثًا وثمانين ترجمة في حين يذكر الشيخ محيي الدين عبد الحميد محقق النسخة ذاتها في المقدمة التي قدم بها للكتاب أن عدد من ترجم لهم المصنف ثمانمائة وستة وأربعون، ولا ندري ما الذي جعل المحقق يكتب هذا العدد الكبير في مقدمته بينما لا يضم الكتاب إلا العدد الذي

أشرنا إليه آنفًا، وهو ما يقارب نصف العدد أو يزيد قليلًا على النصف، ثم يحدث خلاف آخر في العدد حين يذكر الأستاذ محمد خير الدين الزركلي في ترجمته لابن شاكر في كتاب الأعلام أن كتاب فوات الوفيات، يقع في مجلدين اشتملا على خمسمائة واثنتين وسبعين ترجمة.

والرأي عندي في ذلك ربما كان العدد الذي ذكره المحقق صحيحًا، غير أنه لم يتوفر بين يديه إلا العدد الذي ضمته دفتا الكتاب، وقد كان من الواجب عليه أن يشير إلى ذلك في مقدمته معللًا السبب في الاختلاف بين العدد الفعلي الذي ضمه الكتاب المحقق والعدد الذي ذكره في المقدمة.

ثانيًا: للكتاب ميزة كبرى من حيث إنه ترجم لمن فات ابن خلكان أن يترجم لهم، وذلك واضح من عنوان الكتاب على ما أسلفنا، فضلًا أنه مضى في الترجمة لمشاهير الأعيان عام ٧٥٣ أي قبل وفاته بأحد عشر عامًا، وكان آخر من ترجم لهم من حيث الزمان الشاعر علي بن محمد بن غالب المعروف بمجد العرب المتوفى في الموصل في العام الذي أسلفنا، وهو بذلك غطى مساحة كبيرة من أعلام المائة الثامنة.

هذا ويكثر ابن شاكر من الترجمة لأعيان الأندلس، ولبعض شهيرات النساء مثل السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن، وحمدونة الأندلسية الشاعرة وليلى الأخيلية وعلية بنت المهدي وفضل جارية المتوكل.

ثالثًا: هناك بعض نواحي النقص أو القصور في الكتاب، ذلك أن المؤلف لا يهتم بسنوات وفاة أعيانه، فإن عددًا كبيرًا منهم قد أغفل ذكر سنوات وفاتهم، بل إنه يخطئ في بعض الأحيان في تحديد سنة الوفاة، فعلى سبيل المثال ذكر أن أبا العباس الأعمى الشاعر "واسمه الحقيقي السائب بن فروخ" قد توفي في حدود المائة. ومن الثابت تاريخيًّا أن حوارًا ممتعًا يتعلق ببني أمية قد جرى بينه وبين المنصور العباسي أثناء تولي المنصور الخلافة أي بعد سنة ١٣٦ هـ على وجه اليقين وبذلك يكون الخطأ في تحديد زمن وفاة أبي العباس الأعمى خطأ كبيرًا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه لا يضبط الأسماء والألقاب والكنى والبلاد كما فعل ياقوت، ولعل ذلك أمر طبيعي، إنه طبيعة الفارق الكبير بين ابن خلكان العالم وابن شاكر الوراق. والأمر الثالث أن المؤلف يتناول بعض الأعيان بما لا يشفي غلة أو يعطي فائدة فلا يزيد على أن يذكر للعين مقطوعة أو مقطوعتين من الشعر لا تتعدى المقطوعة بيتين، وتلك ظاهرة واضحة في كثير من صفحات الكتاب في عدد غير قليل من التراجم. وأما الأمر الرابع فهو أن ابن شاكر في ترجماته عالة على معاصره العالم الكبير صلاح الدين الصفدي في كتابه الكبير الوافي بالوفيات الذي سوف يأتي ذكره بعد قليل فإنه يكاد ينقل منه نقلًا، وهوأمر واضح في كثير من الترجمات لعل أقربها إلينا ترجمته لابن خلكان، فضلًا عن أنه كثيرًا ما ينقل من معجم الأدباء لياقوت١.

ومع ذلك فإن الكتاب جهد مفيد لا غنى لمن يعمل في حقل الأدب، والمعرفة العامة عن الاستعانة به والاطلاع عليه كلما أراد أن يستجلي أمرًا متصلًا بعين من أعيان تاريخنا وأدبنا.

الوافي بالوفيات

كتاب كبير جليل لمؤلف عالم أديب، شاعر مؤرخ رسام خطاط فنان، هو صلاح الدين الصفدي واسمه كاملًا: خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي الذي ولد في صفد سنة ٦٩٦هـ وتوفي في دمشق سنة ٧٦٤هـ، وهي السنة نفسها التي توفي فيها الوراق الأديب ابن شاكر الكتبي الذي مر ذكره.

إن صلاح الدين الصفدي واحد من العلماء القليلين الذين أصبحوا فيما بعد أساتذة، أخذ العلم عن عديد من العلماء في صفد ودمشق والقاهرة، أخذ عن الشهاب محمود، وابن سيد الناس، وابن نباتة المصري، وأبي حيان المصري، والذهبي، وابن كثير. ومن الطريف أن بعض هؤلاء العلماء العلام جلسوا للاستماع إليه حين أصبح عالمًا كبيرًا يجلس للدرس فيؤم مجلسه الكبار والصغار.

وكان الصفدي صاحب أخلاق رفيعة وشيم جليلة وشمائل طيبة مع علم وافر وإنتاج خصب وقلم معطاء وشاعرية محلقة، وإن كان قلمه حين يكتب يترسم أسلوب زمانه الممعن في السجع والزينات البديعية، لقد قال الشعر الحسن وأكثر من النثر والتواقيع، وكان لكثرة ما كتب يقول: "كتبت بيدي ما يقارب خمسمائة

مجلدة، ولعل الذي كتبته في ديوان الإنشاء ضعفًا ذلك"١ فقد تقلد كثيرًا من الوظائف في صفد، ومصر وحلب والشام.

وأما مؤلفاته فهي من الكثرة بمكان، أشهرها وأجلها كتاب "الوافي بالوفيات" هذا فضلًا عن نحو مئتي كتاب أخرى وصل إلى أيدينا عدد جليل منها، طبع بعضه ولا يزال البعض الآخر ينتظر دوره في التحقيق والطباعة، فمن كتبه المطبوعة: الوافي بالوفيات الذي طبع منه حتى كتابة هذا الكتاب ثمانية مجلدات، ونكت الهميان في نكت العميان، والغيث المسجم في شرح لامية المعجم، وجنان الجناس، وتشنيف السمع في انسكاب الدمع، ودمعة الباكي، وتمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، وتحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب، وقهر الوجوه العابسة في نسب الجراكسة، ووصف الهلال.

وكان صلاح الدين الصفدي مغرمًا بالتراجم، ولذلك فإنه ألف في ذلك عددًا غير قليل في هذا النوع من العلوم، لقد أفرد من كتابه الكبير الوافي بالوفيات البالغ ثلاثين مجلدًا، ستة مجلدات لأهل عصره وأعيان زمانه أسماه "أعيان العصر وأعوان النصر" ومنها الشعور بالعور في تراجم الصور" و "التذكرة" وهي كتاب كبير جدًّا في التراجم والشعر والأدب والأخبار.

ومن كتبه التي لا تزال مخطوطة: ألحان السواجع وهي رسائله لبعض معاصريه، ونصرة الثائر في نقد المثل السائر، وديوان الفصحاء يتناول فيه موضوعات في الأدب، وجلوة المذاكرة وهو في الأدب أيضًا، والمجاراة والمجازاة، وفض الختام في

التورية والاستخدام، والروض الناسم، والحسن الصريح في مائة مليح، والتنبيه على التشبيه، وجر الذيل في وصف الخيل، وتوشيح الترشيح، ورسالة في وصف الحريق، وغير ذلك كثير ما لم يصل إلى أيدينا حتى الآن، أما تلك الكتب التي ذكرنا فهي جميعًا موجودة، المطبوع منها بين أيدي قراء الأدب والتاريخ وطالبي الثقافة والباحثين عن المعرفة، والمخطوط منها يمكن للمتخصصين الوصول إليها في مكامنها من المكتبات العامة والخاصة المتفرقة في أنحاء العالمين العربي والإسلامي، وبعض مكتبات أوربا وأمريكا.

منهج الكتاب:

إنا باستعراضنا للكتب التي ألفها صاحب الوافي بالوفيات نجد أكثرها كتبًا أدبية، وهذا أمر طبيعي بالنسبة إلى فنان كصلاح الدين الصفدي، وهو في الوقت نفسه يؤلف في التاريخ، ثم يجمع بين الأدب والتاريخ في كتبه العديدة في التراجم التي أهمها وأكبرها، بل من أكثر كتب التراجم العربية، كتاب "الوافي بالوفيات" الذي كان كتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان ماثلًا في خاطره دون شك حين تأليفه إياه، ومن ثم فقد أسماه هذا الاسم الذي يبدو فيه المقارعة أو المنافسة والمباراة، وليس هناك أعظم من المنافسة في تقديم العلم إلى الناس بل لعل هذا اللون من المنافسة هو أشرف ألوان المنافسات وأظهرها وأكثرها بركة وأجزلها ثوابًا.

إن للكتاب منهجًا واضحًا وغرضًا بينًا، ونحن نفضل أن نترك المؤلف يقدم منهج كتابه، بنفسه وبلغته الأدبية المتميزة به التي تعطي صورة واضحة عن أسلوب الكتابة في القرن الثامن الهجري الذي عاش المؤلف ثلثيه الأول والثاني، إن المؤلف بعد أن يستهل مقدمته بخطبة يحمد الله فيها ويصلي ويسلم على أنبيائه، ويتحدث عن أخبار الماضين وآثار السالفين والحكمة المستفادة من ذلك إذ:

وما نحن إلا مثلهم غير أنهم ... مضوا قبلنا قدمًا ونحن على الإثر

يقول:١

"والتاريخ للزمان مرآة، وتراجم العالم للمشاركة في المشاهدة مرقاة، وأخبار الماضين لمن عاقر الهموم ملهاة.

لولا أحاديث أبقتها أوائلنا ... من الندى والردى لم يعرف السمر

وما أحسن قول الإجاني:

إذا عرف الإنسان أخبار من مضى ... توهمته قد عاش في أول الدهر

وتحسبه قد عاش آخر دهره ... إلى الحشر إن أبقى الجميل من الذكر

فقد عاش كل الدهر من كان عالمًا ... كريمًا حليمًا فاغتنم أطول العمر

وربما أفاد التاريخ حزمًا وعزمًا، وموعظة وعلمًا، وهمة تذهب همًّا، وبيانًا يزيل وهنًا، وحيلًا تثار للأعادي من مكامن المكايد وسبلًا لا تعرج بالأماني إلى أن تقع من المصايب في مصايد، وصبرًا يبعثه التأسي بمن مضى، واحتسابًا يوجب الرضا، بما مر وحلا من القضا، وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك فكم تشبث من وقف على التواريخ بأذيال معالٍ تنوعت أجناسها، وتشبه بمن أخلده إلى الأرض، وأصعده سعده إلى السهى؛ لأنه أخذ التجارب مجانًا ممن أنفق فيها عمره، وتجلت له العبر في مرآة عقله فلم تطفح لها من قلبه جمرة، ولم تسفح لها في خده عبرة، لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب.

فأحببت أن أجمع من تراجم الأعيان من هذه الأمة الوسط، وكملة هذه الملة التي مد الله تعالى لها الفضل الأوفى وبسط، وبخباء الزمان وأمجاده ورءوس كل فضل وأعضاده وأساطين كل علم وأوتاده، وأبطال كل ملحمة وشجعان كل حرب، وفرسان كل معرك لا يسلمون من الطعن ولا يخرجون عن الضرب، ممن وقع عليه اختيار تتبعي واختياري، ولزني إليه اضطرام تطلبي واضطراري، ما يكون متسعًا في هذا التأليف دره منتشقًا من روض هذا التصنيف زهره، فلا أغادر أحدًا من الخلفاء الراشدين، وأعيان الصحابة والتابعين، والملوك والأمراء والقضاة والعمال والوزراء، والقراء والمحدثين والفقهاء، والمشايخ، والصلحاء، وأرباب العرفان والأولياء والنحاة والأدباء والكتاب والشعراء، والأطباء والحكماء والألباء والعقلاء وأصحاب النحل والبدع والآراء، وأعيان كل فن اشتهر ممن أتقنه من الفضلاء، من كل نجيب مجيد، ولبيب مفيد.

طواه الردى طي الرداء وغيبت ... فواضله عن قومه وفضايله

فقد دعوت الجفلى إلى هذا التأليف، وفتحت أبوابها لمن دخلها بلا تسويغ تسويف، ولا تكليم تكليف، وذكرت لمن يجب فتحًا يسره، أو خيرًا قرره، أو جودًا أرسله، أو رأيًا أعمله، أو حسنة أسداها أو سيئة أبداها، أو بدعة سفها وزخرفها، أو مقالة حرر فنها وعرفها، أو كتابًا وضعه أو تأليفًا جمعه، أو شعرًا نظمه أو نثرًا أحكمه.

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ... ما فاته وفضول العيش أشغال

ولم أخل بذكر وفاة أحد منهم إلا فيما ندر وشذ، وانخرط في سلك أقرانه وهو فذ؛ لأني لم أتحقق وفاته، وكم من حاول أمرًا فما بلغه وفاته على أنه قد يجيء في خلال ذلك من لا يضطر إلى ذكره، ويبدو هجر شوكه بين وصال زهره. قال الخليل بن أحمد رحمه الله تعالى: لا يصل إليه محتاجًا إليه؛ لأن المتوقف وجوده على وجود شيء آخر متوقف على وجوده ذلك الشيء، وهكذا كل علم لا يبلغ الإنسان إتقانه إلا بعد تحصيل ما لم يفتقر إليه. فقد أذكر في كتابي هذا من لا مزية له، وجعلت إصبع القلم من ذكره تحت رزه رزية، غير أنه له مجرد رواية، عن المعارف متفردة، ولم تكن له دراية، حمائمها على غصون النقل مغردة

والأيك مشتبهات في منابتها ... وإنما يقع التفضيل في الثمر

ولكن أردت النفع به للمحدث والأديب، والرغبة فيه للبيب الأريب وجعلت ترتيبه على الحروف وتبويبه، وتذهيب وضعه بذلك وتهذيبه، على أنني ابتدأت بذكر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسلم إذ هو الذي أتى بهذا الدين القيم وسراجه الوهاج، وصاحب التنبيه على هذه الشرعة والمنهاج، فأذكر ترجمته مختصرًا، وأسرد أمره مقتصرًا؛ لأن الناس قد صنفوا المغازي والسير، وأطالوا الخبر فيها كما أطابوا الخبر، ومليت لما ملئت بشمايله مهارق التواليف، ورفعت لما وضعت تيجانها على مفارق التصانيف".

هذا ما كان من أمر منهج المؤلف في مقدمة كتابه الكبير، وأما المقدمة نفسها فتضم أحد عشر فصلًا في الثقافة التاريخية والتأليف التاريخي: الفصل الأول في

بداية التاريخ عند العرب، وذكر رأي من قال إنه بدأ بموت كعب بن لؤي، ورأي من قال: إنه بدأ بموت الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم لإعظامهم إياه، ورأي من قال بعام الفيل، ورأي من قال بإعادة بناء الكعبة، ثم يستطرد المؤلف إلى ذكر أقدم التواريخ التي بين أيدي الناس، وجعل المؤلف الفصل الثاني من مقدمته في تمييز الأعداد وضروات الشعر، ذلك أن المؤرخ أديب كاتب يحتاج إلى كتابة الأعداد المرتبطة بالتواريخ ومن ثم ينبغي معرفة تمييز كل عدد، هذا فضلًا عن حاجته إلى رواية الشعر والاستشهاد به، وجعل الفصل الثالث في كيفية كتابة التاريخ قاصدًا بذلك ذكر الأعداد المرتبطة بالشهور وتمييزها والضمائر التي تعود عليها، وما يجوز وما لا يجوز، وصفات الشهور، وصفات بعض الأيام، ويضرب مثالًا بأول شوال وهو عيد النحر، وتاسع المحرم وهو يوم تاسعواء، وعاشره وهو يوم عاشوراء وهكذا. ولما كان المؤرخ محتاجًا إلى استعمال النسب فإن المؤلف يجعل الفصل الرابع للنسب وما يتصل به نحويًّا وصرفيًّا. والفصل الخامس جعله في بيان العلم والكنية واللقب وذكر وجوب تقديم اللقب على الكنية، والكنية على العلم، ثم النسبة إلى البلد ثم إلى الأصل، ثم إلى المذهب في الفروع، ثم إلى المذهب في الاعتقاد إلخ، إنه تفصيل طريف يفيد المهتم بالأسماء والصفات والألقاب والكنى، وجل المؤلف الفصل السادس من مقدمته في الهجاء والكتابة ويهتم بصفة خاصة بالهمزة والألف والواو والياء والفصل السابع يخصصه المؤلف لنوعية على الحروف أليق بالتراجم، وهو يعني هنا ترتيب حروف أهل المشرق، فإن للمغاربة ترتيبًا آخر

للأبجدية. والفصل الثامن جعله المؤلف في الوفاة وأصلها ومشتقاتها واستعمال هذه المشتقات والصيغ المختلفة للاسم والصفة والفعل. والفصل التاسع أفرده المؤلف لذكاء المؤرخ، وثقافته، وأمثلة يتعرف من خلالها على الخبر الصحيح والخبر المزيف أو الخاطئ، كما جعل الفصل العاشر لأدب المؤرخ والشروط التي ينبغي أن تتوفر فيه. إنها مقدمة طويلة، أو هي بالأحرى دراسة منهجية تتعلق بالمنهج والوسيلة اللذين ينبغي للكاتب المؤلف أن يكون ملمًّا بهما منفذًا لهما، يستوي في ذلك كاتب التاريخ العام، أو كاتب تاريخ الأدب أو تاريخ الحديث.

ولما كانت كتب التراجم تأخذ صفة تاريخية؛ لأنها تؤرخ للأعلام، فإن صلاح الدين الصفدي يجعل الفصل الحادي عشر من مقدمته استعراضًا لأسماء كتب التاريخ، وهي: كتب تاريخ المشرق، كتب تاريخ مصر، كتب تاريخ المغرب، كتب تاريخ اليمن والحجاز، كتب التواريخ الجامعة، كتب تواريخ الخلفاء، كتب تواريخ الملوك، كتب تواريخ الوزراء والعمال، كتب تواريخ القضاة، كتب تواريخ القراء، كتب تواريخ العلماء، كتب تواريخ الشعراء، ثم كتب تواريخ مختلفة.

لقد سلك صلاح الدين الصفدي مسلك المثقفين من أصحاب التآليف حين عمد إلى التقديم لكتابه بشرح منهجه مقرونًا ببحث عن جوانب كتابة التواريخ.

هذا ويمكن أن نعرض لترتيب "الوافي بالوفيات" على النحو التالي:

أولًا: يقع الكتاب في ثلاثين مجلدًا، طبع منه حتى الآن ثمانية مجلدات تشتمل على ثلاثة آلاف وتسعمائة وإحدى عشرة ترجمة، وآخر التراجم المطبوعة هي ترجمة إسحاق جارية المتوكل وأم كل من المؤيد والموفق.

ثانيًا: يبدأ الكتاب حسبما ذكرنا بالترجمة لأعيان الأدب والتاريخ سالكًا ترتيب الحروف الهجائية المشرقية، غير أنه استثنى المحمدين من الأعيان، فجعل مكانهم في الكتاب يسبق جميع الأسماء، وذلك تبركًا باسم النبي صلى الله عليه وسلم، فيذكر من سموا محمدًا في الجاهلية. وأول من سموا محمدًا من أبناء المهاجرين وأبناء الأنصار، ثم يبدأ في ترجمة للرسول صلى الله عليه وسلم تستغرق نحوًا من أربعين صفحة١ يتبعها بالترجمة لمن اسم أبيه محمد من المحمدين، ثم لمن اسم أبيه وحده محمد من المحمدين، وهكذا حتى يصل إلى ترجمة العين المكون من خمسة محمدين اسمًا وأبًا وجدودًا.

هذا والجدير بالذكر أن عدد المحمدين الذين ترجم لهم الكتاب -باستثناء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم- بلغ ألفين وثلاثمائة وواحدًا وخمسين عينًا من أعيان التاريخ حتى عصر المؤلف ملأت صفحات المجلدات الأربعة الأولى من الكتاب وثلاثة أرباع المجلد الخامس وآخره محمد بن يونس٢ المعروف بالشيخ جمال الدين الساوجي الزاهد شيخ الطريقة القرندلية.

ثالثًا: بعد أن ينتهي المؤلف من الترجمة للمحمدين من الأعلام يبدأ البداية الطبيعية حسب حروف المعجم، فيترجم لمن بدأت أسماؤهم فيكون آدم الاسم

التالي لاسم محمد ويمضي المؤلف على سنته حتى يصل إلى اسم أحمد فإذا بعدد الذين ترجم لهم من الأحمدين يبلغ ألفًا وتسعة وستين اسمًا تستغرق مجلدين وربع مجلد من الكتاب، وبعبارة أدق تستغرق النصف الثاني من المجلد السادس، وجميع المجلد السابع وثلاثة أرباع المجلد الثامن الذي هو الأخير المطبوع بين أيدينا حتى كتابة هذه السطور١.

رابعًا: يعني المؤلف بذكر اللقب والكنية للذين يترجم لهم، ويعني بضبط ما يراه ضروريًّا منها وبخاصة النسبة إذا كانت إلى اسم أعجمي أو عربي غير كثير الشيوع.

خامسًا: لكثرة ما أورد صاحب الوافي من أعيان فإن الترجمة تختلف طولًا وقصرًا وتفصيلًا وإيجازًا حسب أهمية العين، أو حسب المادة المتاحة حوله لدى المؤلف، فإن عددًا كبيرًا من أصحاب التراجم يحتل الواحد منهم عشرين صفحة، أو يزيد مثل ترجمة ابن سيد الناس٢ أو ابن نباتة المصري٣. وقد تأتي الترجمة موجزة بحيث تقتصر على الاسم، وتاريخ الوفاة ومكانها ٤. وأحيانًا تكون أشد إيجازًا فتقتصر على الاسم وتاريخ الوفاة وحدهما ٥ وفي أحيان قليلة يغفل المؤلف ذكر تاريخ الوفاة، ولكنه يجتهد في أن يعطي القارئ قرينة يستطيع أن يتعرف من خلالها إلى الفترة الزمنية التي عاش فيها المترجم له على وجه التقريب٦.

سادسًا: كان المؤلف من الحصافة بمكان، إنه يعرف أن كثيرين من الأعلام عرفوا بألقابهم أو بنسبتهم أو بأسماء شهرة وأن أسماءهم الأصلية تخفى على كثير من الناس حتى الخاصة منهم، إنه حينئذ يذكر المترجم له شهرته أو نسبته أو كنيته،

ثم يردف ذلك باسمه الحقيقي ويحيل القارئ على مكانه حسب الترتيب الهجائي للاسم، فمثلًا الأرجاني الشاعر غير معروف باسمه لدى كثير من المتأدبين فيأتي به المؤلف في مكانه من حرف الهمزة، ثم يقول اسمه الحقيقي أحمد بن محمد بن الحسين فيذهب القارئ باحثًا عنه في مكانه بين الأحمدين ٧ أو أرجوان الأرمنية، يقول المؤلف: اسمها قرة العين، يأتي ذكرها إن شاء الله تعالى في حرف القاف١.

إن الوافي بالوفيات عمل جليل من أعمال العلماء الأعلام في ميدان التراجم للأعيان نحس فيه دقة الباحث، ووقار العالم وذوق الأديب وفيض المؤرخ، وهو بعد لا يزال المطبوع منه واقفًا في ظلال حرف الهمزة باستثناء المحمدين، ومعنى ذلك أن الشوط معه لا يزال طويلًا، فإن تم التحقيق والنشر لباقي المجلدات على أساس من الدقة والعناية كان الشوط معه على طوله مثمرًا مباركًا.

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر

إن هذا اللون من ألوان كتب التراجم يختلف عن سابقيه من حيث كونه يحدد الزمان، ولا يحفل بالمكان، بمعنى أنه يختص بالترجمة للذين تحددت مرحلة حياتهم في خلال قرن واحد من الزمان مهما كان الصقع، أو القطر، أو المصر الذي سكنوه، يستوي في ذلك ساكن الهند أو السند، أو إيران، أو العراق، أو تركيا أو يوغوسلافيا أو منطقة الروم أو الشام أو مصر أو المغرب.

وإن لهذا اللون من التراجم أكثر من كتاب مشهور مثل "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" لشيخ الإسلام العالم الجليل شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ قام فيه بالترجمة لأعيان القرن الثامن الذين بلغ عددهم في كتابه ذي الخمسة أجزاء خمسة آلاف ومائتين وأربعة منهم عدد غير قليل من النساء أكثرهن فواطم وزينبات، سار فيه على ترتيب حروف المعجم بادئًا بالهمزة غير أنه استهل ترجماته بمن اسمه "إبراهيم" تيمنًا بسيدنا إبراهيل الخليل مع وجود من اسمه آقش ومن اسمها آمنة، وكل من الاسمين يسبق إبراهيم في الترتيب الهجائي١.

وعن المائة التاسعة يكتب شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي كتابه الكبير "الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع"، في اثني عشر جزءًا ناهجًا سبيل الترتيب الهجائي أيضًا، غير غافل عن الترجمة لنفسه تراجم طويلة نسبيًّا.

ومن هذا اللون من التراجم أيضًا الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة للعالم الجليل نجم الدين أبي المكارم محمد الغزي الذين عاش في دمشق بين عامي ٩٦٧-١٠٦١هـ و"الكواكب السائرة" يختلف عن "الدرر الكامنة" اختلافًا بسيطًا من حيث الترتيب.

على الرغم من التزامه فترة زمنية معينة هي القرن العاشر على مساحة الأرض الإسلامية كلها، ذلك أنه قسم القرن إلى ثلاثة أثلاث، أطلق على أعيان كل ثلث لقب "طبقة" وبدأ الترجمة "للمحمدين" في كل طبقة وبعدها يلتزم الأعلام المبتدئة بالهمزة، ويسير على نسق الحروف الهجائية حتى آخر الطبقة، وقد اهتم كثيرًا بالنصوص الشعرية وترجم للأعيان من النساء وبخاصة الشاعرات منهن١.

وأما خلاصة الأثر فقد آثرناه بالعرض والدراسة؛ لأنه أكثر مادة وتفصيلًا وأوفر احتفالًا وشمولًا، ومؤلفه هو العالم الجليل محمد أمين المحبي الذي سبقت الإشارة إلى عمله وفضله عند حديثنا على الترتيب التاريخي لطبقات الشعرءا عندما ألمحنا إلى مؤلفه النفيس "نفحة الريحانة ورشحة طلا الحانة".

منهج "خلاصة الأثر"

أولًا: إن الكتاب كما هو واضح من عنوانه -شأنه شأن سابقيه اللذين ألمحنا إليهما قبل قليل- يترجم لأعيان عاشوا في فترة زمنية محددة بالقرن الحادي عشر، ولكنه أعطى لنفسه حرية أفقية عريضة على مساحة الأراضي الإسلامية من الهند شرقًا حتى المغرب غربًا مرورًا بالقسطنطينية ووسط أوروبا. ويفصل بعض منهجه على هذا النحو: "وكنت شديد الحرص على خبر أسمعه، أو على شعر تفرق شمله فأجمعه، خصوصًا لمتأخري أهل الزمن، المالكين لأزمة الفصاحة واللسن، من كل ملك تتلى سورة فخره بكل زمان، وأمير لم تبرح صورة ذكره تجلى على ناظر كل مكان، وإمام لم تنجب أم الليالي بمثاله، وأديب تهتز معاطف البلاغة عند سماع فضله وكماله، حتى اجتمع عندي ما طاب وراق، وزين بمحاسن لطائفه الأقلام والأوراق، فاقتصرت منه على أخبار المائة التي أنا فيها، وطرحت ما يخالفها من أخيار من تقدمها وينافيها، حرصًا على جمع ما لم يجمع، وتقييد شيء ما قيل إلا ليسمع١.

والواقع أن المحبي في أثره هذا ينوع من يترجم لهم، فذكر عددًا من السلاطين منهم السلطان أحمد بن السلطان محمد مراد، وقال عنه إنه كان شاعرًا بالعربية وجاء له بنماذج من شعره ورأى أنه أعظم سلاطين آل عثمان٢، كما ترجم لابنه السلطان مراد بن السلطان أحمد، وجده السلطان مراد الأقدم بن السلطان سليم١.

ومن اليمن ترجم لعدد من الأئمة منهم على سبيل المثال الإمام إسماعيل بن القسام بن محمد بن علي المتوكل على الله الزيدي، وذكر الكثير من أخباره، والمختار من أشعاره٢.

ومن الأمراء ترجم لعدد غير قليل، نذكر منهم على سبيل المثال -ونحن نكتب هذا الكتاب على أرض لبنان- الأمير فخر الدين بن قرقماص بن معن٣، المشهور بالأمير فخر الدين المعني ويذكر الأحداث التي مرت به والطريقة التي انتهت بها حياته، وينتهز المحبي فرصة الحديث عن فخر الدين، فيذكر الدروز وتاريخهم وعقيدتهم بشيء من الإيجاز.

وهو إذ يذكر السلاطين في القسطنطينية، والأئمة في اليمن والأمراء في لبنان لا ينسى الحجاز ونجدًا فيترجم للشريف بركات بن محمد بن إبراهيم الحسني صاحب مكة والحجاز ونجد ترجمة حافلة خصيبة طويلة تاريخية الطابع إخبارية المنهج٤، ولكنه لا يغادر مكة قبل أن يقدم لنا الشاعر المبدع أحمد بن محمد الجوهري المكي٥.

ثانيًا: ينفتح المحبي على المساحة الأرضية انفتاحًا عريضًا واسعًا ذاكرًا أهل العلم والأدب والشعر موردًا النماذج العديدة في مختلف موضوعات الشعر في قصيد، موشحات، وأزجال، ودوبيب، ولعل خير من ترجم له جامعًا القول في هذه الفنون هو أبو بكر العمري الدمشقي٦، ومن دمشق ينتقل بنا المحبي إلى مكة ليترجم لأبي

الفضل بن محمد العقاد المكي الشاعر الوشاح، ويأتي بشيء من أخباره وبعض موشحاته وأشعاره٧.

ومن مكة ينساح المحبي إلى الهند ليقدم لنا الشاعر الجوهري المكي الذي توفي في آخر عام من أعوام القرن الحادي عشر أعني عام ١٠٩٩هـ٨، ولا يغادر المؤلف الهند قبل أن يترجم لابن معصوم الأب: الأمير محمد بن محمد بن معصوم المتوفى في حيدر أباد سنة ١٠٨٦هـ مقدمًا الكثير من شعره٩.

ومن صنعاء يترجم المحبي للشاعر المبدع صلاح بن أحمد بن عز الدين الصنعاني المتوفى سنة١٠٧٠هـ مع تقديم باقة جميلة من شعره١.

ومن القاهرة يقدم صاحب خلاصة الأثر العديد من الأعيان، ويقدم ترجمة مفصلة للعلامة قاضي القضاة، شهاب الدين الخفاجي المصري٢، ومن القاهرة ينتقل إلى شمال إفريقية حتى يترجم لعالم جليل هو أحمد بن محمد المقري التلمساني صاحب كتاب نفخ الطيب٣.

ومن المنطقة الآسيوية الأفريقية ينتقل المحبي إلى الترجمة للعلماء المسلمين في أوروبا، فيترجم لعالم جليل من البوسنة وتولى الإفتاء في بلغراد فعد أن حصل الكثير من العلم في بلدته هو فضل الله بن عيسى البوسنوي الذي كان أحد العلماء الأعيان معرفة وإتقانًا وحفظًا وضبطًا للفقه وتفهمًا، عارفًا بالحديث وفنون اللغة٤.

ومن المنطقة نفسها يترجم المحبي لعديد من العلماء، ويميط اللثام عن أن هذه المنطقة من أوروبا قد أخصبت علوم الدين واللغة بالعديد من العلماء الأفذاذ الكبار.

ولكننا وحن نعرض هؤلاء الأعيان ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن المؤلف يترجم لهم حسب الترتيب الهجائي لأسمائهم وإن كنا سمحنا لأنفسنا بعرض نماذج منهم متفرقين لكي نصور للقارئ امتداد رقعة الأرض التي ترجم لأعلامها امتدادًا غير محدد بالمساحة وإن كان محددًا بالزمان.

ثالثًا: تمتاز ترجمات المحبي لأعيانه في خلاصة الأثر باللون الأدبي، وكثرة ذكر الأدباء من العلماء والوزراء والملوك، والسلاطين، والأطباء من إليهم بحيث إنه لولا العرض النهائي للأسماء لخطر على الظن أننا نقرأ في نفحة الريحانة، ذلك أن أكثر من نصف مساحة الأجزاء الأربعة من خلاصة الأثر فنون شعرية خالصة، ومن هنا كان اختيارنا لهذا الكتاب كأنموذج لكتب التراجم على نظام السنين يمكن أن يؤدي لقارئ الأدب ساعدًا ويدًا. بل إن الترجمة لأديب واحد قد تعادل من حيث القدر والمساحة ما يترجم فيه لعدد من الأعيان غير الأدباء.

هذا وقد خلا الكتاب بأكمله من الترجمة لعين واحدة من النساء.

رابعًا: الكتاب يقوم على ترتيب التراجم حسب الحروف الهجائية مع التزام الدقة من غير تقديم الأسماء ذات الطابع المبارك كالمحمدين أو العبادلة -وهذا شيء أشرنا

إليه- ولكن الأمر الذي يدعو إلى احترام المؤلف، والإعجاب بالكتاب أن المؤلف ذكر مراجعه التي اعتمد عليها، وهو يؤلف كتابه وذلك في قوله١:

"وقد وجد عندي مما أحتاج إليه من المعونة، والآثار المتعلقة بهذه المؤنة، ذيل النجم الغزي وطبقات الصوفية للمناوي، وتاريخ الحسن البوريني وذيله لوالدي المرحوم، وخبايا الزوايا والريحانة للخفاجي، وذكرى حبيب للبديعي، ومنتزه العيون والألباب لعبد البر الفيومي، هذا ما عدا المجاميع والتلقيات من الأفواه والمكاتبات، وكان بقي على بعض أخبار اليمن والبحرين والحجاز، وقد تعسر علي في طريق تطلب حقيقتها المجاز، فلما من الله علي وله المنة، والمنحة التي لا يشوبها كدر المحنة، بالمجاورة في بيته المعظم، والالتقاط من بحار أهليه الدر المنظم، تلقيت من الأفواه تراجم لأناس يسيرة، كانت في التحصيل علي عسيرة، وهم وإن كانوا قليلين في العدد، فإنهم كثيرون بسب أنهم ذريعة للمدد في كل المدد، وقد يقال إن أعداد الكبار الشم الأنوف، ربما عدلت عشراتها بالمئين ومئوها بالألوف، ثم وقفت في أثناء السنة على ذيل الجمالي محمد الشبلي المكي الذي ذيل به على النور السافر، في أخبار القرن العاشر، للشيخ عبد القادر بن الشيخ العيدروس، والمشرع الروي في أبخار آل باعلوي له أيضًا، وعلى تراجم منقولة من تاريخ ألفه الصفي بن أبي الرجال اليمني في أهل اليمن، فأجلت فكري في مجالها، وألحقتها بحسب ترتيبها في محالها. وكان وصلني خبر الكتاب الذي أنشأه السيد علي بن معصوم ذيلًا على الريحانة، ووسمه بسلافة العصر، في شعراء أهل العصر، فلم أزل حتى حصلته،

وقطعت به أمر الطلب ووصلته. وأتحفني بعض الأفاضل بذيل الشقائق الذي ألفه ابن نوعي بالتركية، وضمنه معظم أهل الدولة العثمانية، ووصلني بعض الإخوان بقطعة من تاريخ أنشأه الشيخ مدين القوصوني المصري ذكر فيه تراجم كبراء العلماء من أهل القاهرة، وزين طروس سطوره بمآثرهم الباهرة، فكانتا عندي فاكهتين باكورتين وتحفتين بلسان البراعة مشكورتين فجمعت الجميع على نية الترتيب، مستعينًا في خصوصه بالفياض المجيب، وأضفت إلى تلك الأخبار المواليد والوفيات، حسبما حررته من التعاليق التي هي بهذا الغرض وافيات، وما أقدمني على هذا الشأن، إلا تخلف أبناء الزمان، عن إحراز خصل الفضل في هذا الميدان:

لعمر أبيك ما نسب المعلى ... إلى كرم وفي الدنيا كريم

ولكن البلاد إذا اقشعرت ... وصوح نبتها رعي الهشيم

فإنا ذلك الهشيم، الذي سد مسد الكريم، كيف وقد نجم نجم الجهل، وصوح نبت بنت الفضل، وصدئت القلوب، وضعف الطالب والمطلوب، وربما يظن أن ما تخالج فيه صدري وهجس، لرعونة أوجبها الفراغ والهوس، كلا بل ذلك لأمر يستحسنه اللبيب، ويحسن موقعه لدى كل أريب لما فيه من بقاء ذكر أناس شنفت مآثرهم الأسماع، وجمع أشتات فضائل حكم الدهر عليها بالضياع.

خامسًا: يهتم المؤلف بالمترجم ويحتفل به من حيث ذكر اسمه كاملًا مع صفته وكنيته ونسبته ومحل ميلاده وتاريخه ودار الإقامة والتنقل والأسفار وتحصيله

العلم، وآثاره العلمية إن كان مؤلفًا والأدبية إن كان أديبًا وأخباره مفصلة إن كان شخصية عامة والوظائف التي تقلدها والأعمال التي أسندت إليه، مع مراعاة الدقة التامة في ذكر تاريخ الوفاة ومكانها إلا في حالات قليلة لا يكاد المرء يلتفت إليها.

سادسًا: أما والمؤلف يجمع بين صفتي الأدب والعلم فإنه حين يقدم لكتابه يتبع أسلوب عصره فيعمد إلى السجع المتواتر والجناس الملتزم وبقية الصناعة البديعية من مقابلة وطباق وتصريع، فإذا ما انعطف إلى ميدان القول في التراجم كان سهل الأسلوب عذب العرض رشيق العبارة في غير ما تكلف، أو تصنع إلا في حالات من يريد أن يضفي على شخصياتهم اهتمامًا خاصًّا من أعيانه فإنه حيئنذ -وتلك حالات غير كثيرة- يستبيح لنفسه قليلًا من الصنعة وبعض الأناقة في العرض.

وبعد، فكتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر يعتبر خير كتب التراجم التي حصر أصحابها أنفسهم بفترة زمنية محدودة. على أننا في الوقت نفسه لا ننال من قدر بقية لاكتب الأخرى التي انتهجت السبيل نفسه، بل التي سبقت إلى السبيل نفسه مثل "الدرر الكامنة" و "الكواكب السائرة" فكلها يقع بين درة مكنونة أونجم وهاج يهدي إلى القلوب نور المعرفة وإلى العقول سبل الثقافة ومناهج الرشد.